الزهاد الأوائل

دراسة فى الحياة الروحية الخالصة
فى القرون الأولى

دكتور
مصطفى حلمى
أستاذ مساعد بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة



الطبعة الأولى

المحرم سنة ١٤٠٠ هـ = ديسمبر سنة ١٩٧٩ م

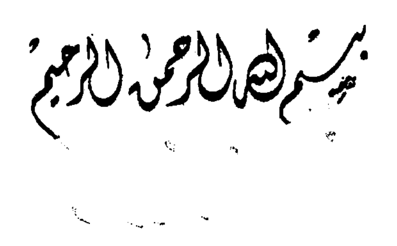
الزهاد الأوائل

دراسة فى الحياة الروحية الخالصة فى القرون الأولى

دكتور مصطفى حلمى

الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم
الأستاذ المشارك بكلية التربية
جامعة الرياض

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع
٢ شارع منشا . محرم بك ، الاسكندرية


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له إقراراً به وتوحيداً وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صل عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه ودعا بدعوته وسلم تسليما كثيراً .

أما بعد ،

فليس الحديث عن الثنائية فى خلق الإنسان بين الجسد والروح والمقارنة بينهما حديث عصرنا وحده ، فإن فتن الدنيا وحب الشهوات من النساء والبنين والأموال والجاه والسلطان هى فتن الإنسان فى كل الأعصار ، قال الله تعالى : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) ١٤ آل عمران .

فالبشر هم البشر ، والنزاع سيظل دائرا بين الإنسان وهذه الشهوات مادام فيه عرق ينبض ، ولكن من رحمة الله عز وجل بعباده - وهو أرحم الراحمين - أن أرسل إليهم الرسل والأنبياء لهدايتهم إلى الطريق الصحيح ، ولو ظلت الأمم على طريقتهم لما حدثت المآسى والأهوال التى عانت منها بسبب الكفر والعناد .

ثم أرسل سبحانه وتعالى سيد الخلق وإمام الكل محمداً ﷺ ليختم دائرة النبوة والرسالة ، كما خص أمته بصفوة من خير خلقه - جيلا بعد جيل - متمسكة بالميثاق منذ وفاة نبيها عليه الصلاة والسلام إلى انتهاء أجل الدنيا .

ونود تصدير هذه المقدمة بضعة أسطر فى وصفه صلوات الله عليه وهى من

أفضل ما وقعت عليه أعيننا فيما سطره من علماؤنا في وصف سجاياه ﷺ .

قال ابن القيم : ـ

(ومما ينبغي أن يعلم أن كل خصلة من خصال الفضل قد أحل الله رسوله ﷺ في أعلاها وخصه بذروة سنامها ، فإذا احتجت بخلة فرقة من فرق الأمة التي تعرفت تلك الخصال وتقاسمتها على فضلها على غيرها ، أمكن الفرقة الأخرى أن تحتج به على فضلها أيضا . فإذا احتج به الغزاة والمجاهدون على أنهم أفضل الطوائف احتج به العلماء والفقهاء على مثل ما احتج به أولئك ، وإذا احتج به الزهاد والمتخلفون عن الدنيا على فضلهم ، احتج به العلماء والفقهاء على مثل ما احتج به أولئك ، وإذا احتج به الزهاد والمتخلفون عن الدنيا على فضلهم احتج به الداخلون في الدنيا والولاية وسياسة الرعية لإقامة دين الله وتنفيذ أمره وإذا احتج به الفقير الصابر احتج به الغني الشاكر ، وإذا احتج به أهل العبادة على فضل نوافل العبادة وترجيحها احتج به العارفون على فضل المعرفة ، وإذا احتج به أرباب التواضع والحلم احتج به أرباب العز والقهر للمبطلين والغلظة عليهم والبطش بهم ، وإذا احتج به أرباب الوقار والهيبة والرزانة ، احتج به أرباب الخلق الحسن والمزاح المباح الذي لا يخرج عن الحق وحسن العشرة للأهل والأصحاب ، وإذا احتج به أصحاب الصدع بالحق والقول به في المشهد والمغيب ، احتج به أصحاب المداراة والحياء والكرم أن يبادروا الرجل بما يكرهه في وجهه ، وإذا احتج به المتورعون عن الورع المحمود ، احتج به الميسرون المسهلون الذين لا يخرجون عن سعة شريعته ويسرها وسهولتها ، وإذا احتج به من صرف عنايته إلى إصلاح دينه وقلبه ، احتج به من راعى إصلاح بدنه ومعيشته ودنياه ؛ فإنه ﷺ بعث لصلاح الدنيا والدين ، وإذا احتج به من لم يعلق قلبه بالأسباب

ولا ركن إليها ، احتج به من قام بالأسباب ووضعها مواضعها وأعطاها حقها ؛ وإذا احتج به من جاع وصبر على الجوع احتج به من شبع وشكر ربه على الشبع ، وإذا احتج به من أخذ بالعفو والصفح والاحتمال احتج به من انتقم في مواضع الانتقام ، وإذا احتج به من أعطى لله ووالى لله ، احتج به من منع لله وعادى لله ، وإذا احتج به من لم يدخر شيئاً لغد احتج به من يدخر لأهله قوت سنة ، وإذا احتج به من يأكل الخشن من القوت والأدم كخبز الشعير والخل ، احتج به من يأكل اللذيذ الطيب كالشوى والحلوى والفاكهة والبطيخ ونحوه ، وإذا احتج به من سرد الصوم احتج به من سرد الفطر ، فكان يصوم حتى يقال لا يفطر ويفطر حتى يقال لا يصوم ، وإذا احتج به من رغب عن الطيبات والمشتهيات ، احتج به من أحب أطيب ما في الدنيا وهو النساء والطيب ، وإذا احتج به من ألان جانبه وخفض جناحه لنسائه احتج به من أدبهن وآلمهن وطلق وهجر وخيرهن ، وإذا احتج به من ترك مباشرة أسباب المعيشة بنفسه ، احتج به من باشرها بنفسه فآجر واستأجر وباع واشترى واستسلف وأدان ورهن ، وإذا احتج به يجتنب النساء بالكلية في الحيض والصيام ، احتج به من يباشر إمرأته وهي حائض بغير الوطء ، ومن يقبل إمرأته وهو صائم ، وإذا احتج به من رحم أهل المعاصي بالقدر ، احتج به من أقام عليهم حدود الله فقطع السارق ورجم الزاني وجلد الشارب ، وإذا احتج به من أرباب الحكم بالظاهر ، احتج به أرباب السياسة العادلة المبنية على القرائن الظاهرة فإنه حبس في تهمة وعاقب في تهمة) (١) .

هذا هو هدى المعصوم ﷺ في حياته العملية بما سنه للمسلمين من طرق

---

١ — ابن القيم : عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص ٢٢٨ .

ومسالك الحياة ، فأغناهم عن اتباع غيره . كذلك يصبح المقياس الذي تقاس به أنواع السلوك والأعمال .

فإذا أردنا تطبيق هذا المنهج عن دراستنا في الحياة الروحية لدى المسلمين الأوائل سنجد أنهم كانوا أقرب إلى الهدى النبوي ممن جاء بعدهم حتى من صوفية أهل السنة المعتدلين . فما هو الزهد ؟

إن الأصل في معنى الزهد هو (الإعراض عن الشيء لاستقلاله واحتقاره وارتفاع الهمة عنه) [1] ولكن لم يقتصر معناه عند الزهاد على هذا التعريف ولندلل على صحة ذلك ، نستشهد ببعض العبارات التي وردت على ألسنة الزهاد :

إنهم يستندون إلى الحديث (الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق مما في يد الله وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها بقيت لك) (٢) .

فالزهد عند المسلمين الأوائل لم يكن بسيطا ساذجا كما توهم ابن سينا في تقسيمه التصوف إلى الزهد ثم مرحلة التصوف ثم المعرفة ، ولكنه كان مؤسسا على الأصول القرآنية وهدى المصطفى ﷺ ، فهو حياة تامة تتناول الإخلاص والتقوى ومتابعة الأمر والنهي (٣) .

---

١ - ابن رجب : جامع العلوم والحكم ص ٢١٠ .

٢ - أما الحديث الثاني فنصه (ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس) حديث حسن ، رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة . وذكره النووي في (رياض الصالحين) وفي (شرح الأربعين النووية) .

٣ - ابن تيمية : توحيد الألوهية ص ٩٤ .

والسؤال المطروح أيضاً هنا : أيكون الرجل زاهداً وله مال ؟ أجابنا كل من سفيان عيينه وسفيان الثورى على هذا السؤال بالإيجاب بناء على تصورهم لحياة الزهادة ، فاشترطا أن يصبر إذا ابتلى ويشكر إذا أنعم عليه .

من هذا يتضح خطأ قصر مفهوم الزهد على الزهد فى المال أو المتاع الدنيوى بعامة ، وربما يرجع ذلك الخطأ عند البعض من الكتاب والباحثين إلى خضوعهم لمفاهيم المستشرقين ، وهؤلاء تتداعى أذهانهم على صور الرهبان النصارى المنقطعة صلتهم بأمور الحياة الدنيا .

أما الزهد لدى المسلمين فإنه يختلف عن ذلك تماما ، فسنرى فى هذا الكتاب زهد المجاهدين وزهد الأمراء وزهد الفقهاء . فمن الزهاد من كان من كبار المجاهدين ، ومنهم عمر بن عبد العزيز الخليفة الخامس ، ومنهم أمثال الحسن البصرى وسعيد بن المسيب والأوزاعى وغيرهم. هؤلاء الذين ملأوا العالم الإسلامى بنتاجهم العلمى فى الفقه والتفسير والحديث ، وذاع صيتهم بما سلكوه من طرق فى معاملاتهم وأخلاقهم ، فكانوا روادا وطلائع ، وسيظلون كذلك لأنهم تركوا تراثا ، وخلفوا آثارا يحتاج إليها المسلمون .

والذى نلحظه خطأ تصور المستشرقين للزهد الإسلامى ، بسبب معاصرتهم لمقاييس حضارية مادية ، طغت فيها شهوات البحث عن المتع والشهوات ، وأصبحت معايير التقدم فيها قائمة على أرقام الإنتاج وقوائم الميزانيات والتصاعد المذهل فى الإقبال على السلع الاستهلاكية ، والتفاخر بين الأمم بعدد الجيوش ومقادير الأسلحة المدمرة والقدرة على إفناء بعض أو كل سكان الكرة الأرضية ، وكل هذه المظاهر التى تصور الحضارة الحاضرة تختلف بلا شك عن مقاييس العصر الحضارى الإسلامى .

وإلى القارىء صورة دقيقة للحضارة الغربية كما يكتب عنها العالم النمسوى المسلم محمد أسعد (ليوبولد فايس قبـل إسلامه) إذ يرى أن الدين الذى يعرفه الأوروبى هو التعبد للرقى المادى ، فيقول (إن هياكل هذه الديانة إنما هى المصانع العظيمة ، ودور السينما ، والمختبرات الكيماوية ، وباحات الرقص ، وأماكن توليد الكهرباء وأما كهنة هذه الديانة ، فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما وقادة الصناعات وأبطال الطيران) (١) ، ولذلك فلا يوجد هدف آخر فى الحياة سوى جعل هذه الدنيا مرتعاً خصباً لتحقيق المطامع أياً كانت .

أما نظرة المسلمين فإن مقاييس التقدم والنجاح عندهم فى أوج حضارتهم ـ وهكذا ينبغى أن تكون دائماً ـ هى ضرورة اتفاقها مع معايير ما يسميه بالحياة الإسلامية ، أى هل يحوز رضى الله عز وجل أم يخالف شريعته ؟ (١) .

علة اختيارنا لموضوع الكتاب :

من أجل ذلك كله رأينا فائدة الإلمام ببعض هؤلاء الصفوة من الزهاد فى عصر نحتاج فيه إلى طريقة الإتباع ـ لا الابتداع ـ فقد جابهوا ـ كما نجابه اليوم الكثير من المشكلات إذ تعرض عالم الإسلام حينذاك لغزوات ضارية عسكرية وثقافية وتيارات معادية على مستوى العقيدة ، وتآلبت على دولة الإسلام خلفاء وحكام منهم المقسطون ومنهم دون ذلك ، وعاشوا فى أيام اختلفت عن عصر النبى ﷺ ولكل عصر سماته ومظاهره وطرق حياته ومشكلاته ، فآثروا المقاومة الصلبة لإبقاء الذاتية الإسلامية لمواجهة الرياح العاصفة من حولهم ، وبقوا متماسكين ، عاضين على تعاليم الإسلام ، فسارت حياتهم طيبة هنيئة ، فقام بعضهم يعارض الانحرافات التى ظهرت بظهور علم الكلام والفلسفة الإغريقية فقاوموا الزيغ فى

---

١ ـ محمد أسد : الاسلام على مفترق الطرق ص ٤١ .

المعتقدات وجابهوا الآراء الطارئة الغريبة ، كما قاوموا البدع المستحدثة فى العبادات والسلوك باسم التصوف ، وكانت مناهجهم عن الحياة بالمعنى الشامل ، باعتبار أن الإنسان يشمل العقل والعلم مع السلوك والأخلاق .

وفى أحاديثهم عن الزهد بخاصة ، لم يتقيدوا بترتيب المقامات والأحوال التى سنها المتأخرون ، وإنما تكلموا عن أعمال القلوب وعن الأحوال كلاما مفصلا جامعاً مبيناً مطلقاً من غير ترتيب ولا حصر للمقامات بعدد معلوم ، فإنهم كانوا أجل من هذا .

وإذا خصصنا الجزء الأكبر بدراسة حياة الزهد ، فإنه لم يدر بخلدنا إنكار الجوانب الخصبة الأخرى الممتدة إليها مواهب هذه الشخصيات الفذة ، فلا يسعنا تجاهل أدوار الخلفاء الراشدين ـ رضى الله عنهم فى أمور الحكم العادل والسياسة الشرعية ، أو الجهاد فى سبيل الله (كسفيان الثورى) أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (كسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير) أو الدفاع عن العقيدة الإسلامية ازاء محاولات الزيغ والانحراف (كالإمامين الحسن البصرى وأحمد بن حنبل) وهكذا .

ولسنا بدعا بين الأمم حينما نحاول صقل ذاكرتنا التاريخية ، فإن قدرة الأمم على اكتشاف نفسها والاهتداء إلى ماضيها الأصلية ، تعد من أهم العوامل التى تساعد على النهوض فى مستقبلها ، وهاكم الغرب النصرانى أمامنا ما زال يعيش على تراث سلفه على عكس النظرة السائدة الخاطئة التى تحاول عن عمد الإيهام بلفظه لعقيدته ونبذه لتراثه والمفاصلة بينه وبين سلفه ، وليس أدل على ذلك من النظرة التحليلية لأحد كبار مؤرخيه ، إذ يقول أرنولد توينبي (ما زال نشك فى جدية الجهـود التى بذلها كل من ديكارت وفولتير وماركس وماكيافيللى وهوبز

وموسيليني وهتلر لانتزاع الصبغة المسيحية عن الحياة الغربية) (١) .

ومن أغراضنا : الدعوة إلى تصحيح العقيدة والسلوك باتباع طريقة الاقتداء ، ثم معرفة أقدارنا بالمقارنة بأهل القرون المفضلة والمتبعين لهم بإحسان . ولا يفوتنا أيضا شحذ همم مسلمي اليوم فنقول لهم :

لاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون بمشيئة الله تعالى، فعقيدتكم تعلو ولا يعلى عليها، وأمتكم ما زالت حية لم تجف الدماء فى عروقها ، ولم يكف قلبها عن الخفقان بالرغم من الدماء التي سالت منها ، فدماؤها تتجدد بالمجددين من علمائها ومجاهديها بحيث لم يخل جيل منهم قط ، واقرأوا السير الإسلامية للعبرة والتدبر والدرس ورسم طريق المستقبل ، فمن لا تاريخ له لا مستقبل له ، وتاريخنا بحمد الله حافل بدلائل حيوية الأمة ، ودليل على أنها إذا سلكت النهج الصحيح ، نجت من الكوارث ، وهذا دليل على أنها قادرة أيضا بنفس المنهج اجتياز محن اليوم مهما اشتدت .

ولا نظن أن الحديث عن الزهد بعيد الصلة بأحوال العالم الإسلامي فى عصرنا ، ففى عالمنا الإسلامي الممتد من الخليج إلى المحيط ، تظهر على خريطته ألوان متناقضة بين الثراء الفاحش والفقر المدقع ، والحديث فى الزهـــد يجرنا إلى بحث العلاج الناجع ، ولن نجده إلا في الوحـــدة والتكامل الاقتصادى قبل السياسى ، وهذا ما تفعله دول أوربا الآن .

ولكن قد يقول قائل : هذا بحث الاقتصادى سياسى ، فنقول : هذا صحيح ، وله وقته ، ومراحل تنفيذه ، ويمثل الحل الأمثل لمعضلاتنا الاقتصادية والسياسية

---

١ — أرنولد توينبى : مختصر دراسة التاريخ ج ٢ ص ٢١٠ — ترجمة فؤاد شبل ، الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية ١٩٦٧ م .

بشرط إتمامه فى الإطار الذى كانت عليه وحدة المسلمين منذ سقيفة بنى ساعدة[١].
وإلى أن يتحقق هذا الهدف الغالى، لابد من كلمة لمن يملكون المال:
إن المال مال الله وملكيتهم له ملكية استخلاف.

فهناك صعوبة إقناع الفقراء بحياة الزهد وهم يرون التفاوت الشديد فى توزيع الثروات، فالأجدر إذن أن يؤدوا حقوق هذا الاستخلاف على المال.

إن الإسلام له خصوصيته، فعقيدته جامعة بين التوحيد وما ينبثق عنها من أنظمة اقتصادية وسياسية ومبادىء أخلاقية، لذلك فإن التربية وفق حياة الزهد خليقة بتحقيق أفضل أنواع العدالة الاجتماعية، بينما التجارب المستقاة من دول أخرى لم تثمر، فلم تنجح الأنظمة والقوانين المستوردة فى تحقيق أية عدالة اجتماعية بالرغم من الهالات البراقة حولها، ونصوصها الآمرة الناهية، بينما كانت العقيدة الإسلامية تؤدى دورها فى تاريخنا كله بيسر وسهولة دونما تدخل من خلفاء المسلمين وملوكهم إلا فيما ندر.

وهنا يأتى غرض آخر لكتابنا، فلعل تقديم سير زهادنا الأوائل نوع من حث مسلمى اليوم - وأثريائهم خاصة - على البذل والعطاء، وما أكثر ميادينه، وأولها مساعدة المجاهدين فى سبيل الله بأفغانستان وأريتريا والفلبين وغيرها من البلدان التى يتعرض فيها المسلمين للجوع والتشرد، والأولى تقديم العون لمسلمى بلدانهم أيضا، فأعمال البر كثيرة ولا نحيط بها فى هذا الحيز.

أما غرضنا الأخير، فإننا نرجو به إقناع المتطلعين لحياة الوجدان وإنماهم

---

١ - عبرنا عن هذا الرأى بمقدمة كتابنا (نظرية الخلافة فى الفكر الاسلامى) دار الأنصار ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م.

القلوب أن حياة الزهد هي البديلة لما يبحثون عنه في التصوف ، فلا يجدونه فيه ؛ وإن وجدوا فليس سوى ألوان من البدع وصنوف من ثقافات الأمم الأخرى(١) .

وقد جاء منهجنا في هذا الكتاب حذواً لمنهج شيخ الإسلام ابن تيمية ، الذي كان له دور كبير في الكشف عن الجانب الوجداني في التراث الإسلامي ووضعه في الصيغة الملائمة مع منهج السلف ، وعلى حد قوله (من بني الإرادة والعبادة والعمل والسماع المتعلق بأصول الأعمال وفروعها من الأحوال القلبية والأعمال البدنية على الإيمان والسنة والهدى الذي كان عليه محمد ﷺ وأصحابه فقد أصاب طريق النبوة) (٢) .

ولم يأت الحديث عن هؤلاء الزهاد من شيوخ العلم والإيمان على طريقة كتابة التراجم ، بل فضلنا الوقوف على آرائهم في موضوعنا خاصة ، وتقبنا عن اتجاهاتهم الأخلاقية ، وحرصنا على معرفة الأصول التي استندوا إليها في اجتهاداتهم ، مع مراعاة ظروف نشأتهم وأدوار الحياة الثقافية والاجتماعية التي تقلبوا فيها .

وأسأل الله تعالى أن يجزى عني خير الجـــزاء كل من عاون في إخراج هذا الكتاب إلى أيدي القراء .

كما أسأله ـ عز وجل ـ أن ينفعني والمسلمين به ، وأن يغفر لي الأخطاء والزلات . وما توفيقي إلا بالله ، ولا حول ولا قوة إلا به عز وجل .

الرياض في { ٣ / ١ / ١٤٠٠ هـ — ٢٢/١٠/١٩٧٩ م }

مصطفى حلمي

---

١ ـ سنطبع قريبا بمشيئة الله تعالى أجزاء من رسالتنا للدكتوراه من (موقف ابن تيمية من التصوف) وهو يعبر عن الاتجاه الاسلامي الصحيح .

٢ ـ ابن تيمية / السلوك ص ٣٦٣ .

معالم طريقنا فى الدراسة

- أخطاء المستشرقين .
- المنهج الصحيح فى دراسة الحياة الروحية عند السلف .
- بعض صعوبات المنهج .
- معنى الزهد لدى شيخ الإسلام ابن تيمية .

ورأينا مما تقدم الأخطاء التي وقع فيها المستشرقون في دراساتهم لموضوع الزهد عند السلف. ولعل من أهم عوامل أخطائهم هو الانصراف عن القطاع العريض الذي يتشكل من الصحابة والتابعين وتابعيهم، والاكتفاء بالتقاط بعض الجوانب من حياتهم، مستقاة من مراجع متأخرة في الزمن عن عصورهم، أو لا تخلو من مطاعن من حيث النقل، فحجبوا بذلك المذهب السلفي، بل طمسوه بالتحجر والجمود والخلو من المضمون الروحي (١).

وكان الجدير تلمسه من مظانه الحقيقية. فإن أغلب علماء المشرقيات الذين تصدوا لبحث التصوف لا يعتمدون على المصادر التي يقرها شيوخ المدرسة السلفية، وإنما يتخذون من كتب متأخري الصوفية في الأغلب إلى جانب الآراء المتناثرة في التآليف التي لاتعد — بالمنظار السلفي — خالية من الشوائب، وهذا وهذا ما دعا إليه ابن تيمية في دراسته المنهجية للموضوع إذ يقول (ومعلوم أن طريقة أئمة الصوفية وأئمة الفقهاء أكمل من طريقة أبي القاسم القشيري) (٢) ويعطي المشايخ الكبار حقهم من حيث التدرج في المكانة العلمية، فالحارث المحاسبي أعلى طبقة ممن يليه، كما أن مالكا والأوزاعي وأمثالهما أعلى ممن يليهم، وعلى رأسهم جميعا يضع الصحابة فالتابعين ويقول (فأما درجة السابقين الأولين كأبي بكر

---

١ — على سبيل المثال يرى الدكتور عبد الرحمن بدوي في مقدمة كتاب (شخصيات قلقة في الإسلام) أن للشيعة أكبر الفضل في إغناء المضمون الروحي للإسلام وإشاعة الحياة الخصبة العميقة التي أنشأت الإسلام، وجعلته قادرا على إشباع النوازع الروحية للنفوس ثم يستطرد فيقول (ولولا هذا لتحجر في قوالب جامدة، ليت شعري ما ذا كان سيؤول إليه أمره فيها ؟) صفحة (د) من الكتاب السالف الإشارة إليه. ويعبر الدكتور بدوي عن الاتجاه الاستشراقي أصدق تعبير في هذه النقطة.

٢ — ابن تيمية / شرح العقيدة الأصفهانية ص ١١٢

وعمر ، فتلك لايبلغها أحد (١) .

ومن اليسير أن نلاحظ أن قلب الاسلام النابض يتمثل فى الكتاب والسنة ، وقد تلقفها المسلمون الأوائل — شأنهم فى ذلك كما يرى ابن تيمية — شأن ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء بصفة عامة الذين يقيمون الدين علما وعملا ودعوة إلى الله ورسله ، (فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم والفقه فى الدين والبصر والتأويل ، ففجرت من النصوص أنهار العلوم ، واستنبطت منها كنوزها ، ورزقت فيها فهما خاصا) (٢) . ويفهم من هذه العبارة على قصرها ، كيف تنبه ابن تيمية إلى إحاطة السلف بالنصوص من كافة نواحيها ، فلم يكتفوا بنقلها والمحافظة عليها ، بل فهموها وفسروها وفجروها أنهارا فى فروع المعرفة المختلفة .

ولكى ندرس آراءهم ومعتقداتهم وقواعد السلوك عندهم ، ينبغى التماس ذلك كله فى الكتب القريبة العهد بهم أو فى المصادر التى حرصت على اتباع المنهج السلفى بأحد فروعه، أى بواسطة النقل الذى يراعى الدقة والصحة فى المنقولات .

من هنا نرى لزاما علينا أن نلتمس مذهب لدى الزهد الأوائل، إما فى المؤلفات التى خصصت لهم — ككتاب (الزهد) لابن حنبل — أو النصوص الواردة عن كتب تعد فى حكم الضائعة ، ككتاب (الزهد) لعبد الله بن المبارك (٣) التى نعثر عليها فى مختلف المصادر ، أو بواسطة المصادر التى عرف أصحابها بالصدق والدقة — كطبقات ابن سعد — متحرين فى ذلك كله البحث عن الصواب ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

وسنعرض فى هذا الكتاب للزهاد الأوائل لأنهم يمثلون التيار السلفى للتفسير

---

١ — ابن تيمية / الرد على المنطقيين ص ٥١٣

٢ — ابن تيمية / نقض المنطق ص ٧٩

٣ — نشر هذا الكتاب أخيرا محققا بمعرفة حبيب الأعظمى .

الذوق والنظريات الروحية من وجهة اسلامية خالصة ، محاولين اثبات صحة الرأى الذى يذهب إليه ابن تيمية ، وهو اكتمال هذا المضمون لدى الأوائل .

كذلك سنبحث فى مظاهر الاختلاف بين نظريات المدارس المختلفة فى الزهد ، ومدى الصلة بينها وبين الأفكار والمؤثرات الخارجية إن وجدت .

ولن يدخل فى نطاق بحثنا نشأة هذه الآراء والأفكار ، وهى الناحية التى تكفل بها أستاذنا الدكتور النشار فى كتابه (نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام - الجزء الثالث) حيث عالج موضوع نشأة الزهد والتصوف وتطورهما بالمدارس المختلفة .

ولما كان موضوعنا يتحدد بإطار السلف فحسب ، فإن علينا أن نعرض له من حيث ارتباطه بالنظريات السلفية فى أعمال القلوب وبيان طبيعة هذه النظريات ، وقد حددنا دائرة البحث بالشيوخ الذين ذكرهم ابن تيمية ، مثنياً عليهم ، مؤيداً لآرائهم وقواعد السلوك التى اتبعوها .

والواقع إن لم يلقوا تأييد ابن تيمية فحسب ، بل يكاد يجمع مفكرو المدرسة السلفية على الإشادة بهم ووضعهم موضع الاجلال والتأييد . والجدير بالذكر أن ابن حزم (٤٥٦هـ = ١٠٦٤م) — الذى اشتهر بخصومته للصوفية قد ذكر أغلب هؤلاء الأوائل على سبيل التحديد (١) .

وسيتفرع حديثنا فى مستهل هذا الكتاب إلى مبحثين : أحدهما الإلمام ببعض مشاكل المنهج عند بحث نظريات زهاد السلف ، لتتضح معالم طريقتنا فى الدراسة ، ثم نطرق إلى تناول موضوع الزهد لمحاولة البرهنة على أنه يمثل مضموناً روحياً متكاملاً عند كل من الصحابة ، ثم من تلاهم من التابعين فى اختلاف البلاد التى انتقلوا إليها ، والمدارس التى أثروا فيها .

---

١ — ابن حزم / الفصل . . جـ ٤ ص ١١٧

بعض صعوبات المنهج :

لابد أن نلمح إلى عدم دقة الرأى القائل بتقسيم الحياة الروحية إلى مرحلتين : الزهد والتصوف لأنه يفقد الدليل القاطع ، ويتعارض مع ما نلاحظه بسهولة من واقع كتب التراجم للمدرسة السلفية عندما يصفون شيوخهم بالزهد . فإن ابن كثير مثلا يصف ابن الصلاح (٦٤٣هـ=١٢٤٥م)– عالم الحديث الشهير– بأنه كان زاهدا ورعا ناسكا على طريق السلف الصالح كما هو طريقة متأخرى أكثر المحدثين) (١) . وهناك إلى جانب هذا ، العديد من الشيوخ الذين يصل بينهم وبين طريقة الأوائل فيما يتعلق بوصفهم بالزهد . وعندما ينقد الذهبى الهروى الانصارى فى بعض آرائه يعلق على ذلك بقوله (ويا ليته لا صنف ذلك فما أحلى تصوف الصحابة والتابعين ما خاضوا فى هذه الخطرات والوساوس ، بل عبدوا الله وذلوا له وتوكلوا عليه . وهم من خشيته مشفقون ولأعدائه مجاهدون . وفى الطاعة مسارعون ، وعن اللغو معرضون) (٢) . ولكن الذهبى يستخدم اسم الصوفية هنا مقترنا بالصحابة للتعبير عن الحياة الروحية عندهم التى تتلخص فى العبارة التى أوردناها آنفا ، وربما كان ذلك استخداما منه للاصطلاح السائد .

كذلك . فإننا عندما نقرأ كتاب (طبقات الحنابلة للقاضى أبى يعلى نرى عددا كبيرا للزهاد الأوائل من أصحاب الإمام أحمد ، مثل الجنيد ومعروف الكرخى وابن أبى الحوارى وبشر الحافى ، وحينما يترجم صاحب الكتاب لشيوخ المذهب الحنبلى ، يهتم بنقل قواعد المذهب السلفى بصفة عامة للبرهنة على سلامة المنهج ،

---

١ – ابن كثير / البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٩٨

٢ – الذهبى / سير أعلام النبلاء مجلد ١١ قسم ٢ ورقة ٢٦٣ (مخطوط)

وينقل لنا النصوص الثابتة عن ابن المبارك والفضيل وغيرهما من الزهاد الأوائل جنبا إلى جنب مع آراء ابن حنبل والشافعى والبخارى والترمذى وغيرهم .

والشواهد كثيرة على أن سلاسل الاسناد للمهتمين بالموضوع الروحى فى الاسلام ترتبط بعضها ببعض ، وتتصل بالصحابة والتابعين، وهذا معناه إما أنه حدث التقاء بين أحد الحلقات والسابقة عليها أو أنهم حرصوا على السماع والنقل بمنهج المحدثين للشيوخ الذين اتخذوهم قدوة .

ولا يغرب عن بال الباحث أيضا أن سلاسل الاسناد التى يقع بينها أمثال سفيان الثورى وغيره من الأوائل ، تتصل مباشرة بالمفسرين كمجاهد ، وتنقل آراءهم فى المسائل الكبرى الهامة التى شغلت المسلمين ، وتحرص على تتبع أقوال السابقين . فالمذهب إذن يتحدد ويتشكل من أقوال وآراء هذه المجموعة الكبيرة من الصحابة والتابعين ومن يليهم ، الذين حرصوا على الاقتداء ببعضهم البعض فيما ثبت من صريح المعقول أو صحيح المنقول . وكانوا جميعا يهتمون بعلوم الفقه والحديث والتفسير إلى جانب المعانى العميقة لآيات الكتاب وسنة الرسول صلوات الله عليه، فكانت لهم حياتهم الروحية التى استمدوها من الاسلام نفسه .

ولم يكن سلوكهم الطريق الروحى أمراً خارجاً عن المألوف المأثور ، ولهذا أصبحت صبغتهم اسلامية أولا، ولم تصطبغ هذه الصورة بالمؤثرات التى اصطبغ بها الصوفية فيما بعد . لقد كانت معالم الطريق الروحى عند كل منهم كما يرى ابن خلدون (رعاية حسن الأدب مع الله فى الأعمال الباطنة والظاهرة ، بالوقوف عند حدوده ، مقدماً الاهتمام بأعمال القلوب ، مراقبا خفاياها ، حريصا بذلك على النجاة) (١) .

---

(١) ــ ابن خلدون / شفاء السائل لتهذيب المسائل ص ١٩

وهذه هى الدائرة التى انحصرت فيها الحياة الروحية عند الأوائل كما يذكر مؤرخنا الكبير ، قبل أن تتجاوز نطاقها وتصل عند المتأخرين إلى مرحلة مجاهدة الكشف .

وإنه لمن المعقول أن نفترض أن المضمون الروحى كان بناء كاملا عند الأوائل وانقسم بعد ذلك إلى تيارين : أحدهما تيار الزهد الذى ظل شيوخ السلف يتمسكون به ، والذى لا يمنع اصطباغه بتأثيرات العصور المختلفة ، ولكن لا يؤثر ذلك على جوهره وأصالته . أما الثانى — المعبر عنه بالتصوف — فقد تضخم بالمؤثرات الأجنبية بحيث تراوح طغيانها على الطابع الاسلامى فيه قوة وضعفا ، فأدى فى حالة القوة إلى التصوف الفلسفى، أو ضعف هذا التأثير فاتضحت المعالم الاسلامية فى الظاهر ولكنها تخفى وراءها ما هو غير اسلامى ، والتى تصدى لها شيوخ المدرسة السلفية بالنقد والمعارضة .

لقد عرف السلف — كما يذكر ابن تيمية — بواطن الحقائق (١) . ويدور منهجه كله فيما يراه من ضرورة الاقتداء بالسابقين الأولين من الصحابة والتابعين فى كل المسائل ، بما فى ذلك الحياة الروحية التى جربوها ونقلوا لنا نظرياتهم عنها فهم (مشايخ الاسلام وأئمة الهدى الذين جعل الله تعالى لهم لسان صدق فى الأمة) (٢) .

وبعد أن يضع شيخنا أبابكر وعمر فى مقدمة أولياء الله، يأتى بباقى الصحابة ، ويخص منهم بالذكر من اشتهر بالاتجاه الروحى ، مثل سلمان الفارسى وأبى ذر الغفارى وأبى الدرداء . يليهم التابعون ومن أتى بعدهم مثل : سعيد بن المسيب ، الحسن البصرى ، عمر بن عبد العزيز ، مالك بن أنس ، الأوزاعى ، ابراهيم بن

---

١ — الفتوى الحموية ص ٩٢   ٢ — توحيد الربوبية ص ٤٧٤

أدهم ، سفيان الثورى ، الفضيل بن عياض ، معـــروف الـكرخى ، الشـافعى ، الدارانى ، ابن حنبل ، بشر الحافى ، عبد الله بن المبارك .

ثم لا يحصر الموضـــوع فى نطاقهم فحسب ، بل يختم ذلك بقوله (ومن لا يحصى كثرة) ويعود فيضرب الأمثلة بالمتأخرين مثل الجنيد والتسترى والمكى والجيلانى وغيرهم .

كذلك يشير ابن تيمية إلى غـير هؤلاء وأولئك من (هؤلاء المشايخ الذين كانوا بالحجاز والشام والعراق ومصر والمغرب وخراسان من الأولين والآخرين)

كان الشيخ إذن يدعو إلى الاقتداء بهم . والظاهر أن ابن تيمية قرأ لهم واطلع على نظرياتهم فوقع عليهم اختياره لأنهم سلكوا فى رأيه السبيل الصحيح . ومن جهة أخرى ، يظهر من قوله (ومن لا يحصى كثرة) إنه من الخطأ حصر نطـاق البحث فى عدد معين دون غيره . أضف إلى ذلك أنه من الصعوبة أن تجد فرقا بين صفات المتقدمين كزهاد أو صفـــاتهم كفقهاء ومحدثين ، فالدوائر متداخلة لا تفرق بين أحد منهـا ، لأنهـا تتصل بالدوائر الكبرى التى تحيطهـا : دائرة الاسلام العظيم .

أما التفرقة فقـد حدثت فيما بعد ، وتحولت هذه التيارات الكبرى فى الفكر والحياة الروحية الاسلامية إلى جداول تفرعت عن هذه الأصول الأولى . وبمضى العصور ، تعلق الصوفية بهؤلاء الشيوخ الذين يمثلون الجذور الأصيلة الأولى لمحاولة اضفاء طابع التصوف عليهم .

فالحق إن المسائل كانت متشابكة ، إذ خاض شيوخ السلف فى علوم العصور المتعاقبة ، ولم يكتفوا بالنظر فى الخطرات وحيـاة القلوب والوجدان . فهم فقهاء ومحدثون ومدافعون عن العقيدة السلفية ، إلى جانب ذلك كونهم زهادا حققوا

الحياة الروحية عند المسلمين بنظرياتهم التي انبثقت من الكتاب والسنة .

وكما حدث بالنسبة لعلوم الفقه والكلام ، حيث بدأ أئمة الفقه يجتهدون لأنفسهم دون قصد الاعلان عن الملأ والدعوة للاتباع ، اتجه قصد المتكلمين كذلك في نشأة علم الكلام إلى الرد عن المخالفين في العقيدة . فإن الزهد بالمثل كان منحصرا في دائرة الشيوخ الذين اجتهدوا في العبادات والتحليق مع خطراتهم ونوازع المحبة والخوف وحياة الروح .

وفي الأدوار التالية ، أخذ الفقه على مدى العصور يتضخم بإضافات الأتباع من كل مذهب ، وأخذت التخريجات الفقهية تأخذ في الازدياد وسار الكلام في نفس الطريق حتى اقترب اقترابا شديداً من الفلسفة عند المتكلمين المتأخرين ، فقد أصاب المضمون الروحي للاسلام نفس الشيء . فقد أخذ الصوفية يتلقفون نظريات الزهد عند الشيوخ الأوائل ، ليضيفوا إليها ما لم يصدر عنهم . وحاول معظم الصوفية أن يبرهنوا على صدق نظرياتهم بالانتساب إلى الكتاب والسنة ، وتأويل آراء الزهاد السابقين بما يناسب مذاهبهم بحيث وضعوا أفكار الزهد في إطارات الأحوال والمقامات .

واختلفت صور هؤلاء الشيوخ بين المصادر المتقدمة وكتب المتأخرين ، أو بين كتب التاريخ والتراجم وكتب الصوفية . فإن النماذج التي نراها عنهم عند أمثال ابن قتيبة (٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م) في (عيون الأخبار) ، وابن حنبل (٢٤١ هـ = ٨٥٥ م) في (كتاب الزهد) وابن عبد ربه (٢٤٦ — ٣٢٨ م) في (العقد الفريد) ، تختلف في الصور التي تنطبع في أذهاننا عنهم فيما لو أطلعنا على رسالة القشيري (٤٦٥ هـ = ١٠٧٢ م) أو (التعرف لمذهب أهل التصوف) للكلاباذي (٣٨٠ هـ = ٩٩٠ م) أو (قوت القلوب) للمكي (٣٨٦ هـ = ٩٩٦ م).

ومن حسنات الأخير — التى ربما من أجلها كان ابن تيمية يقدره — أنه صرح ماتباعه الرخصة والسعة فى النقل والرواية حيث يقول (جميع ما ذكرناه فى هذا الكتاب من الأخبار عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم عن الصحابة وعن التابعين وتابعيهم رسمناه حفظا وسقناه على المعنى إلا يسيرا اتفق وجوده فى أيدينا وقرب تناوله منا من أخبار فيها طول ، فإننا نقدناها من مواضعها وما بعد عينا فلم نفقه ولم نشغل همتنا به) (١) . فهو يلفت نظر القارىء حتى ينقب وراءه للتثبت إذا أراد .

وأصبحت هذه الظاهرة إحدى مشاكل المنهج أيضا فى بحثنا . كذلك ظاهرة الازدواج التى يصطدم بها الباحثون فى ميدان الحيــــاة الروحية الاسلامية بين (حقيقة) الزهاد والصوفية وبين (الأسطورة) التى التفت حولهم بسبب عدة عوامل متنارة ، هنها رغبة دعاة التصوف ومروجيه إلى الرغبة فى إيجاد الروابط بينهم وبين الزهاد الأوائل . كما تضخمت فكرة (الكرامات) حتى أصبح من الصعب العثور على حقيقة هؤلاء إلا بعد مشقة .

ولكن مما يخفف من أثر هذه المشاكل أن التيار السلفى لم ينحصر فى الكتب المتخصصة فحسب لموضوعات الزهد والرقائق وقواعد السلوك وأحوال القلوب ، وإنما تعدى ذلك إلى التصانيف الأخرى لشيوخ المدرسة السلفية . فإننا نلاحظ المنحى السلفى قد تدخل عند المفسرين والمؤرخين وكتاب التراجم وغيرهم من ذوى النزعة السلفيــة الذين حرصوا على نقل المضمون الروحى للاســـــلام أثناء طرحهم لموضوعاتهم الأصلية ، متبعين فى ذلك منهجهم النقى الذى اصطبغ بعلم مصطلح الحديث فى تحرى الدقة فى الروايات سندا ومتنا ، مما يجعلها أدنى لقبول

---

١ — المكى / قوت القلوب ٠٠ ج ١ ص ١٢٦

الباحث . فضلا عن أنها تنقل لنا نصوصا هامة عن كتب الزهد ، مثل تآليف ابن أبي الدنيا (٢٨١هـ = ٨٩٤م) (١) ، وكتاب (الزهد) لسفيان الثوري وغيرها .

ولئن كان موضوعنا لا يتسع لعمل دراسة مقارنة بين النصوص في المصادر المختلفة — كما فعل الدكتور احسان عباس في كتابه الممتاز عن (الحسن البصري) إلا أننا سنحاول أن نكشف النقاب عن الاختلافات الصارخة التي سنقابلها في دراستنا لشخصيات الزهاد الأوائل .

ومن الصعوبات التي تصادفنا أيضا ما نلاحظه من التباين الواضح في تعريفات شيوخ السلف للزهد .

ولكي لا نقع في نفس الخطأ الذي أدى إليه فهم (الزهد) على أنه عزوف عن مظاهر الحياة المادية وحدها ، فإننا سنستطلع رأي ابن تيمية في موضوع الزهد كمقدمة تلقي بعض الضوء على عناصره ومقوماته عند السلف .

معنى الزهد لدى ابن تيمية :

ويبدو من تعريفه للزهد أنه تنبه إلى مدلول جديد بحيث لا ينحصر في دائرة الزهد في (الماديات) فحسب ، وإنما شكل منه مضمونا روحيا في مثل قوله (قد يكون الزهد مع الغنى وقد يكون مع الفقر) (٢) .

---

١ — هو عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس أبو بكر بن أبي الدنيا الحافظ المصنف في كل فن ، المشهور بالتصانيف الكثيرة النافعة الشائعة في الرقاق وغيرها ، وهي تزيد على مائة مصنف ، وقيل انها نحو الثلثمائة مصنف ، وقيل أكثر وقيل أقل . وكان صدوقا حافظا ذا مروءة .

(ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١١ ص ٥٩)

٢ — ابن تيمية / التصوف ص ٢٨

وإذا كان الصوفية قد قسموا الاسلام إلى شريعة وحقيقة ، ونادوا بأنهم بأنهم أهل الحقيقة فى مقابل أهل الشريعة — أى الفقهاء ، فإن ابن تيمية استخدم هذه الاصطلاحات لبيان رأيه فى الحقائق التى يتحدثون عنها ويدعون أنهم ينفردون بفهمها. فالحقيقة المعترف بها عنده هى حقيقة الدين (دين رب العالمين) ١) الذى يقتضى القيام به توفر العلم والحال والقول والعمل والمعرفة والذوق أياً كان القائم به ، فقيها كان أو صوفيا أو زاهدا فلا يكفى توافر أحد هذه العناصر دون غيرها وإنما يجمعها فى حلقات مترابطة ويتوجها بالدليل الجامع الذى ينير السبيل وهو الاعتصام بالكتاب والسنة (٢) .

وقد ذكر ابن تيمية فى مؤلفاته كثيرا من الأعلام ، إلا أننا سنكتفى هنا بالاشارة إلى اهتمامه بدراسة مشايخ الاسلام الذين فهموه من حيث ارتباط العمل بالعلم ، وحققوا فيه التذوق إلى جانب الفقه . كذلك فى حديثه عن هؤلاء الشيوخ لا يفرق بينهم كفقهاء أو محدثين أو زهاد ، ولكن الذى يهتم به أبلغ اهتمام هو تفرقته بين المتمسكين منهم بالشريعة والحائدين عنها ، مستخدما أسماء مترادفة فيطلق عليهم اسم (أهل الدين والصلاح والزهد والعبادة) (٣) ، لأنهم حققوا المطلوب منهم على خير وجه ، ونفذوا قواعد الاسلام على أتم وأكمل صورة ، فالأصل فى الدين هو (إقامة حق العبودية وهو فعل ما عليك وما أمرت به) (٤) .

وفضلا عما نراه من الربط فى التعريف الواحد بين أهل الدين والصلاح والزهد ، فإن الأمر يزداد وضوحا عندما يؤكد ضرورة تداخل حلقات العبادة

---

١ — ن. م ٢١٨
٢ — ن. م ٥٧٢
٣ — ن. م ٥٦٩
٤ — ن. م ٣٢٣

والزهد والورع ليتحقق اتباع (الصراط المستقيم) بمفهومه الدقيق ، والذى يشتمل على العبادات والزهادات والمقالات والتورعات التى تدخل فى نطاق الصراط المستقيم الذى أمرنا الله أن نسأله هدايته) (١) .

وهكذا نرى فى المعانى التى تطرق إليها عند حديثه عن الزهد والزهاد ما يدل على اضفاء الطابع الروحى على الزهد ، بحيث يشتمل على ما هو أكثر من التقشف أو الزهد فى الأمور العادية .

ثم إنه لم يتقيد — كما قدمنا — بمشايخ بلد دون آخر ، وإنما كان يتناول فى حديثه أولئك الذين عاشوا بالحجاز والشام والعراق ومصر وخراستان وغيرها من البلدان . فلم يعن بالتقسيم الجغرافى إلا من حيث عرضه لمدى اتفاق المذاهب واختلافها فى الكتاب والسنة . وقد ناقش على سبيل المثال فى استفاضة مذهب أهل المدينة وقارنه بغيره من المذاهب ، لا سيما مع شيوخ البصره والكوفة ، متيقظا بصفة خاصة إلى الفروق الظاهرة بين مدينتى العراق ، حيث اشتهر أهل البصرة بالاجتهاد فى العبادات ، بينما كان أهل الكوفة (مجتهدين فى مسائل القضاء والإمارة ونحو ذلك) (٢) .

والحق إن التقسيم التقليدى للمدارس قد يؤدى فقط إلى تبسيط البحث ، ومحاولة إيجاد الروابط والصلات بين الشيوخ السلف وبين بعضهم البعض . كذلك فإن هذا التقسيم يكشف لنا عن طبيعة مكونات النظريات السلفية فى الزهد ، ويعاون الباحث على الاستدلال على العناصر غير الاسلامية التى من المحتمل تدخلها لصبغ هذه الآراء بألوانها .

---

١ — ن. م ٦١٨

٢ — ابن تيمية / رسالة الصوفية والفقراء ص ٢١

ولا يخفى علينا الغرض الذى تهدف إليه بعض دراسات المستشرقين إذ أنها تحاول الاستدلال على احتواء آراء الزهاد على عناصر تسللت إليها من هنا أو هناك ، لتحاول إقامة نتائج أبحاثها والقول بأن المضمون الروحى للاسلام قد أقيم برمته على قواعد خارجية .

يقول ابن تيمية (أن الأمصار الكبار التى سكنها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج منها العلم والإيمان خمسة : الحرمان والعراقان والشام ، منها خرج القرآن والحديث والفقه والعبادة وما يتبع ذلك من أمور الاسلام) ( ).

ولا يتبادر إلى الذهن انكار الخصائص الاقليمية أو مؤثرات روح العصر ، ولكن ينبغى الاحتراس عند الأخذ بهذا المبدأ حتى لا نحيد عن المنهج العلمى السليم . فإن الشطط فى هذا الصدد يؤدى بنا إلى نزع كل أصالة عن أى نتاج فكرى أو وجدانى .

إن الأمصار التى أشار إليها ابن تيمية تعد بمثابة المنابع الأولى التى ازدهرت بأصحاب الرسول صلوات الله عليه ، وكانت تعبر فى جوهرها عن الاقتداء به .

وعلى هذا ، فإننا سنعرض فى هذا الكتاب نظريات بعض شيوخ الزهد السلفيين بالمدارس المختلفة الذين عاشوا فيها أو اتجهوا إليها أو اشتهروا بها منذ عصر الصحابة .

وسنبدأ بالصحابة ثم من يليهم من التابعين ، وفى العصور التالية لها ، سنتقيد بالشخصيات التى كان يردد أسمـــاءها ابن تيمية ، ذلك لأنهم يمثلون اتجاهات المدرسة السلفية فى عصورها الأولى .

وقد لا نتقيد بمن ظهر فى عصر معين بالذات ، أو بمدى العلاقة بينهم ، مما يوحى

---

١ ـ ابن تيمية / صحة أصول مذهب أهل المدينة ص ٢١

لأول وهلة بوجود انفصال زمنى بين شيخ وآخر فى نفس المدرسة ، ذلك لأننا نعتقد أن هذه الشخصيات لا تشكل فى الواقع بنظرياتها ومذاهبها ظواهر منفصلة عن بعضها البعض — مهما اتسعت الفجوات الزمنية بينها — لأنها بارتباطها بنفس المنهج فى النظر والسلوك تعبر لنا عن اتجاه واحد متماثل يمتد عبر العصور المختلفة يظهر فيه روح الاسلام النقى : اسلام السلف الصالح . إنهم أشبه بالمرآة التى انعكست عليها صورته .

أولا — الصحابة

١ – ابو بكر الصديق (١٣ هـ = ٦٣٤ م) :

إذا عنينا بالزهد فى أحد جوانبه انصرافه إلى التقشف والعزوف عن المتع الدنيوية ، فإن أبا بكر يعد بهذا المقياس من أوائل الزهاد . وقد حرصت المدرسة السلفية على ترتيب أفضلية الخلفاء الراشدين طبقا لما ورد بالأحاديث ، ولهذا فإن أبا بكر هو الأفضل لقول الرسول صلى الله عليه وسلم (لا ينبغى لقوم فيهم أبا بكر أن يؤمهم غيره) رواه الترمذى، وقد روى البخارى والترمذى وأبوداود بروايات عدة عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كنا نخير بين الناس زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نخير أبا بكر ثم عمر ثم عثمان) .

كان الصاحب الأول غنيا فاستعمل ماله فى سبيل نشر الاسلام وتحرير رقاب الأرقاء من المسلمين ، ويذكر ابن سعد أن أبا بكر كان معروفا بالتجارة وكان يملك أربعين ألف درهم عندما بعث النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخذ يعتق منها ويقوى المسلمين حتى أصبحت خمسة آلاف فقط حين هاجر إلى المدينة (ثم كان يفعل فيها ما كان يفعله بمكة) (١) .

---

١ – ابن سعد / الطبقات الكبرى ج ٣ ص ١٧٢

وحين ولي الخلافة أراد الاستمرار في كسب عيشه عن طريق التجارة لإطعام عياله (١)، ولكن عمر بن الخطاب وأباعبيدة بن الجراح نهياه عن مزاولة تجارته لأنه تولى أمر المسلمين وانشغل بالعمل من أجلهم (وفرضوا له في كل سنة ستة آلاف درهم) (٢).

ولما قدم إليه زعماء العرب وملوك اليمن (وعليهم الحلل وبرد الوشي المثقل بالذهب والتيجان والحبرة، فلما شاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك، وما هو عليه من الوقار والهيبة، ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم) (٣).

مثل هذا النص يوضح زهده وتواضعه وهو خليفة المسلمين إذ أراد أن يكون قدوة لهم، وكان كثيرا ما يحذرهم في خطبه من الميل إلى الدنيا والأخذ بأسباب الرفاهية وينصحهم ألا يتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج فينعمون وتعتاد أجسامهم عن كل ما هو لين وتؤدي بهم إلى رخاوة الأجساد وطراوتها فيتألمون من (الاضطجاع على الصوف) (٤).

وعند وفاته أمر أن يرد ما عنده إلى بيت مال المسلمين، رافضا أن يبقى شيئا

---

١ – ن٠ م ص ١٨٤ و ١٨٦ وابن الجوزي صفة الصفوة ج ١ ص ٩٧
ويقول الثعالبي (٤٢٩هـ) في لطائف المعارف) ص ١٢٧ (وكان أبوبكر يبيع البز – الثياب من الكتان أو القطن – وكذلك عثمان وطلحة وعبد الرحمن بن عوف)

٢ – تاريخ الطبري ج ٣ ص٥٤ ويقول ابن سعد في الطبقات ج٣ ص١٨٤ (ففرضوا له كل يوم شطر شاة وما كسوه في الرأس والبطن). ويذكر اليعقوبي أنه كان يأخذ في كل يوم من بيت المال ثلاثة دراهم أجره (تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١١٥).

٣ – المسعودي / مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٢

٤ – تاريخ الطبري ط الحسينية ج ٣ ص ٥٣

منها لديه ، وأدهش عمر بن الخطاب تشدد الصديق على نفسه والتزامه بالمنهج الدقيق ، خاصة وأنه كان ضمن ما رده إلى بيت المال عند موته قطعة من القطيفة لاتساوى خمسة دراهم ، فقال عمر (يرحم الله أبابكر ، لقد أتعب من بعده) (١) .

وترك أبو بكر أيضا للمسلمين من قواعد السلوك أمثلة نادرة فى معيشته الزاهدة مما جعل معاوية يصفه بأن الدنيا لم ترد أبا بكر ولم يردها (٢) .

وله مواعظ تلفت نظر الباحث من حيث صلتها بالزهاد الأوائل . لقد كان ينصحهم بالبكاء بمثل قوله (ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا) (٣) . وهو نفسه اشتهر بأنه كثيرا ما يغلبه البكاء ، وكان يسمى الأواه لرأفته ورحمته (٤) .

أما عن فكرة المحاسبة التى وجدت طريقها فيما بعد عند الزهاد والصوفية ، فإن الصحابى الأول كان قد سبقهم إليها . فيتضح لنا تأنيبه لنفسه ومحاسبتها لها مما يذكره ابن حنبل عنه بقوله إنه شوهد مرة آخذا بلسانه ويقول (هذا أوردنى الموارد) (٥) .

وقد وضعه ابن الجوزى فى نسق الزهاد الأوائل ، ناقلا عنه عبارات ترتبط ارتباطا وثيقا بالمعانى التى رددها الزهاد بعده عن المصير المحتوم الذى سيؤول إليه الناس جميعا : ملوكا وصعاليك ، أغنياء وفقراء ، ذوى البأس الشديد والضعفاء من الناس . فهم جميعا قد أصبحوا فى ظلمات القبور . ومن هنا ينصح المسلمين

---

١ - ابن حنبل / الزهد ص ١١٠ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٥٤ والطبقات لابن سعد ج ٣ ص ١٩٧ .

٢ - ابن حنبل / الزهد ص ١١٣

٣ - ن . م ص ١٠٨

٤ - ابن سعد / الطبقات ج ٣ ص ١٧١

٥ - ابن حنبل /الزهد ص ١٠٩

بهذه الكلمات الموجزة المعبرة (اوحا الوحا ، النجاء النجاء) (١) ، وكان من فرط خوفه من الله يود لو كان خضرة تأكله الدواب (٢) .

وتكلم عن الخوف من الله ، والرغبة فى مثوبته ، شاوحا الآية التى تصف زكريا عليه السلام وأهل بيته (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين / آية ٩٠ الأنبياء) ، فأثنى الله تعالى عليهم لهذا السبب. وحديثه عن الرغبة فى ثواب الله والخوف منه والحض على عدم القنوط من رحمته عز وجل لا يدفعنا إلى القول بأنه تطرق إلى مقامى المحبة والخوف فهو أمر لم يخطر لأبى بكر على بال ، ولكن اواضح أنه يقوم بدور المفسر للآيات (من ثقلت موازينه . . ومن خفت موازينه) . أن هيمنة القرآن على الصحابة بخاصة والمسلمين بعامة ، هذه الهيمنة ظاهرة تبدو واضحة بجلاء فى هذا العصر المبكر .

وقـــد امتلأت حياته أيضا ـ كغيره من صحابة الرسول صلوات الله عليه ـ بالإيمان القوى بالله عز وجل ، وإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . ولهذا كان أكثرهم يردد المعانى نفسها ، وربما بالألفاظ عينها . من ذلك أن أبا بكر لما مرض ، سئل عن رغبته فى إحضار الطبيب فأجاب (قد رآنى فقال : إنى فعال لما أريد) (٣) .

ويضع ابن تيمية أبا بكر فى عداد السالكين لطريق الروح فى الإسلام لتفرده بمقام الصديق (وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون) (٤) ، مصداقا لقوله تعالى

---

١ ـ ابن الجوزى / صفة الصفوة ج ١ ص ٩٩ .

٢ ـ ابن سعد / الطبقات ج ٣ ص ١٩٨

٣ ـ ابن سعد / الطبقات ج ٣ ص ١٩٨ وستجد العبارة نفسها على لسان أبى الدرداء .

٤ ـ ابن تيمية / الصوفية والفقراء ص ٢٦

(أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا النساء : ٦٩) . ثم يثبت خطأ اتباع مذهب وحدة الوجود في تفضيلهم الولي على النبي ، وادعاء حصول المعرفة عن طريق الإلهام .

إن المشاهدات والمخاطبات رائدها الأول هو الرسول ﷺ لا نفراده بالنبوة والرسالة ، ثم يأتي بعده أول الأولياء وهو أبو بكر (١) ، فالرسول اختص وحده برؤية الملائكة المنزلين بالوحي حيث شاهد ما شاهده ليلة المعراج ، والولي أقل مرتبة من النبي دون جدال . أما محاولة البعض من متفلسفة الصوفية الرفع من شأن أوليائهم بدعوى حصولهم على المعارف عن طريق الإلهام المجرد والمعاني التي تنزل على قلوبهم فهو خطأ يؤدي إلى نتيجة أخرى غير صحيحة لأنهم ينتقلون من هذه المقدمات إلى ترتيب النتيجة التي يسوقونها إلزاما ، وهو أن الولاية أعظم من النبوة لأن الإلهام يحصلون عليه دون واسطة أو حجاب ، بينما خوطب موسى عليه السلام بحجاب الحرف والصوت (٢) .

إن ابن تيمية يصف هذه المكاشفات بأنها في حقيقتها هواجس نفسية من إيحاء الشيطان ، ذلك لأنه يفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان . فالولاية الحقيقية لصحابة الرسول صلوات الله عليه ، وأفضل الأولياء هم الصديقون ، ويقف في مقدمتهم أبو بكر (٣) .

٢ - عمر بن الخطاب (٢٤ هـ = ٦٤٤ م) :

إن الحديث عن أبي بكر وثيق الصلة بالشيخ الثاني ، لأن فراسة أبي بكر

---

١ - ابن تيمية / شرح العقيدة الاصفهانية ص ١٠٧

٢ و ٣ - ابن تيمية / بغية المرتاد ص ٨٢

تحققت عندما عهد بالأمر من بعدة لعمر بن الخطاب (١) .

ضرب المثل الأعلى فى العدل بعد صاحبيه . وكانت حياته على الكفاف ، فلم يستحل لنفسه من بيت مال المسلمين إلا ما هو ضرورى ، مستشهدا بالآية (من كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف / آية ٦ ، النساء) فقال : (إنى أنزلت مال الله منى بمنزلة مال اليتيم ، فإن استغنيت عففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف) (٢) .

ومع هذا ، فقد أخذ نفسه بالشدة بالرغم من اتساع رقعة بلاد الإسلام فى عهده ، وما تبعه من كثرة الغنائم ، فأشفقت ابنته حفصة عليه وأشارت عليه بأن يوسع بعض الشيء على نفسه فى المأكل والملبس (وقد شوهد وهو خليفة وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة) ، ولكنه فى الحقيقة يقتدى بسيد الزهاد (وإمام الكل وقدوة الخلق) (٣) صلوات الله عليه . أخذ يذكر ابنته بما كان الرسول يلقاه من شدة العيش ، وأسهب فى تذكيرها حتى أبكاها (٤) ، وصارحها بأنه لو استطاع الاقتداء بالرسول وصاحبه أبى بكر فى عيشها الشديد لفعل ، لأنه يأمل فى أن (يلقى معهما عيشها الرخى) (٥) .

ويظهر لنا تقريعه هنا لابنته أمر هين ، لأن الواقعة تكررت مرة أخرى بواسطة أحد الناصحين له بالطعام اللين والمركب اللين والملبس اللين لأنه أحق

---

١ - قيل أن أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر فى عمر ، وصاحبة موسى حين قالت (استأجره) وصاحبة يوسف (ابن سعد / الطبقات جـ ٣ ص ٢٧٣)

٢ - ابن سعد / الطبقات جـ ٣ ص ٢٧٦

٣ - ابن الجوزى / صفة الصفوة جـ ١ ص ١٠٨

٤ - المصدر السابق جـ ١ ص ٦

٥ - الطبقات جـ ٣ ص ٢٧٧ ، ٢٧٨

الناس بها ، ولكن عمر اشتاط غضبا وضربه بجريدة على رأسه معنفا إياه بقوله (أما والله ما أراك أردت بها الله ، وما أردت بها إلا مقاربتى) (١) .

ويذكر الهجويرى أن الصوفية اتخذوا من أبى بكر إماما لهم (٢) .

ولم يقتصر عمر بن الخطاب على نفسه ، وإنما دعا إلى التقشف ورغب فيه ، فكان يحذر المسلمين من ارتداء زى الأعاجم والتشبه بهم فى النعيم فيصيح فيهم (عليكم بالمعدية) (٣) . ولما بلغه أن يزيد بن أبى سفيان يأكل عدة ألوان من الطعام ولا يكتفى بلون واحد ، استأذن منه مرة لمشاركته فى عشائه الذى بدأ بثريد اللحم ، فلما أحضروا لهما الشواء ومد يزيد يده ليتناوله استنكر عمر الاستزادة بهذا الصنف من الطعام وتساءل (يا يزيد بن أبى سفيان ! أطعام بعد طعام ؟ والذى نفس عمر بيده لئن خالفتم عن سنتهم ليخالفن بكم عن طريقهم) (٤) فقد رأى عمر أن الاقتصار على طعام واحد من السنة ، ولكننا نستطيع أن نستنتج من نص آخر أن نظرته تتعدى هذا الجانب ، لأنه يرى إنه من الضرورى سد حاجة المسلمين جميعا . فليس ثمة مبرر لأحد أن يستأثر لنفسه بالكثير - حتى ولو كان الخليفة - بينما يموت البعض الآخر جوعا . ونلمح هذا الرأى عندما نراه رفض ركوب الدابة التى قدمت له لانه علم أنها تأكل الشعير فقال (يأكل هكذا والمسلمون يموتون هزلا ؟ ! لا أركبها حتى يحيى الناس) (٥) .

---

١ - صفة الصفوة ج ١ ص ١٠٨

٢ - Kashf Al Mihjub p. 73.

٣ - ابن حنبل / الزهد ص ١٢١ (المعدية من معد بن عدنان جد العرب - وهو يعنى بذلك التخشن الذى كان عليه جدهم . وهنا نجده يخشى التأثير الأجنبى أيضا ويتمسك بالعادات العربية حتى فى المأكل والمشرب وليس فى الأفكار أو العقائد وحدها .

٤ - الشاطبى / الاعتصام ج ١ ص ٩٣ . ٥ - ابن حنبل / الزهد ص ١٢٦

وتتفق النصوص على خشونة عمر وتواضعه وشدته فى أمور الدين ، إلا أن المسعودى (٣٤٦ هـ = ٥٩٧ م) ينفرد - فيما يظهر - بوصف الخليفة الثانى بأنه كان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم . ومن المؤكد أن لبس الصوف فى ذلك لا يعنى إلا التقشف والزهادة ، ولا ينصرف إلى المعنى الخاص الذى يريده الصوفية .

ومن العجب أن عماله فيما ينقل لنا المسعودى اتبعوه فى سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه ، لأنه كان هو نفسه (يحمل القربة على كتفه) (١) ، وهو ما يدل على قوة شخصيته مما كان له تأثيره فى عماله ، وربما معاصريه أيضا الذين كان يدعوهم إلى الخشونة ونبذ أسباب الرفاهية كما قدمنا . ونرى الصدى عند أويس القرنى الذى يصف عمر بأنه خليله وصفيه (٢) .

وإننا لنعثر على عديد من نماذج السلوك التى يتضح فيها عمر بن الخطاب الزاهد حقا . وقد جذبت شخصيته انتباه المستشرق ساخاو فأطلق عليه اسم (صاحب العظمة ذو الثياب المرقعة) (٣) .

أما عمر التقى الورع الذى يتناول فى أحاديثه الخشنة والمحاسبة ورأيه فى الدنيا والآخرة ، وهى باختصار الموضوعات التى خاض فيها الزهاد فى نظرياتهم عن الزهد - هذا الجانب فى شخصية الخليفة الثانى نراها فى كتاب (الزهد) لابن حنبل وهى جديرة حقا بالتأمل . فلم يكن الزهد عنده مجرد سلوك عملى فحسب ، ولكنه بالإضافة إلى ذلك نظرة فاحصة يتأمل فيها أمور الدنيا والآخرة فيقول

---

١ - المسعودى / مروج الذهب جـ ٢ ص ١٩٩

٢ - ابن حنبل / الزهد ص ٢٤٥

٣ - ساخاو / طبقات ابن سعد جـ ٣ ق ١ ص ٥

(نظرت فى هذا الأمر فجعلت إذا أردت الدنيا أضررت بالآخرة ، وإذا أردت الآخرة أضررت بالدنيا) (١) . ثم يختار بعد ذلك الاضرار بالفانية ويشبهها بمكان إلقاء القمامة الذى وقف عنده مرة فأطال - مما أدى إلى تأذى أصحابه الذين معه - فقال لهم (هذه دنياكم التى تحرصون عليها) ٢) .

ويستشعر الخوف الشديد من ربه ، فهو يخشى لو مات جدى بشاطىء الفرات أن يحاسبه الله به (٣) ، ويشتد هذا الخوف عليه حتى يتمنى إنه لم يولد ، وإنه كان نسيا منسيا (٤) ، إذ لما هرع إليه عثمان بن عفان حين طعن وهو واقع فى التراب ليساعده على النهوض فأبى ، وأخذ يردد (ويلى وويل أمى إن لم يغفر لى) (٥) . وكان دأبه الخوف فمنعه النوم لأنه لو نام بالنهار خيل إليه إنه سيضيع الرعية ، وإن نام بالليل عن الصلاة أضاع نفسه (٦) ، وكان يحب الصلاة فى جوف الليل (٧) ، فلا عجب بعد هذا أن يلاحظ أصحابه فى وجهه خطين أسودين من البكاء (٨) ، بل كان يقرأ أحيانا بعض آيات من الكتاب فتخنقه ويظل فى البيت يعوده أصحابه ظنا أنه مريض (٩) .

---

١ - ابن حنبل / الزهد ص ١٢٥ ، ١٢٦

٢ - ن . م ١١٨

٣ - ابن الجوزى / صفة الصفوة ج ١ ص ١٠٩

٤ - ن . م ١٠٩

٥ - ن . م ١٢٥

٦ - ابن حنبل / الزهد ص ١٢٣

٧ - ابن الجوزى / صفة الصفوة ج ١ ص ١٠٩

٨ - ن . م ١٠٩ والزهد ص ١٢١

٩ - ابن حنبل / الزهد ص ١١٩

ومن مواعظ عمر ، الحديث عن محاسبة النفس فى الدنيا قبل محاسبتها يوم العرض الأكبر حيث لا يخفى من الخلق خافية ، مستندا إلى الآية (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ـ آية ١٨ ـ الحاقة) (١) . كذلك فطن إلى المعانى الرقيقة التى تتعلق بالذكر والورع والتوبة، فإن ذكر الله عنده شفاء بينما ذكر الناس داء (٢) ويقول (إن من قل ورعه مات قلبه) (٣) ، كما ينصح بمجالسة التوابين لأنهم أرق شيء أفئدة (٤) ، ويرى أن الطمع فقر والإياس غنى (٥) .

وكان يدعو ربه عز وجل أن يمنحه الاخلاص فى العبادة حتى تصبح خالصة له دون مشاركة أحد ، وحتى يبتعد عن كل مظاهر الرياء (٦) ، لأن التدين الحقيقى فى رأيه ليس بالطنطنة من آخر الليل بل هو الورع (٧) . كما يفضل العزلة لأن فيها الراحة من خلان السوء (٨) .

إنها كلها تتضمن نفس الموضوعات التي خاضها الزهاد بل أنها تفوقها أصالة . فقد رأيناه يتنبه إلى أرق المعاني مثل رقة القلب .

وينقل لنا ابن حنبل فيما ذكره عن هذا الصحابى الجليل ، أنه نصح رجلا أم الناس للصلاة ثم جلس ليقص عليهم بأن يكف عن القصص، مكتفيا بإمامة الصلاة

---

١ ـ ن ٠م ١٢٠ وصفة ج ١ ص ١٠٩

٢ ـ ابن حنبل / الزهد ص ١١٢

٣ ـ ابن الجوزى / صفة ج ١ ص ١٠٩

٤ ـ ابن حنبل / الزهد ص ١٢٠

٥ ـ ن ٠ م ص ١١٧

٦ ـ ابن حنبل / الزهد ص ١١٨

٧ ـ ن ٠م ١٢٥

٨ ـ ن ٠م ١١٩

لخوفه عليه من أن يرفع نفسه فيضعه الله (١) . ونراه هنا يتعمق فى النفس البشرية ليكشف النقاب عن الزهو فى حديثه إلى الراغب فى القصص . كذلك فى تعريفه للمدح بأنه الذبح ، فكأن من يكيل المدح لغيره كمن يذبحه ، لأنه يسمح بالغرور بأن يأسره ، ويقضى عليه .

أما عن إلهام عمر ، فقد ثبت بالحديث (قد كان فى الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن فى أمتى أحد فعمر منهم) (٢) .

وجاء ابن تيمية فيما بعد ، فيتخذ من إلهام عمر دليلا على إمكان المعرفة القلبية للترجيح بين الأدلة ، لأن هناك نورا يهدى القلب ، ولكنه يشترط لصحة هذا الدليل المعرفى أن يكون مسبوقا بنص فيصبح دور الالهام القلبى مرجحا لطالب الحق (إذا تكافأت عنده الأدلة السمعية الظاهرة) (٣) .

ولكن شيخنا يحتاط هنا ، لأن المحدث يأخذ عن قلبه ـ وهو ليس معصوما ـ فيحتاج إلى عرضه على ما جاء به النبى ﷺ . ولهذا كان الخليفة الثانى لا ينازع أصحابه بدعوى أنه محدث وملهم ـ ومن ثم يفرض عليهم آراءه ـ ولكنه كان يناقشهم ويناقشونه ، ويحتجون عليه بالكتاب والسنة (٤) .

وفى النهاية . . مات عمر بطعنة غادرة ، ولكنه خرج من الدنيا (نقى الثوب بريئا من العيب) (٥) .

---

١ ـ ن . م ١٢٢

٢ ـ النووى / شرح صحيح مسلم جـ ٥ ص ٧٥٠

٣ ـ ابن تيمية / السلوك ص ٤٧٧

٤ ـ ابن تيمية / الفرقان . . ص ٧٠

٥ ـ تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ١٢٨

٣ - عثمان بن عفان (٣٥ هـ = ٦٥٥ م) :

وكما استشهد عمر بن الخطاب ، كانت الشهادة أيضا من نصيب الخليفة الثالث الذى قتل منكبا على المصحف يتلو آيات الله ، وتحققت نبوة الرسول ﷺ يوم كان واقفا معه على الجبل فاهتز فركضه الرسول وهو يقول (اسكن . . ليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد) (١) .

ولن نتناول الجانب السياسى الذى تضخمت به المصادر وجذبت اهتمام مفكرى الاسلام للتحليل والدراسة مع الانقسام بين أهل السنة والشيعة فى موقفهم منه وانفجار الأحداث الواحد تلو الآخر ، ونكتفى بالقول بأن ما دار حوله من جدال حجب الكثير من مآثره ، وصدق ذو النون المصرى حين رأى أن أحد الطرق التى دخل منها الفساد على المسلمين هو تصيدهم لأسباب الخلافات واتخاذها حجة لأنفسهم ، ودفنوا أكثر مناقب السابقين (٢) ، ذلك لأن الانصراف إلى تسجيل الانشقاقات أدى إلى طمس معالم شخصية أحد الخلفاء الراشدين .

والذى نقصده هو الناحية المتصلة بموضوعنا ، وهى زهد ذى النورين ومضمون الحياة الروحية عنده . فقد اشتهر بأنه كان من التجار الأثرياء ، خصص جانبا كبيراً من ثروته لصالح المسلمين ، فقام بتوسيع المسجد ، وجهز نصف جيش العسرة (٣) .

والخليفة الثالث من الصحابة العشرة المبشرين بالجنة ، ومع هذا فقد انكب على العبادات قانتا آناء الليل خائفا من المصير فى اليوم الآخر ، راجيا رحمة الله

---

١ - ابن عبد البر / الاستيعاب ق ١ ص ١١٥

٢ - الشاطبى / الاعتصام جـ ١ ص ١٠٨ .

٣ - ابن الجوزى / صفة الصفوة جـ ١ ص ١١٦

تعالى ورضاه . وهذا هو تفسير ابن عمر لآية (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه . . سورة الزمر آية ٩) ، إذ قال ابن عمر أن المقصود بهذه الآية هو عثمان بن عفان رضى الله عنه وأرضاه (١) .

ونرى من حديثه عن الخوف والخشية تماثلا مع الخليفتين قبله بحيث يدفعنا إلى تأكيد القول بارتباطهم جميعا بأواصر عقيدة متينه أخلصوا لها كل الاخلاص ففجرت فى نفوسهم أحاسيس متشابهة ، وإلا كيف نفسر تمنى كل من أبى بكر وعمر ألا يخلقا أصلا ، ثم يجىء عثمان فينظر إلى مصيره : أهو إلى الجنة أو النار ؟ ولما لم يكن يدرى إلى أيهما يؤمر به فيختار أن يكون رمادا قبل أن يعلم إلى أيهما يصير (٢) .

ويشتد بكاؤه حتى تبتل لحيته حين يقف على أحد القبور لأنه يذكر حديث الرسول ﷺ عن القبر كأول منازل الآخرة ، وكأنه يشفق على المصير وهو فى ريب من أمره لأن من نجا من القبر (فما بعده أيسر منه ، ومن لم ينج منه فما بعده أشد منه) (٣) .

ولما تدافع الغوغاء لقتله صاحت امرأته فيهم (إن تقتلوه أو تتركوه فإنه كان يحيى الليل كله فى ركعة يجمع فيها القرآن) (٤) .

ونقرأ خطبه فنرى أن أغلبها يدور حول الحث على الزهد فى الدنيا وتفضيل الآخرة ، فهو يخاطب سامعيه بنفس المعانى التى حفظها وقرأها فى الكتاب ، ورآها

---

١ ــ ابن الجوزى / صفة الصفوة ١١٨
٢ ــ ابن حنبل / الزهد ص ١٢٩
٣ ــ ابن حنبل / الزهد ص ١٢٩
٤ ــ ن ٠م ١٢٧ وابن الجوزى / صفة ج ١ ص ١١٦

مطابقة بواسطة السابقين عليه . وبدراستنا للموضوعات التى طرقها، نراها متطابقة فى صورتها العامة مع نظريات الصحابة فى مضمون الحياة الروحية .

ونلتقى بالأسماء التى أطلقوها لتعريف الحيـــاة الأولى والآخرة ، فنراها لا تختلف مما يدل على التمسك بالشكل أيضا إلى جانب المضمون ، هـذه الظاهرة إن دلت على شيء فإنما تدل على التوافق فى الآراء بسبب لزوم طريقة الاقتداء . فليس بدعاً أن نرى عثمان بن عفان يسرد علينا آراءه فى الحياتين ويعظ المسلمين ، مترسما خطى المتقدمين عليه ، مشيراً إلى مذهبهم الذى لا يتعدى اعتنـاق وتطبيق آيات الكتاب وصحيح السنة .

وبادىء ذى بدء ، لم يفرح عثمان بتولى الخلافة ، بل قام يخطب فى أول عهده بها وهو أشدهم كآبة (١) ، فنبه المسلمين إلى أنهم فى دار قلعة وبقية أعمار ـ وهو منهم ـ وحثهم على المبادرة بما يقدرون عليه من صالح الأعمال لأن الدنيا طويت على الغرور ، شارحا الآية (فلا تغرنكم الحيـاة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ـ آية ٣٣ ، لقمان) ، منتقلا إلى نفس العظة التى وعظهم بهـــا أبو بكر ـ فيما أشرنا إليه من قبل ـ وتتلخص فى التنبيه إلى المصير المحتوم على الجميع من (أبنـاء الدنيا وأخواتها الذين آثاروها وعمروها ومتعوا بهـا طويلا (٢) ، ولكنها لفظتهم كما لفظت غيرهم .

ويتطرق بنا فى خطبة أخرى إلى الحث على تقوى الله ـ فإن تقواه جنـــة ـ والانخراط فى الجماعـة بدل التحزب والفرقة . محذرا من الانشغال بالدنيا لأنهـا الفانية (فلا تبطركم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية) (٣) .

---

١ ـ تاريخ الطبرى ﺟ ٥ ص ٤٣

٢ ـ ن ٠م والصفحة

٣ ـ ن ٠م ص ١٤٩

ومن مظاهر زهده أنه كان يطعم المسلمين الطعام الشهى (ويدخل إلى بيته فيأكل الخل والزيت) (١) ، وأنه كان يصوم النهار ويقوم الليل إلا هجعة من أوله . ثم اتخذه الصوفية فيما بعد - كما يذكر الهجويرى - مثلا أعلى للتضحية بالروح والمال فى سبيل الله (٢) .

وكان ينهل من مصدر الاسلام الأول - كتاب الله - كل ليلة لا يشغله عنه شاغل ، وكأنى به عندما يقرأ المصحف فقد ازداد قربا من الله تعالى . ولئن كانت العبارة التى أوردها ابن حنبل وهى (وما أحب أن يأتى على يوم ولا ليلة إلا أنظر فى كتاب الله) (٣) . تعنى القراءة فى المصحف والمداومة على ذلك ، إلا أن تعبيره يدعو إلى النظر بأعمق من مجرد هذا القصد المباشر . والظاهر أن ذا النورين يعبر عن إحساسه بأنه بقراءة المصحف يشعر بأنه يزداد اقترابا من الله، ويلتق بمتعة يود الاستمرار فى الاغتراف منها ، فلا يحب أن تنقضى الأيام والليالى بدونها .

وظل يقرأ فى الكتاب إلى أن اختلطت دماؤه بكلماته ، وأصبحت خاتمة حياته عنوانا على التقاء النظر بالتطبيق ، والقول مع العمل .

٤ — على بن أبى طالب (٤٠ هـ = ٦٦٠ م) :

وعندما قتل عثمان تحققت نبوءته وانشق المسلمون واختلفوا ثم أخذ يستفحل الانشقاق حتى انفجرت موقعة حنين بين على ومعاوية . يذكر لنا ابن عبد البر أن المسلمين انقسموا ثلاثة أقسام (أهل دين يحبون عليا ، وأهل دنيا يحبون معاوية ، وخوارج) (٤) .

---

١ — ابن حنبل / الزهد ص ١٢٩

٢ — The Kashf Al Mahjub by Al Hujwiri translated by : Reynold A. Nicholson - London 1911

٣ — ن ٠م ص ١٢٨

٤ — ابن عبد البر | الاستيعاب ق ٣ ص ١١١٥

وظهر التشيع الذى بدأ فى شكل المحبة لعـــلى واتسعت الدائرة بعد ذلك حتى أصبح المذهب الشيعى اتجاها مخالفا للسنة ، وتيارا منشقا عن أهل السنة والجماعة .

وأصبح لشخصية على جاذبيتها الخاصة لدى الزهاد والصوفية فيما بعـــد ، وتداخلت اصطلاحات أسماء الصوفية مع أسماء أئمة الشيعة ، كالأوتاد والأبدال وغيرها . ولا بأس أيضا عند الصوفية من قبولهم ـ بل تأييدهم ـ الحديث الذى يربط بين الصوفية وبينهم وبين على الذى ألبسه النبى ﷺ خرقة الصوفية .

وإذا كانت حجة الصوفية فى وضع الامام على بعد الرسول صلوات الله عليه ، على رأس قائمة الشيوخ الذين يحرصون على الارتباط بهـم وتسلسل لبس خرق التصوف منهم ، فإن ما يدعو إلى الدهشة أنه مع ما تحفل به المصادر عن أخبار الخليفة الرابع فى الزهد والحياة الروحية ، فإنهم قد أغفلوا صفة أخرى بارزة لابن عم الرسول، وهى شجاعته النادرة فى الحروب، واشتراكه فى معظم المعارك العسكرية وخروجه ظافرا منتصرا منها . ينقل لنا صاحب (اللمع) ما نسب إلى الجنيد بقوله (لولا أنه أشتغل بالحروب لأفادنا من علمنا هذا معانى كثيرة ، ذاك إمرؤ أعطى علم اللدنى) (١) ، وسنناقش صفة العلم بعد قليل . فلم يكن إذن معتكفا متأملا ، متسربلا فى خرق الصوفية ـ كما يحاول دعاة التصوف تصويره ، ولكنه فى الحقيقة كان صاحب راية رسول الله ﷺ أثناء القتال (٢) ، ولم يكن يرد حتى يفتح الله عليه (٣) .

---

١ ـ الطوسى / اللمع . . ص ١٧٩

٢ ـ ابن سعد / الطبقات ج ٣ ص ٢٥

٣ ـ ن . م ص ٣٨ وكتاب الزهد ص ١٣٣

وظل معتزا بسيفه الذى كان كثيرا ما كشف به الكرب عن الرسول ولم يبعه إلا لحاجته الشديدة لثمنه لأنه لو كان عنده ثمن إزار ما باعه (١) .

وسنحاول أن نوضح رأى السلف فى كل هذا فى المواضيع المختلفة من البحث . أما الآن فإننا سنتابع عرض الزهد عن الخليفة الرابع .

أننـــا إذا ما اعتمدنا على كتب التاريخ ، قابلتنا أحاديثه الكثيرة المتشعبة فى وصفه للدنيا (فالعيش فيها مذموم والرخاء فيها لا يدوم) (٢) ، وتدلنا تصرفاته على الزهادة والتقشف حتى كان يلبس الإزار المرقوع، فسئل عن السبب فأجاب (يقتدى بى المؤمن ويخشع له القلب) (٣) .

ولكن هذه الصورة الواقعية ، نراها تتضخم فى المصادر المختلفة التى تمدنا بمعلومات وفيرة عن دعواته المتلاحقة للمسلمين ، ومواقفه فى النصح والوعظ ، وهى تفوق من حيث كثرتها ما تركه لنا أصحابه السابقون عليه .

وتعليل هذه الظاهرة قد يتضح إذا ما تأملنا موقفه الصعب الدقيق الذى ينفرد به عنهم ، لأن أهل الشام انشقوا عليه برئاسة معاوية ، وأعوانه أنفسهم خرجوا عليه وحاربوه . كذلك اصطدم منذ بداية توليه الخلافة بمشكلة المطالبة بدم عثمان التى كانت سببا لموقعة الجمل .

ومن هذه المعارك المتلاحقة المحتدمة ، انصهرت شخصية الفارس العظيم ، وأكسبته التجارب القاسية نظرة عميقة للحياة والناس ، فضلا عن سابق صحبته وعلمه ، وكانت وسيلته هى التعبير عما يجيش فى صدره وما يعتمل فى خواطره فى

---

١ — ابن الجوزى | صفة الصفوة جـ ١ ص ١٢٣ والزهد ص ١٣٢

٢ — ابن الجوزى | صفة جـ ١ ص ١٢٥

٣ — ابن حنبل| الزهد ص ١٣١ وابن سعد| الطبقات جـ ٣ ص ٢٨ وصفة جـ١ ص١٢٣

مناسبات شتى ، فأفضى إلينا بهذه الخواطر المستفيضة التى تلقفها الشيعة من جانب آخر وأدخلوها فى إطار نظرياتهم .

وأحبه أهل السنة والجماعة ـ السلف والخلف ـ ودافعوا عنه . وجاءت أخبار زهـده ضمن كتابات شيوخهم أكثر اعتدالا . والحق أن موقفه من الزهد لا يتعدى القالب الذى صاغه فيه أسلافه وأن لون عباراته طابع الحزن والأسى وأتسمت نزعته بالتعمق فى دراسة النفوس وخباياها للسبب الذى قدمنـا به حديثنا . فنظرية الخوف قد ظهرت قبله كما عرفنا ، وكانت تحوم حول الحزن ويبدو أنه ممن وضع البذور الأولى ، فكثيراً ما شوهد فى محرابه (قابضا على لحيته يتململ تململ السليم . ويبكى بكاء الحزين) [١] .

ولكن التشيع واضح فى التصوف المتأخر ، ولهذا كان من الأفضل ، ليكون البحث أقرب إلى الحياد ، عدم الاقتصار على مصادر التصوف وحـدها . فلو اقتصرنا على كتب الصوفية لأصبح أئمة المسلمين جميعا صوفية ، وأن نظرة فاحصة بكتاب أبى نعيم الاصفهانى تبرهن على ما نحاول إثباته ، ذلك لأنه وضع الخلفاء الاربعة فى عداد الصوفية .

ولكى تصبح دراستنا عن زهده أقرب إلى الحياد ، فإننا سنستقصى أخباره من مصدرين : أحدهما شيعى معتدل وهو تاريخ اليعقوبى ، والثانى كتاب (الزهد) لابن حنبل .

إن الخليفة الرابع يصف الدنيا فى حالة ضيقه بشيعته حيث يسميهم (شرار خلق الله إلا من رحم الله) ويشكو من افتراقهم عنه ، ويجـد العزاء فى أن

---

١ ـ ابن الجوزى / صفة الصفوة ج ١ ص ١٢٢

الدنيا هى كما وجدها (محنة الصالحين)، ويدعو الله أن يكون منهم - أى من الصالحين ! ! (١) .

ولكنه فى موضع آخر ، يعود فيصف الدنيا بأنها (دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود فيها . مسجد أحباء الله . ومهبط وحيه ومصلى ملائكته الخ . .) (٢) . ولا تعارض بين الاثنين لأنه فى تعريفه الأول يعبر عن ضيقه ومحنته بأتباعه ، فانعكس ذلك على نظرته للدنيا . وهكذا تتشكل وفق ما يصادفه المرء فيها من صنوف المتاعب، وألوان السعادة ، وكأنها كالوعاء الشفاف الذى يتخذ لون ما يحتوى من السائل . نستدل على ذلك من باقى التعريف الثانى إذ يقول عنها (مثلت ببلائها البلاء وشوقت بسرورها السرور، راحت بفجيعة ، وأبكرت بعافية . ترغيبا وترهيبا وتحذيراً وتخويفا) (٣) .

كذلك يرى أن الجمع بين حزبى الدنيا والآخرة محتمل فيقول (المال والبنون حزب الدنيا ، والعمل الصالح حزب الآخرة ، وقد يجمعها الله لأقوام (٤) ، فلم تقلقه إذن مظاهر الثراء وكثرة الأولاد بقدر ما يهتم بالبواعث والدوافع النفسية الخبيثة التى تكمن وراءها ، فيقول (إن أخوف ما أخاف عليكم اثنين : طول الأمل واتباع الهوى ، فأما طول الأمل فينسى الآخرة ، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق) (٥) .

---

١ — تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ١٨٠

٢ — المصدر السابق جـ ٢ ص ١٨٤

٣ — ن ٠ م والصفحة

٤ — ن م ١٨٣

٥ — ن ٠ م ١٨٤ وكتاب الزهد لابن حنبل ص ١٣٠

ولكنه لم ينصح بالانقطاع والعزلة وحياة الرهبنة ، وكيف يفعل وهو القدوة في ميدان الشجاعة والفروسية ؟ وكان رسول الله ﷺ (ليبعثه ويعطيه الراية فلا ينصرف حتى يفتح له) (١) . كما ظل يحارب عن حقه في الخلافة حتى نهاية حياته .

ولم يخرج أيضا في حديثه عن العلم عن الإطار الإسلامي ، أى لم يدع لنفسه العلم اللدنى ؛ ولكنه العلم الذى يقصد به معرفة أمور الدين وأحكامه والتفقه فيه فإن (للعالم ثلاث علامات : العلم بالله وبما يحب الله وبما يكره الله) (٢) فهو الايمان أولا ، ثم معرفة أحكام الحلال والحرام — أى ما يحب الله وما يكره . وأكد الجانب التنفيذى للعلم — إن صح التعبير — لأنه يقرن بين العلم والعمل ، فينصح المسلمين بقوله (تعلموا العلم تعرفوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله) (٣) ثم أتت نظريات التصوف فجعلته من أصحاب العلم اللدنى (٤)

٥ — ابو الدرداء .

كان أبو الدرداء من كبار الصحابة (ويختلفون هل شهد بدراً أم لا) (٥) واتجه الى الحث على طلب العلم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنظر في ملكوت الله للعظة والعبرة . فالتفكير ساعة عنده خير من قيام ليلة ، والعمل

---

١ — ابن حنبل / كتاب الزهد ص ١٢٣

٢ — تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٨٣

٣ — ابن حنبل / كتاب الزهد ص ١٣٠

٤ — Kashf Al Mahjub p. 74

٥ — ابن الجوزى / صفة الصفوة ج ص ٢٥٧

المفضل لديه هو التفكر والاعتبار فيقول (تفكر ساعة خير من قيام ليلة) (١) ولهذا وصفته زوجته بأن أفضل أعماله (التفكر والاعتبار) (٢) .

وأبو الدرداء أكثر ما يعنى بالتقوى الحقيقية وعبادة الله بإخلاص دون تظاهر أو غرور ، وتفضيل العمل للآخرة والزهد فى الدنيا لزوالها وفنائها إذ يقول (اذكر الله عز وجل فى السراء يذكرك فى الضراء ، فاذا أشرفت على شىء من الدنيا فانظر الى ماذا يصير) (٣) .

وزاول التجارة والعبادة معا ، فلما وجد أنهما لا يجتمعان اكتفى بالعبادة ، وترك التجارة (٤) .

ولا ينبغى أن نفهم من هذا أنه مجرد تصرف اتخذه بوحى من رغبة عابرة ، أو تفضيل موقف على آخر ، فالحقيقة أن لموقفه هذا أصلا فى الكتاب ، فقد قرأ آيتين أحدهما (وأحل الله البيع وحرم الربا / آية ٢٧٥ البقرة) فان أبا الدرداء مع تسليمه وتصديقه بالآية التى تحلل البيع الذى يعود عليه شخصيا بثلثمائة دينار حلالا طيبا ، فقد فضل على هذا المال ، اشتراكه فى صلاة الجماعة بالمسجد فى الأوقات كلها ، لينطبق عليه قول الله عز وجل (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، آية ٣٧ / النور) . (٥)

ومن النصوص التى أوردها ابن الجوزى ما يستشف منه أحوال المسلمين فى

---

١ ـ ابن سعد / الطبقات ج ٧ ص ٣٩٢

٢ ـ ابن حنبل / الزهد ص ١٣٥

٣ ـ ابن الجوزى صفة / ص ٢٥٨

٤ ـ ابن سعد / الطبقات ج ٧ ص ٩٢ ٣ ، وابن حنبل / الزهد ص ١٣٧

٥ ـ ابن حنبل / الزهد ص ١٣٧

فى عصر أبى الدرداء إذ يقول (والله ما أعرف فيهم شيئا من أمر محمد ﷺ إلا أنهم يصلون جميعا) (١) .

وأعجبته ظاهرة إعلان الزهد ، فأفصح عن رأيه المتضمن أن خشوع المنافقين أن يرى الجسد خاشعا والقلب ليس بخاشع (٢) ؟ ونهر امرأة - رأى بين عينيها أثر السجود - وله سمته الظاهر ، كنقشة الشاة فقال لها (لو لم يكن هذا بين عينيك لكان خيراً لك) (٣)

ونحن نعلم أنه مات سنة ٣١ هـ أو ٣٢ هـ (٦٥١ م أو ٦٥٢م) بدمشق حيث ولى القضاء هناك ، أى أنه شاهد ثراء المسلمين ومظاهر الترف والإقبال على الدنيا فوقف فى وجه هذا التيار الجديد الذى لم يألفه من قبل زمن النبى ﷺ ، محذراً المسلمين من التكالب عليها ، ووصفها بأنها دار كدر لاينجو منها إلا أهل الحذر (٤) ، والتزم بتطبيق هذه النظرية على نفسه .

وهذا يذكرنا بما نحاول إثباته ، وهو الجمع عند الأوائل بين النظر والتطبيق، فليس المذهب الزهدى مجرد مواعظ تلقى ، وكلمات تقال ، ثم تنسى ، وإنما هو موقف وسلوك فى نفس الوقت . بل يصبح السلوك أحيانا فى المقام الأول .

والأمثلة كثيرة على ما نقول : منها أن زوجة أبى الدرداء شكت من نفاد الدقيق ، فكان جوابه لها (إن أمامنا عقبة كوود ، المخفف فيها خير من المثقل) (٥) .

---

١ - ابن الجوزى / صفة الصفوة ص ٧٥٩ وابن حنبل / الزهد ص ١٣٨

٢ - ابن الجوزى / صفة ص ٢٦١

٣ - ابن حنبل / الزهد ص ١٣٨

٤ - ابن عبد البر / الاستيعاب ق ٣ ص ١٢٢٩

٥ - ابن حنبل / الزهد ص ١٣٧

ألسنا نجد هنا سلوكا عمليا لرأيه فى وقوف المال الكثير ـ الذى لا يؤدى صاحبه حق الله فيه ـ حجرة عثرة أمام صاحبه يوم الحساب ؟

ولئن كان يدعو الى الرفق فى المعيشة ، أى الاقتصاد فيها والابتعاد عن الإسراف . ويعتبر ذلك من الفقه ـ أى من الحكمة ـ فإنه يدعو أيضا أصحاب الأموال إلى أن يؤدوا حق المال ، فإن لم يستطيعوا ، فإنه ينبغى عليهم الاكتفاء بالحد الذى يستطيعون معه أداء الشكر عنه ، أى (لا تجمع ما لا تستطيع شكره) لأن المال المؤدى عنه حق الزكاة يساعد صاحبه على النجاة يوم القيامة . أما صاحب المال الذى لم يطع الله ، فإن ماله يقف حجر عثرة فى سبيله يومئذ .

وكان أبو الدرداء يبغض جماع المال الذى يفرقاه ، كأنه مجنون يجتذبه ما عند الناس ، ويغفل ما عند الله ، يود لو واصل الليل بالنهار للاستكثار من ماله (وماذا ينفعه ماله وعمره يقصر ؟!) (١) .

وهو يتذكر الموت دائما ، يستمد منه موعظة بليغة ، ويستشعر الخوف من يوم الحساب ، وترتعد فرائصه لهوله ، فينصح المسلمين بالعمل من أجله . إنه يهتز لهذا المصير الذى سيلقاه الجميع ، ويرى الموت فوق رءوس الأحياء . سأله رجل فى جنازة عن صاحبها فأجابه بقوله (هذا أنت . . . هذا أنت) !! مستشهدا بالآية (إنك ميت وإنهم ميتون) ٣٠ سورة الزمر (٢) .

كذلك يحب الفقر ويفضله عن الغنى ، لأنه يجعله متواضعا لربه ، كما يحب

---

١ ـ ابن حنبل / الزهد ١٤٣ وصفه جـ ص ٢٦٢

٢ ـ ابن حنبل / الزهد ص ١٣٤

المرض أيضا لأنه يكفر عن خطاياه فيقول (أحب الفقر تواضعا لربى ، وأحب الموت اشتياقا إلى ربى ، وأحب المرض تكفيرا لخطيئتى) (١) .

وقد أورد الكلاباذى (٣٨٠ هـ - ٩٩٠ م) هذه العبارة نفسها ضمن الأقوال التى ذكرها الصوفية فى مقام السكر ، واعتبر حالة قائلها أتم من صاحب السكر ، لأن الثانى يقع على المكروه من حيث لا يدرى غائبا عن وجود التكره ، بينما المتأسى بمثل قول أبى الدرداء (يختار الآلام على الملاذ ، ثم يجد اللذة فيما يؤلمه لغلبة شهود فاعله) (٢) .

بمثل هذه الإضافة التى يضعها الكلاباذى . نستطيع أن نستنتج الى أى حد حاول دعاة التصوف تأويل عبارات السلف ، فإن لم تكن النصوص متطابقة مع ما يريدون الترويج له من أفكار ، فلا بأس من تقريبها - أو حتى تأويلها - حتى تخرج عن قصد صاحبها . لكى تتفق مع ما يهدفون اليه .

إن مثل فكرة السكر - أو مقام السكر عند متأخرى الصوفية - لم تكن تخطر على بال لأبى الدرداء وهو يقول عبارته الآنفة الذكر . والأقرب إلى الصحة أن أبا الدرداء - وهو الصحابى الذى حدث عن الرسول ﷺ - سمع الحديث الذى يشير إلى ابتلاء المؤمن ، ونصه (ألا تحبون أن تكونوا أصحاب بلاء وأصحاب كفارات ؟ فو الذى نفس أبى القاسم بيده إن الله ليبتلى المؤمن بالبلاء ، فما يبتليه إلا لكرامته عليه ، لأن الله قد أنزل عبده منزلة لم يبلغها بشىء من عمله دون أن ينزل به من البلاء فيبلغه .تلك المنزلة (٣).

---

١ - ابن سعد / الطبقات ج ٧ ص ٣٩٢

٢ - الكلاباذى / التعرف لمذهب أهل التصوف ص١٢٧

٣ - ابن عبد البر / الاستيعاب ق ٤ ص ١٧٢٧

ولما مرض لم يشتك بسبب المرض ، وإنما كان يشكو ذنوبه ، فلم يطلب دواء لدائه وإنما أجاب من سأله عما يشتهى . بأنه يشتهى الجنة . ولم ير سببا يدعو إلى إحضار طبيب لأن الله تعالى هو الذى أضجعه وهو القادر وحده على شفائه (١) .

أن سيطرة الإيمان على قلبه مكنت من عبوديته لله تعالى وحجبت عنه كل ما عداه . فهل كانت مثل هذه الأقوال ، مقدمة لنظرية نقد العلية وإسقاط الأسباب التى طورها الغزالى فيما بعد ؟

إن أبا الدرداء - كما سنرى بعد قليل - يربط بين الإنتصار فى الحروب ، وبين الأعمال الصالحة . أما عن نفسه ، فلم ير لها عملا مشابها ، فاستسلم فى مرضه لله وحده . استسلام العبد المقر بذنوبه .

ومن الغريب أنه كان يحض على اتباع الكتاب والسنة وحدهما - واستبعد الاقتداء بالصحابة فى ذلك الوقت المبكر ، ويبدو أنه وجد أسبابا لذلك فيقول (لا تغترن بصحابة رسول الله ﷺ ، فإننا عشنا بعده دهراً طويلا والله أعلم بالذى أصبنا بعده) (٢) .

وينحصر مذهبه الأخلاقى فى الدعوة للأخوة بين المسلمين بالنصح لهم وموعظتهم والدعوة للحلم والعفو لأنه (ما تجرع المؤمن جرعة قط أحب الى الله عز وجل من غيظ كظمه فاعفوا يعزكم الله) (٣) . وينصح بالاكثار من

ذكر الموت حتى يقلل الذاكر من آفتى النفس : الحسد والبغي (١) ويستعيذ من خشوع الرياء .

أما أشد الآفات خطرا ، وهى المانعة لصلاح الناس فهي الشح ، والهوى ، وأعجاب كل ذى رأى برأيه (٢) .

ثم يضع أفكاره كلها فى مجال الأخلاق ، معبرا عنها بكلمته الجامعة (البر لا يبلى ، والإثم لا ينسى ، والديان لا ينام فكن ماشئت ، كما تدين تدان) (٣)

أما الاعتكاف الذى حض أبـو الدرداء عليـه ، فهـو لزوم البيت لأنه يكف الجوارح ويحصن المعتكف ضد فتن الأسواق لأن الأسواق تلهى وتلغى (٤) .

ولكن ينبغى أن نوضح أن تفضيلة للعزلة لم يكن مظهراً سلبيا بقدر ما كان طريقـا يفضله حتى لا يشارك فيما يشارك فيه الغير من تصرفات قد تجلب له له الخطايا . فقد كان قاضيا بدمشق وعده تكليفا خطيرا ومسئولية جسيمة تبعث على الخوف ، فلما هنأه الناس بالقضاء أجاب (لو علم الناس ما فى القضاء لأخذوه بالدول رغبة عنه وكراهية له) (٥) .

وهكذا ، فإن كراهية الاختلاط لم تمنعه من القيام بمسئوليته كقاضى وأدائه لهذا الدور فى خدمة المسلمين . فلم يكن إذا سلبيا منعزلا عن الحياة الاجتماعية ،

---

١ ـ ابن حنبل / الزهد ص ١٤٣

٢ ـ ن٠م ١٣٦

٣ ـ ن٠م ١٤٢

٤ ـ ابن حنبل / الزهد ص ١٣٥ وابن الجوزى / صفة جـ ص ٢٦٣

٥ ـ ابن سعد / الطبقات جـ ٧ ص ٣٩٢

لا سيما إذا عرفنا أن القاضى كان خليفة الأمير إذا غاب (١) .

وقد أفرغ أبو الدرداء رأيه فى التوكل وتفضيله للتقوى عن شئون الحياة الدنيا فى قالب شعرى جامع يقول فيه :

يريد المرء أن يؤتى مناه ... ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول المرء فائدتى ومالى ... وتقوى الله أفضل ما استفادا (٢)

ويذكر صاحب الطبقات الكبرى أنه كان من عبدة الأصنام قبل إسلامه . ومثل هذا النص ينبغى أن يوجهنا إلى حقيقة هامة . وهى أن الديانات السابقة لم يكن لها تأثير على هؤلاء الصحابة ، لأن البيئة الإسلامية المبكرة بمؤثراتها الدينية - وكان حامل لواءها النبى ﷺ - كان لها أثرها الوحيد والحاسم . إن شخصية الرسول كانت موضع جذب وإشعاع فى محيط الصحابة بحيث استولت تعاليم الاسلام على ما عداه فى هذا الدور المبكر .

وكان أبو الدرداء يهتم بأخبار الغزو وانتصار المسلمين تثبيتا لفكرة الجهاد ، وينصح المحاربين بطاعة الله لأن الطاعة عنده هى وحدها الكفيلة بالنصر فى الغزو فيقول لأفراد الجيش (إعمل عملا صالحا قبل الغزو فإنما تقاتلون الناس بأعمالكم) (٣) . ويرى العكس ، أى أن الهزيمة سببها عصيان الله ، لا فرق فى ذلك بين أمة وأخرى . فقد بكى يوم فتح قبرص مما أثار أصحابه ، فسألوه عن سبب بكائه فى يوم كان ينبغى عليه أن يشارك المسلمين أفراحهم .

---

١ - ابن عبد البر / الاستيعاب ق ٣ ص ١٢٣٠

٢ - ن ٠ م ق ٤ ص ١٦٤٨

٣ - ابن حنبل / الزهد ص ١٣٦

وما أبلغ العبارة التي قالها شارحا السبب ! ! قال (ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره . بينما هي أمة قاهرة ، ظاهرة ، لهم الملك ، تركوا أمر الله عز وجل فصاروا إلى ما نرى ! ! (١) .

فقد رأى أن علة الهزيمة لأهل قبرص حينئذ هـو العزوف عن طاعة الله . وبالمثل سنجد ابن تيمية فيما بعد ينظر إلى التاريخ نظرة الفيلسوف الناقد ، ويعدد المواقع التي هزم فيها المسلمون بسبب عصيانهم لأوامر الله ونواهيه .

وتجتمع في أبي الدرداء خصال عدة ، كلها تبلغ به المرتبة الأولى في العلم والعمل . فقد كان فارسا ، وعالما ، ومن علية الصحابة ، ومن المحدثين عن النبي صلى الله عليه وسلم .

هكذا يصفه ابن سعد . ويضيف إلى ذلك كله صفة لها أهميتها في الحياة الروحية فيعده من أهل النية . وقد وفق صاحب الطبقات بإطلاق هذه الصفة عليه ، لأنها تعني الحياة العميقة الداخلية التي عبر لنا عنها بكلماته السابقة .

ونستطيع أيضا أن نستدل من هذه الصفة عن السبب الذي من أجله ضمه ابن تيمية إلى الصحابة الذين عليهم طابع المضمون الروحي .

٦ — ابو ذر الغفاري (٣٢ هـ = ٦٥٢ م) :

ترتبط شخصية أبي ذر الغفاري بفكرة الزهد التي جعلت اسمه بارزا في هذا المضمار ، بسبب تلك الحادثة التي وقعت بينه وبين معاوية ، ونعني بها وقوفه في وجهه معارضا مظاهر البذخ والترف واختلافهما في تفسير الآية (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله . . سورة التوبة آية ٣٤) ، إذ ذهب

---

١ - ابن حنبل / الزهد ص ١٤٢

معاوية إلى أنهـــا نزلت فى أهل الكتاب ، بينما قال أبو ذر (نزلت فينا وفيهم) (١) .

وكان أبو ذر مشدوها للتغييرات التى أحدثها معاوية بالشام ، وحينما لم تعجبه تصرفاته فى أمـوال المسلمين ، تذكر سؤال الرسول ﷺ له (يا أبا ذر ، كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يستأثرون بالفىء ؟) (٢) ، وسنوضح إجابة أبى ذر بعد قليل .

وأصبحت حادثة معارضته لمعاوية وموقف الخليفة عثمان بعدها منه أحد المنحنيات التى وقف عندهـا الشيعة محاولين إبراز آثارها الدينية والسياسية ، واتخذوا من أبا ذر ركنا من أركان الشيعة الأوائل ، وضخموا من واقعة انتقاله إلى الربذة، لمحاولة تصويرها بما يشبه الاضطهاد والنفى .

إن الصحابى الزاهد الذى حرص على أن يلقى الرسول صلوات الله عليه عـلى نفس الحال التى فارقه عليها (٣) ، نظرا إلى كل زيادة فى الأموال على أنها فائض عن الحاجة ينبغى توجيهه للصالح العام ، وكان يطبق على نفسه هذه القاعدة بدقة ، فقد عرض عليه بعض القوم يوما النفقة فاعتذر عن قبولها ، قال (عندنا أعـنز نحتلبها وأحمر تنقل عليهـــا ومحرر يخدمنا وفضل عباءة . إنى أخاف الحساب فيها) (٤) ، وفى عبارة أخرى (أنا أتخوف الفضل) .

ورفض مرة أن يدخـر الفائض من عطائه لأن (خليلى عهد إلى أن أى مال ذهب أو فضة أوكى عليه فهـو جمـــر على صاحبه حتى يفرغه فى سبيل

---

١ و ٢ ـ ابن سعد / الطبقات ج ٤ ص ٢٢٦

٣ ـ ن ٠م ٢٢٨

٤ ـ ابن حنبل / الزهد ص ١٤٦ ـ ١٤٧ والطبقات لابن سعد ج ٤ ص ٢٣٥

الله) (١) ، ولهذا فهو يرى أن ذا الدرهمين أشد حسابا من ذي الدرهم (٢) .

وقد خشى معاوية من هذه المبادىء التى يعلنها أبو ذر على الملأ حتى نادى مناديه بألا يجالسه أحد (٣) ، وبعث لعثمان للتصرف فى أمره .

وقد قلنا فى صدر هذا الكلام بأن هناك اختلافا فى روايتى الشيعة وأهل السنة عن واقعة ذهاب أبى ذر إلى الربذة ، فقد صورتها المصادر الشيعية بصورة الإبعاد والنفى ، وأجمعت مصادر أهل السنة على أنه خرج معززا مكرما .

وفيما يلى مقارنة بين مصدرين ، أحدهما شيعى والآخر سنى :

يذكر اليعقوبى فى تاريخه أن أبا ذر كان يجمع الناس حوله ويقف على باب دمشق بعد صلاة الصبح فيقول (جاءت القطار تحمل النار ، لعن الله الآمرين بالمعروف والتاركين له ، ولعن الله الناهين عن المنكر والآتين له) (٤) .

ولما كتب معاوية إلى عثمان أمر بأن يحمله على السفر إلى المدينة لمقابلته ، وأثناء مناقشة أبى ذر لعثمان ، نلمح الاتجاه الشيعى دون عناء ، حيث يحتد عثمان رافضا إجابة رغبة أبى ذر فى الذهاب إلى مكة أو الكوفة أو البصرة . وعندما يتساءل أبو ذر (أتخرجنى من حرم رسول الله ﷺ ؟) يجب عثمان (نعم . وأنفك راغم) (٥) .

ونستبعد صحة هذه الرواية ، لأن المناقشة تدور بلغة لم نألفها فى التخاطب بين

---

١ – ن . م ٢٢٩ والزهد ص ١٤٦

٢ – ابن حنبل / الزهد ص ١٤٧

٣ – ابن سعد / الطبقات ج ٤ ص ٢٢٩

٤ – اليعقوبي / تاريخ ج ٢ ص ١٤٨

٥ – ن . م والصفحة

الصحابة ، لا سيما عندما تصطدم بتعبير (وأنفك راغم) ، فهو لا يتفق مع طباع عثمان بن عفان الحيي الذي لم نسمع منه كلمة نابية واحدة ، حتى مع الغوغاء الذين أرادوا قتله ، وهو الذي وصفه الرسول بأنه أصدق صحابته حياء .

أما المصادر السنية ، فقد أثبتت أنه وفد على عثمان بناء على استدعائه له وأنه طلب منه المكوث بالمدينة ، فاختار أبو ذر الربذة لأنها كانت مسقط رأسه ، معتذرا عن الحياة بالمدينة ، وأعلن أنه (لا حاجة لي في دنياكم) (١) .

والنص الذي يدور حوله المعنى نفسه ، أورده ابن حنبل كالآتي :

قال عثمان : يا أبا ذر ، قم عندنا تغدو عليك اللقاح وتروح ، فقال : لا حاجة لي فيها ، وقال إن الربذة كانت لي منزلا فائذن لي أن آتيها فأذن له (٢) .

وانتقل أبو ذر من أرض الشام إلى الربذة عن طواعية مستجيبا لأولى الأمر كما أوصاه النبي صلوات الله عليه ، لأن الصحابي الزاهد كان قد أجاب عن السؤال الذي مر بنا في بداية حديثنا عن الأمراء الذين يستأثرون بالفيء بقوله (إذا والذي بعثك بالحق أضرب بسيفي حتى ألحق به) (٣) .

ولكن الرسول ﷺ أرشده إلى ما هو خير من ذلك ، قال له (أصبر حتى تلقاني) (٤) .

لقد صبر أبو ذر ولم يضرب بسيفه ، واكتفى بأن يضرب المثل الأعلى في تطبيق المبادىء التي يعتنقها ، فأعطى ثوبه الزيادة لمن هو أحوج منه (٥) . وظل

---

١ — ابن الجوزي / صفة الصفوة جـ ١ ص ٢٤٣ وابن كثير / البداية والنهاية جـ ٧ ص ١٦٥ .

٢ — ابن حنبل / الزهد ص ١٤٨

٣ — ابن سعد / الطبقات جـ ٤ ص ٢٢٦

٤ و ٥ — ابن سعد/الطبقات جـ ٤ ص ٢٢٦ و ص ٢٣٥

يتقشف في معيشته حتى عاتبته زوجته للضيق الذى يأخــــذ نفسه وأسرته به ، فأجابها (يا أم ذر ، إن بين أيدينا عقبة كؤود وإن المخف فيها أهون من المثقل) (١) . وهى العبارة التى يردد معناها صاحبه وأخوه أبو الدرداء . ولما قوته على عهد الرسول ﷺ صاعا من تمر ، اكتفى بهذا المقدار متعهدا ألا يزيد حتى يلقى ربه (٢) .

ووهب أبو ذر نفسه للدعوة إلى المحافظة على الحال التى تركه عليها الرسول ، ناصحا المسلمين باتباع الحياة التى ينبغى أن يحيوها ، فهـو الناصح الشفيق عليهم (يا أيها الناس ، إنى لكم ناصح ، إنى عليكم شفيق . صلوا فى ظلمة الليل لوحشة القبور ، وصوموا الدنيا لحر يوم النشر ، وتصدقو مخافة يوم عسير) (٣) .

وعندما أحس بدنو الأجل ، لم تجد زوجته كفنا له ، فاستبشر خيرا بقول الرسول (ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين) وود لو كان هو المقصود بالحديث .

وبكت امرأته لافتقادها الثوب الذى يسعه كفنا . وأطلت على الطريق لعلها تعثر على من يكفن زوجها ، ولما أبصرت ببعض المارة من بعيد ، ألاحت بثوبها فأقدموا عليها .

وكفنه فتى معهم من الأنصار فى ردائه الذى عليه وفى ثوبين من غزل أمه .

ومات أبو ذر ، وكأنه أبى ـ بعد مماته أيضا ـ إلا أن ينفرد بخصائص تتحقق له دون غيره من الصحابه . فقد أوصى امرأته وغلامه أن يغسلانه ويضعانه على قارعة الطريق . وفعلا ، تم له ما أراد .

---

١ ـ ابن حنبل / الزهد ص ١٤٨

٢ ـ ابن عبد البر / الاستيعاب ق ١ ص ٢٥٦

٣ ـ ابن حنبل / الزهد ص ١٤٨

وحين أقبل عبد الله بن مسعود فى رهط من أهل العراق ، وعرفوا أبا ذر ، أعانوا الغلام على دفن صاحب رسول الله . وأجهش ابن مسعود بالبكاء مخاطبا إياه (أخى وخليلى . عاش وحده ، ومات وحده ، ويبعث وحده ، طوبى له) (١) .

٧ - سلمان الفارسى (٢١/٣٢ هـ = ٦٥١/٦٥٢ م) :

تنازعه أهل السنة ، كما تنازعه الشيعة بالحديث (سلمان منا أهل البيت) (٢). إلا أن الرواية السنية تتفق مع الشيعية من حيث بحثه الطويل قبل إسلامه عن العقيدة الصحيحة ، ومحاولاته العديدة السابقة فى سبيل الوصول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كان فارسيا من أهل أصبهان ، واجتهد فى صباه فى المجوسية حتى ليحرص على بقاء النار موقدة لا يتركها تخبو .. ثم مر بكنيسة من كنائس النصارى ومال إلى المسيحية . ولم يفتر عن البحث عن الحنيفية دين ابراهيم عليه السلام حتى عثر عليها واستدل عليها بواسطة المبعوث بها محمد ﷺ ، بعد أن تأكد من العلامات التى تنبىء به فهو (يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة) (٣) .

أعانه الرسول على فك الرق عنه ، ويورد صاحب (الطبقات الكبرى) وقائع فك أسره بناء على طلب النبى ﷺ الذى أعانه بمثل البيضة من ذهب ، فأعتق بعد

---

١ - الاستيعاب ١ ص ٢٠٣

٢ - كما ورد هـذا الحديث أيضا على لسان على بن أبى طالب (الاستيعاب ق ٢ ص ٦٣٦) .

٣ - سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٧٣ حتى ص ٧٦ ط بولاق ١٢٩٥ هـ .

ما أدى المال المستحق عليه ، ثم شارك المسلمين فى موقعة الخندق (١) ، وآخى الرسول بينه وبين أبى الدرداء (٢) .

وقد حاول ماسينيون أن يضع شخصية سلمان فى إطار الشخصية الغنوصية . وينبغى القول هنا أن مصادر أهل السنة لا تنكر أنه أطلع على الكتب السابقة على القرآن ، فان عبد البر يذكر أنه (قرأ الكتب وصبر فى ذلك على مشقات نالته ، وذلك كله مذكور فى خبر إسلامه) (٣) ، وقد وصف سلمان بأنه صاحب الكتابين : الانجيل والفرقان (٤) .

إلا أن سلمان الصحابى الكبير ، كان فى الظروف الدينية والاجتماعية والسياسية التى لم يكن هناك فيه صوت إلا صوت النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا كتاب إلا كتاب المسلمين الأوحد ، فإن القول بأنه تأثر بالديانات السابقة ـ بحيث طغى هذا التأثير على عقيدته الجديدة ـ يحتاج إلى دليل حاسم .

لقد كان موقف سلمان المؤيد للإسلام قاطعا بدخوله فى عقيدة الإسلام أولا . ثم إخلاصه للدعوة فى مشورته التى كانت سببا من أسباب الانتصار فى غزوة الخندق . فهو الذى أشار بحفر الخندق اتباعا للطرق التى ألفها قومه، لقد استخدم خبرته فى نصرة الإسلام ، وأفرغ جهده بعد ذلك فاشترك فى المعارك جنبا إلى جنب مع المسلمين ، ولم تفته إلا بدرا أو أحد (٥) .

---

١ ـ ابن سعد / الطبقات جـ ٧ ص ٣١٨

٢ ـ ابن الجوزى / صفة جـ ١ ص ٢١٦

٣ ـ ابن عبد البر / الاستيعاب ق ٢ ص ٦٣٤

٤ ـ ن ٠ م ٦٣٦

٥ ـ ابن سعد / الطبقات جـ ٧ ص ٣١٨

أما موضوع زهده - إلى جانب علمه - فقد أثبته من واقع حياته كلها بما فى ذلك الفترة التى قضاها أميرا المدائن حيث قدر عطائه عنها بما بين أربعة وخمسة آلاف ، فكان يتصدق به كله ويأكل من عمل يده (١)

وأثار دهشة المسلمين لأنه ظل يعمل بينما هو أمير المدائن ، فلما راجعه بعضهم فى ذلك ، أجابهم بأنه يحب أن يأكل من عمل يديه .

وقد ظل بدون بيت يأوى إليه مدة طويلة كان خلالها يستظل بالشجر ، ولما ألح عليه أحدهم بأن يبنى له بيتا ، استفسر عن شكله فأجابه الرجل (أبنيه إن قمت فيه أصاب رأسك ، وإن اضطجعت فيه أصاب رجليك). فلما رأى سلمان منزلا بهذه المواصفات وافقه على بنائه .

وكانت له عباءة واحدة يفترشها ويلبسها أيضا .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد آخى بينه وبين أبى الدرداء لتشابههما فى العلم والزهد (٢) ولكن يبدو أنه كان يفوق أخاه . فقد علم مرة أن أبا الدرداء يصوم الدهر ويقوم الليل ، فأبدى اعتراضه على هذا السلوك ، وذهب بنفسه إليه مبينا له الساعات التى ينبغى أن يقومها ليلا ، وأرغمه على الافطار فى يوم صيامه ناصحا له (إن لنفسك عليك حقا ولربك عليك حقا وإن لضيفك عليك حقا وأن لأهلك عليك حقا فاعط كل ذى حق حقه) (٣)

ثم اتضح إن منهج سلمان فى العبادة أكثر صوابا حين ذهبا إلى الرسول يحتكمان فأقر سلمان على مافعله .

أن هذا الصحابى الزاهد سلك الطريق الإسلامى ؛ وسار على السنة- سنة النبى

---

١ - الاستيعاب ق ٢ ص ٦٣٥ وصفة ج ١ ص ٢١٨

٢ - المكى / قوت القلوب ج ٤ ص ١٤٨

٣ - الاستيعاب ق٢ ص ٦٣٧ وصفة ج١ ص٢١٦ والشاطبى / الاعتصام ج١ ص٢٦/٢٧

صلى الله عليه وسلم . أنه لم يترهب بدعوى التأثر بالمسيحية ، بل حدث العكس ، عارض أبي الدرداء في إهماله لزوجته لدوامه القيام والصيام . ولاشك أن الدافع كان تأثير الدين الجديد - الاسلام - وأنه لم يعد هناك أثر لمانويته أو مسيحيته القديمتين في نفسه .

كان للإسلام إذن التأثير الحاسم والنهائي في شخصيته ، فلم يمنعه العلم الأول أن يتبع العلم الآخر ، وهو تعاليم القرآن وسنة الرسول صلوات الله عليه .

ولذا كان علي بن أبي طالب يصفه بأنه العلم الأول والآخر تعبيرا عن إحاطته بهما معا .

وتوفي سلمان في خلافة عثمان بالمدائن (١) فلم يشهد المنازعات التي دبت بين المسلمين منذ مقتل الخليفة الثالث .

* * *

هذه هي حياة الزهد التي اتضحت معالمها عند الصحابة، والتي ساروا فيها على طريق النبوة .

ويرى ابن تيمية أن العلم المشروع والنسك المشروع مأخوذ عنهم ، (وكذلك من بنى الإرادة والعبادة والعمل والسماع المتعلق بأصول الأعمال وفروعها من الاحوال القلبية والأعمال البدنية . على الايمان والسنة والهدى الذى كان عليه محمد ﷺ وأصحابه فقد أصاب طريق النبوة . وهذه طريق أئمة الهدى) (٢)

ويذهب أيضا إلى أن علم النبوة - من الايمان والقرآن - ومايتبعه من الفقه والحديث وأعمال القلوب قد خرج من الأمصار : المدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام (٣) وسائر الأمصار تبع .

---

١ - ابن سعد / الطبقات ج ٧ ص ٣١٩

٢ - ابن تيمية / السلوك ص٣٦٢

٣ - نفس م ٣٦١

لذلك فإننا سنلقى نظرة على هذه الأمصار تباعا بادئين بالمدينة لنستطلع أحوالها وأعمال القلوب فيها .

أولا : المدينة

ظلت المدينة كما نعلم مقرا للخلفاء الراشدين الثلاثة الأول ، وعاصمة للمسلمين ، ثم تغيرت الأحوال والظروف السياسية لها بعد مقتل عثمان بن عفان .

وكانت المدينة بعيدة عن التحولات السياسية البعيدة الأثر ، وبالتالى نأت بشيوخها عن الخوض فى الخلافات الناشبة بين المسلمين ، وكان عبد الله ابن عمر أصدق مثال على تفضيل الحياة العلمية الهادئة ، بغية الدراسة والبحث بعيدا عن صخب المعارك وصليل السيوف .

وارتفعت المكانة الدينية للمدينة بصفة خاصة ، لا لأنها كانت مقرا لمعظم الصحابة فاجتذبت إليها كل متعطش للمعرفة فحسب ـ كما يذهب إلى ذلك المستشرق ساخاو (١) ـ ولكنها أيضا اتسمت إلى جانب بعدها عن الفتن كما قلنا ، بخلوها من ظهور الأفكار والاتجاهات الغريبة ، أو ما اصطلح عليه بالبدع ، بشكل صريح لأن معتنقى هذه البدع أضمروها خشية الذم والقهر (بخلاف التشيع والارجاء بالكوفة والاعتزال وبدع النساك بالبصرة ، والنصب بالشام ، فإنه كان ظاهرا) (٢) .

كذلك ابتعد الزهد الغالى والتصوف المشبوه عن المدينة بسبب كونها موطن الصحابة .

---

١ ـ ساخاو ـ تطور الرواية التاريخية عند العرب ومنزلة ابن سعد من ذلك (بحث بمقدمة الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٣ قسم ١ ص ٤ طبعة (كتاب التحرير) .

٢ ـ ابن تيمية / مذهب أهل المدينة ص ٢٣

وللمدينة حياتها الزاهدة التى تتمثل فى أرز الأئمة ، منهم الصحابى عبد الله بن عمر والتابعى سعيد بن المسيب إلى جانب على بن الحسين .

ولئن كان تناولنا لموضوع الزهد بالمدينة سيقتصر على الأولين إلا أننا لا نغمض الثالث حقه ، فمن المعروف أنه أضفى على المدينة طابع الحزن ، وهو القائل (من ضحك ضحكة مج مجة من العلم) (١) ، وهو الذى كان يطوف حاملا جرابه على ظهره يوزع الصدقات فى الظلمات لأن (صدقة الليل تطفىء غضب الرب عز وجل) (٢) ، إلا أننا نتقيد بموضوع بحثنا ، إذ أن طرق حياة الزهد عند على ابن الحسين يتصل بشكل أوسع بالتصوف عند الشيعة ، وكان حزنهم بعد مقتل الحسين له لونه الخاص المستمد من هذه الحادثة الأليمة حتى قيل (أرق من دمعة شيعية) .

١ — عبد الله بن عمر

اشتهرت المدينة بعد الله بن عمر كأحد عبادها وزهادها المرموقين بين جيله من رجال الصحابة ، والحق أن مكانته لم تكن مستمدة من صيت أبيه العظيم عمر بن الخطاب ، ولكن من مقومات شخصيته التى تفرد بها بين غيره من الصحابة المقيمين بالمدينة ، فإذا (رآه إنسان ظن أن به شيئا من أتباعه آثار رسول الله ﷺ) (٣) . أى أنه حمل معه هذه الحياة التى تذكر المسلمين بنبيهم صلوات الله عليه ، لا سيما وأنه حافظ على ملامح تلك الحياة الأولى التى افتقدها المسلمون بعد وفاة الرسول .

---

١ — ابن حنبل / الزهد ص ١٦٦

٢ — ن٠م ١٦٦

١ — ابن حنبل / الزهد ص ١٩١

كانت السيدة عائشة تصفه بقولها (ما رأيت أحداً أشبه بأصحاب رسول الله الذين دفنوا فى النمار من عبد الله بن عمر) (١) .

عاصر عبد الله بن عمر فترة زمنية أشتد فيها الصراع السياسى بين المسلمين ، سواء بين علي ومعاوية ، أو بين الخوارج وبين السلطات الحاكمة ولم يشترك فيها . كذلك لم يشترك مع عبد الله بن الزبير فى ثورته ضد بنى أمية ، كما لم يؤيد الحجاج فى عتوه وجبروته .

ومن المناسب أن نعرض لسبب إعراضه عن الاشتراك فى هـذه الحروب والثورات على اختلاف أسبابها وتعدد المشتركين فيها .

يذكر ابن سعد أن عثمان بن عفان عرض عليه القضاء فأبى . وهذه واقعة نلمح فيها عزوف ابن عمر عن المشاركة فى الحياة العامة ، وكان له سبب يستند إليه فى هذا ، إذ لما ألح عليه عثمان لقبـول القضاء مذكرا إياه بأن أباه كان يقضى ، قال عبد الله (إن أبى كان يقضى ، فإذا أشكل عليه شىء سأل النبى ﷺ ، وإذا أشكل على النبى سأل جبريل ، وإنى لا أجد من أسأل) (٢) .

إنه إذن فضل اتخاذ هذا الموقف منذ بداية حياته . ولما بدأت الانشقاقات تظهر بين المسلمين، أفصح عن مسلكه الذى ظل ملتزما به فقال (لا أقاتل فى الفتنة، وأصلى وراء من غلب) (٣) .

---

١ – ابن حنبل / الزهد ص ١٩٤

(النمار) جمع نمرة ، وهى الشملة * تريد فقراء المهاجرين الذين ماتـوا فدفنوا فى نمارهم وشملهم

٢ – ابن سعد / الطبقات جـ ٤ ص ١٤٦

٣ – ن٠م ١٤٩

ويبدو أنه فى أواخر أيامه أعاد النظر فى المسألة . ولئن لم يندم لأنه كف يده إلا أنه يصرح بأن القاتل على الحق أفضل (١) . فإذا تساءلنا : هل يقصد بالقتال على الحق عليًّا وأتباعه ؟

إن لدينا من النصوص ما يرجح هذا الاستنتاج ، لأنه لما سمع معاوية يتساءل عمن أحق بالخلافة منه ، أجاب ابن عمر (فأردت أن أقول أحق منك من ضربك وأباك عليه ، ثم ذكرت ما فى الجنان فخشيت أن يكون فى ذلك فساد) (٢) .

ولكنه ، مع هذا ، لم ينخرط فى سلك على بن أبى طالب لأنه نظر مليا فى الأمر ، ثم تبين له أن المتحاربين فى الحقيقة هم (فتيان قريش يتقاتلون على هذا السلطان ، وعلى هذه الدنيا) (٣) .

وفى مجال المعارضة السياسية ، جاهر برأيه ولم يبايع ليزيد ابن معاوية ، ورد الأموال التى بعث بها إليه معاوية لهذا الغرض ، لأنه فهم أنها تهدف إلى استمالته . قال (أرى ذاك أراد ، أن دينى عندى إذن لرخيص !!) (٤) ، ثم لما علم بيعة معاوية لابنه يزيد ، علق على ذلك بقوله (إن كان خيرا رضينا وإن كان بلاء صبرنا) (٥) .

ومن هذه العبارة الموجزة ، تنبثق نظرية أهل السنة والجماعة فى الإمامة على اختلاف العصور ، بل إنا إذا تلبسنا الفكرة لوجدناها تلقى صدى عند الحسن البصرى ، فقد ذهب إلى نفس الرأى وأصبح بذلك خصما لدودا للحرورية .

---

١ — ابن سعد / الطبقات ج ٤ ص ١٦٤   ٢ — ن . م ١٨٢
٣ — ن . م ١٧١   ٤ — ن . م ١٨٧
٥ — ن . م والصفحة

ومع هذا ، فإننا نعثر له على عبارة غريبة قالها فى مرضه الذى مات فيه ، إذ أعلن (ما أجدنى آسى على شىء من أمر الدنيا إلا أنى لم أقاتل الفئة الباغية) ( ) . والفئة الباغية تعنى عنده بلا شك حزب بنى أمية الذى حارب عليا .

إن موقفه إذن فى البداية كان بسبب صعوبة تكوين رأى قاطع - حسبما رأى، فضلا عن خشية نتائج الفتن . ثم عندما ظهرت المشاكل واتضحت جوانبها عاد عن رأيه الأول - وهو موقف نستطيع أن ندحض به نظرية ظهور حركة الزهد من الحروب، لأن هذا الصحابى الزاهد لم يكن زهده ناجما عن ابتعاده عن المعترك السياسى ، بل إننا نراه ينشط لمعارضة الحجاج ، تنفيذا للمبدأ العام الذى يعتنقه المسلمون - وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - الذى نلاحظ تطبيقه بواسطة زهاد السلف بصفة عامة .

ووقف ابن عمر بالمرصاد للحجاج بسبب ما اشتهر به من تأخير الصلاة . وحدث مرة أن الحجاج كان يخطب فى موعد الصلاة ، فقام عبد الله صائحا فيه (أيها الرجل . . الصلاة فاقعد !) ثم كرر الصيحة بهذا النداء ثلاث مرات . وفى الرابعة ، استحث المصلين على القيام للصلاة فقاموا ، مما اضطر الحجاج لقطع خطبته وإقامة الصلاة .

وعندما انتهى ، استدعاه مستفسرا عن سبب ما حدث فقال ابن عمر (إنما نجىء للصلاة ، فإذا أحضرت الصلاة فصل بالصلاة وقتها ، ثم بقبق بعد ذلك ما شئت من بقبقة) (٢) .

وتكررت مصادماته مع الحجاج ، عندما اتهم الحجاج ابن الزبير بتحريف

---

١ - ن . م ١٨٥ و ١٨٧

٢ - ابن سعد / الطبقات ج ٤ ص ١٥٩

كتاب الله، فقام ابن عمر يقول (كذبت ! كذبت ! كذبت ! ما يستطيع ذلك ولا أنت معه !) (١).

وصمم على معاندة أمير بنى أمية حتى نهاية حياته ، ولم يكلمه عندما طلب منه أن يفصح عن تسبب فى اصابته ، وظل صامتا ، فخرج الحجاج من زيارته غاضبا وهو يقول (إن هذا يزعم أنه يريد أن نأخذ بالعهد الأول) (٢).

ولم تكن عزلة ابن عمر بسبب الزهد ، لأننا كما رأيناه يتفاعل مع الحياة الاجتماعية والسياسية ، فيما عدا الاشتراك فى القتال . كما كان يصلى مع ابن الزبير والخوارج والخشبية - وهى أحد فرق الشيعة من الزيدية - لا يفرق بين أحد منهم لأنه يرى أن من نادى بنداء الصلاة أجابه . أما من قال (حى على قتل أخيك المسلم وأخذ ماله قلت : لا) (٣).

وتصبح العزلة هنا ، إما تصرف استثناء لا يستند إلى أساس نظرى ، وإما كنوع من تهيئة الظروف للتأمل والفكر بعد الانسلاخ من مشاغل الحياة اليومية فيقول (خذوا بحظكم من العزلة) (٤).

وكان ابن عمر يسمع الآيات القرآنية فيخر لها خاشعا باكيا ، وإذا ما قرأها أيضا انفعل بمعانيها . قرأ مرة (ويل للمطففين) حتى بلغ (يوم يقوم الناس لرب العالمين) فبكى حتى خر وامتنع عن قراءة ما بعده (٥).

---

١ - ابن سعد / الطبقات ج ٤ ص ١٨٤

٢ - ن. م ١٨٦

٣ - ن. م ١٦٩ / ١٧٠

٤ - ن. م ١٦١

٥ - ابن حنبل / كتاب الزهد ص ١٩٢

ولاحظ مولى ابن عمر أنه ما من مرة يقرأ فيها الآيات الأخيرة من سورة البقرة لا سيا (أن تبدو ما فى أنفسكم أو تخفوه . .) إلا بكى ، ثم يعلق على معناها بقوله (أن هذا لاحصاء شديد !!) (١) .

ولكنه انتقد مظاهر الغلو فى البكاء . فإذا ما مر برجل من أهل العراق خر ساقطا بعد سماعه للقرآن ، تعجب من حالته إذ قال (إنا لنخشى الله وما نسقط) (٢) .

ومن العجب أن نظرته إلى المال لم تتسم بالحرج ، فلم يخش الاكثار من المال (ما أبالى لو أن لى مثل أحد ذهبا ، أعرف عدده ، وأؤدى زكاته) (٣) .

وربما تتصل هذه النظرة بالموقف السابق الذى لاحظ فيه المغالاة والتظاهر فى الخشية والحزن ، فمن المحتمل أنه رأى البعض يحرم على نفسه كسب المال الكثير ، فوقف فى الطرف المقابل لكى يوضح نظرة الاسلام الصحيحة إلى المال الذى يؤدى عنه حق الزكاة .

وقد يكون هذا مجرد رأى لم يتحقق لانه هو نفسه كان (يمكث الشهر لا يذوق فيه مزعة لحم !) (٤) .

---

١ - ابن حنبل / كتاب الزهد ص ١٩٢

٢ - ن٠ م ١٩٣

٣ - ن٠ م ١٩٥

٤ - ن٠ م ١٩٢

٢ ــ سعيد بن المسيب

يعد ابن المسيب من كبار التابعين بالمدينة ، بل لقد وصفه الإمام أحمد بأنه أفضل التابعين (١) ، ولا غـــرو فإن الأحاديث المرسلة لابن المسيب يعتبرها ابن حنبل صحيحة من فرط الثقة فيه ، لأنه كان يسير الليالى والأيام فى طلب الحديث الواحد (٢) لحرصه على تتبع العلم النبوى واحترام مكانته ، إذ عندما سئل عن حديث نبوى ـ وكان مضطجعا لمرضه ـ اعتدل جالسا وحدث بالحديث كارها أن يحدث أثناء اضطجاعه (٣) .

صحب ابن عمر وكان الاثنان من العلامات البارزة للمدينة فى العبادة والزهد وقال يوم موته (مات ابن عمر يوم مات ، وما من الدنيا أحد أحب أن ألقى الله بمثل عمله منه) (٤) .

ويبدو أنه حاول السير على نهج ابن عمر الذى عرف بإنفاقه المال فى سبيل الله وقيامه أكثر الليل حتى وصف بأنه يوازى أبيه فى الفضل (٥) .

ولئن كان ابن المسيب ملازما للمسجد ، محافظا على صلاة الجماعة خاصة أيام الحرة ، حتى اتهم بالجنون لأنه حينذاك كان يصلى وحـــده بالمسجد . وكثيرا ما اصطدم برجال الحكم فى عصره ، فقد ضربه مرة عامل عبد الله ابن الزبير حين رفض البيعة له . كذلك كانت الخصومة شديدة بينه وبين حكام بنى مروان ،

---

١ ــ ابن كثير / البداية والنهاية ج ٩ ص ١٠٠

٢ ــ ابن سعد / الطبقات الكبرى ج ٥ ص ١٢٠

٣ ــ ابن كثير / البداية والنهاية ج ٩ ص ١٠٠

٤ و ٥ ــ ن ٠ م ١٠٤

فرفض أن يزوج ابنته للوليد بن عبد الملك وزوجها لآخر على درهمين !! . ولهذا احتال عليه بدعوى رفضه البيعة وضربوه بالسياط ، وهددوه بالسيف ، فظل متمسكا بموقفه لأنه رأى أنه لو أجابهم لوقع فى خزى الدنيا والآخرة (١) .

وكان سعيد يعمل فى التجارة ، ويلبس البسيط من الثياب ، ولا يتزين إلا فى العيدين . وقد رفض أخذ العطاء ونظر إلى المال كوسيلة لصون وجهه عن بنى مروان ، وليصل رحمه ، ويؤدى منه الحقوق ، ويعود منه على الأرملة والفقير والمسكين واليتيم والجار (٢) .

ومع معارضته القوية لأهل السلطة ، فإنه لم ينهج سبيل الخوارج بل أكتفى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وسار فى الشوط إلى آخر مداه ، دون أن يلقى بالا لصنوف التعذيب والتنكيل . فإنه بالرغم من جلده مائة جلدة (٣) بسبب رفضه البيعة كما قدمنا ، إلا أن نفسه كانت عنده أهون عليه فى ذات الله من نفس ذبابة (٤) ، فكان يحض على الانخراط فى سلك الجماعة ويرى (أن الشيطان مع الشاذ ، وهو مع الاثنين أبعد) (٥) ، ويغذى المسلمين بأفكار المقاومة السلبية للسلطة الغاشمة فيسمى أعوانهم (أعوان الظلمة (٦) . وينصح بألا يملؤوا أعينهم منهم بما يحمل معنى الإزدراء والمقاطعة ، وكأنه بهذه الطريقة يؤدى إلى تضييق الخناق على بنى مروان ، فتضعف شوكتهم إذا ما أنفض عنهم الأعوان .

---

١ - ابن كثير : البداية والنهاية ص ١٠١

٢ - ن. م والصفحة

٣ - ابن حنبل / كتاب الزهد ص ٣٨٣

٤ - ن. م والصفحة

٥ - ابن سعد / الطبقات ج٥ ص ١٣١

٦ - ابن كثير / البداية والنهاية ج ٩ ص ١٠٠

وكان سعيد بن المسيب يبث آراءه الفقهية كلما استفتاه المسلمون ، فقد أحب العلم ، وكان يعظم من شأن المقبلين عليه (فإذا مر بالمكتب قال للصبيان : هؤلاء الناس بعدنا) (١) .

وربما رأى بداية مظاهر الغلو فى العبادات بمجتمع المدينة ، فإن العبادة الحقيقية عنده ليست بكثرة الصلاة والصيام (إنما العبادة التفكر فى أمر الله ، والورع عن محارم الله) (٢) .

وينصح ابن المسيب المسلمين بالبحث عن العزة الحقيقية فى العبودية لله (٣)، مفضلا العزلة التى تتيح فرصة التفكر والتأمل ، فهى نوع من العبادة (٤) .

وقد وضع هذا التابعى الكبير الشخصية الإنسانية فى إطارها الواقعى الصحيح، فإنه (ليس من شريف ، ولا عالم ، ولا ذى فضل إلا وفيه عيب .. ومن كان فضله أكثر من نقصه ، وهب نقصه لفضله) (٥) .

ثانيا ــ مدرسة مكة

١ ــ مجاهد بن جبر (١٠٢ هـ = ٧٢١ م) :

يضعه ابن سعد فى مصاف الطبقة الثانية ممن روى عن عمر وغيره من

---

١ ــ ابن سعد / الطبقات جـ ٥ ص ١٤١

٢ ــ ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٦٢

٣ ــ ن . م ١٠٠

٤ ــ ابن حنبل / الزهد ص ٣٨٣

٥ ــ ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٠٠

أهل مكة ، وكان أحد أئمة التابعين والمفسرين وأعلم أهل زمانه بالتفسير ، لأنه من أخصاء أصحاب ابن عباس (١) ، وقد عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة (٢) .

وقد نقل لنا ابن كثير تفسيراته القرآنية عن النظريات التي حام حولها الزهاد واستندوا عليها في آرائهم ومذاهبهم . ففسر النعيم في الدنيا ، والنعم الظاهرة والباطنة ، والتوبة ، والخشوع ، والرهبة . وتحدث عن معنى النفس المطمئنة .

وتلمح في سلوكه الحزن والهم ، فوصف بأنه مثل الخربيذخ أضل حماره فهو مهتم) (٣) .

فسر لى قوله تعا (يا مريم أقنتي لربك) قال : (أطيلي الركود) (٤) أما معنى النعيم في الآية (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) فهو كل لذة في الدنيا (٥) .

وفي الآية الأخرى (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) ، التي نصت على فكرتي الظاهر والباطن التي يتمسك بها أهل التصوف ، ويؤولونها تأويلا يخرجها عن معناها ، فإن مجاهدا أوضح معنى النعم الظاهرة بأنها : والإسلام والقرآن والرسول ، والرزق . والمقصود بالنعمة الباطنة : فهي ما ستر من العيوب والذنوب (٦) .

---

١ — ابن كثير / البداية والنهاية ج ٩ ص ١٠٣
٢ — ابن سعد / الطبقات ج ٥ ص ٤٦٦
٣ — ن . م ٤٦٧ وابن كثير ج ٩ ص ٢٢٥
٤ — ابن كثير / البداية . . م ٩ ص ٢٢٤
٥ — ابن كثير / البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٢٤
٦ — ن . م ٢٢٥

والذى يفسر لنا اهتمام الزهاد الأوائل بنقل تفسيراته ، هو عنايته بالأفكار المتصلة بالمضمون الروحى بالكتاب الكريم . فالفضيل بن عياض نقل عنه - ليس مباشرة ولكن عن طريق منصور فى الحلقة الوسطى من سلسلة الاسناد - أن (القنوت) فى قوله تعالى (وقوموا لله قانتين) يعنى الركود والخشوع وغض البصر وخفض الجناح من رهبة الله (١) .

أما نظرية المراقبة لله ، فقد نقلها عنه سفيان بن عيينه (١٩٨ هـ ٨١٣م) فى قوله تعالى (لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة) .

قال : الإل : هو الله عز وجل .

وفى تفسيره للخوف فى الآية (ولمن خاف مقام ربه جنتان .

قال مجاهد : إن الخائف (هو الذى يذكر الله عند الهم بالمعاصى) (٢)

وله حديث طويل عن تأثر القلب بالمعاصى ، والصلة بينه وبينها فالقلب عنده بمنزلة الكف ، فإنه يرى أن الرجل إذا أذنب قبض قلبه كما يقبض الكف . وهو ما تعنيه الآية فى قوله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) .

وفى قول آخر ، إن الذنوب تحيط بالقلوب كما تقام الحائط فتزداد ارتفاعا . وعندما تقترن القلوب بالمحلة يقول (إن العبد إذا أقبل على الله بقلبه ، أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه) (٣) .

وتجذبه الآية التى تتحدث عن النفس المطمئنة ، فهى عنده النفس التى أيقنت أن الله ربها ، وخضعت لأمره ، وعملت على طاعته (٤ .

---

(١) و (٢) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٢٧

(٣) ن م ص ٢٢٨

(٤) ن م والصفحة

ويبدو إن حال المسلمين قد تغير فى عصره مما أدهشه فأخذ يصيح فى المسلمين بمكة (ذهب العلماء فما بقى إلا المتعلمون ، وما المجتهد فيكم إلا كاللاعب فيمن كان قبلكم) (١) .

ومن العجب أننا نقرأ له ما يشبه التفسير الرمزى الذى لا يتقيد فيه بشرح النص ، وإنما يعبر عنه بمعنى (عملك فأصلح) . وليس الفضل الذى تشير إليه الآية (واسألوا الله من فضله) الفضل فى الدنيا والآخرة معا ولكنه يقتصر فقط على الثانية فإنه (ليس من عرض الدنيا) (٢) .

وهو يغذى نظرية العبادة بالآيات القرآنية ، مؤكدا ضرورة عبادة الله مهما كانت العوائق ، أو الشواغل بأمور الدنيا . ويضرب لذلك مثلا بثلاثة : للغنى والعبد والمريض والمملوك .

فإذا ما اعتذر الغنى بكثرة أمواله التى شغلته عن العبادة ، ذكره الله تعالى بسليمان عليه السلام ، الذى كان أكثر مالا ، ولكنه لم يشغل عن عبادة ربه .

أما العبد الذى يحاول أن يبرر ترك العبادة بسبب أربابه الذين ملكوه وشغلوه عن العبادة ، فلا يلبث أن تدحض حجته عندما يذكر بيوسف عليه السلام ، الذى كان أشد منه رقا وعبودية .

ويؤتى بالمريض ، فيسأل عن سبب انصرافه عن العبادة ، فيبرره بالمرض فيضرب الله المثل بأيوب عليه السلام الذى كان أشد ضرا وبلاء ومرضاً وكان يعبد ربه .

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٢٨

(٢) نفس والصفحة

وهكذا يؤكد مجاهد نظرية العبادة التي لم يخلق الإنسان إلا لها (١)
وكانت نهاية حياته وكأنها تؤكد اقتران النظر بالعمل ، فقد مات مجاهد وهو ساجد ! ! (٢) .

أما رأيه في الفقهاء ، فإنه يكاد يتشابه مع رأي الحسن البصري فبينما يرى الثاني أن الفقيه الحق هو الزاهد ، يأتي التعريف للفقيه على لسان مجاهد بقوله (الفقيه من يخالف الله وإن قل علمه ، والجاهل من عصى الله وإن كثر علمه) (٣) . وها هو يتجه — مثلما فعل الحسن — إلى التعبير بالمضمون الداخلي دون مراعاة لما اصطلح عليه في الظاهر ، كما يبدو من تعريفه أحد مظاهر النقد للفقهاء في عصره .

وكان أثناء حياته يصطحب ابن عمر لإعجابه به حيث يرى أنه شابه أباه في الفضل فيقول (صحبت ابن عمر وأنا أريد أخدمه فكان يخدمني) (٤) .

ب ـ عطاء بن أبي رباح (١١٤ هـ = ٧٣٢ م) :

ولمجاهد زميل ثان في التفسير هو عطاء بن أبي رباح ، فإذا انضم إليهم زميل ثالث هو طاووس ، أصبح هؤلاء الثلاثة هم الوحيدون الذين وصفوا بأنهم يريدون بالعلم وجه الله وحده (٥) .

كان عطاء مفتيا ينفرد عن باقي المفتين لأنه (كان في مجلسه ذكر الله

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٢٦
(٢) ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ ٥ ص ٤٦٧
(٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٢٨
(٤) ن٠م ٢٢٦
(٥) ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ ٥ ص ٤٦٨

لا يفتر ، وهم يخوضون ، فان تكلم أو سئل عن شيء أحسن الجواب) (١) .

ولا يقتصر الذكر هنـــا عن الأداء باللسان فحسب ، لأنه يرى أن ذكر الله أشمل وأعم من هذه الدائرة الضيقة ، فإن مجلس الذكر يعنى عنده (مجالس الحلال والحرام ، كيف تصلى ؟ . كيف تصوم ؟ ، كيف تنكح وتطلق ونبيـــع وتشـترى ؟) (٢) . فليس إذن هـو الذكر باللفظ المفـرد (الله . . الله) الذى يجعله الغزالى فيما بعد أحد المسالك المؤدية إلى الكشف الصوفى !!

وروى عنه عدد كبير من التابعين من طبقـــة الزهرى ، وعمرو بن دينار والشيوخ الكبار مثل أيوب السختيانى وغيرهم ، أى أنه كان أيضاً من رواد الحياة الروحية ، لأنه أحاط فى آرائه بالمعانى التى خاض فيها الزهاد .

نقل عنه الإمام أحمد بإسناده من وصفه (ما رأيت مثل عطاء قط ، وما رأيت على عطاء قميصاً قط ، ولا رأيت عليه ثوبا يساوى خمسة دراهم) (٣) .

وأعجب الحسن البصرى عندما سمع قول عطاء (ما قال العبد يارب ، يارب ثلاث مرات ، إلا نظر إليه الله) ووجد تأييداً لرأيه من واقع الآية (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا) إلى قوله تعالى (فاستجاب لهم ربهم) (٤) .

ويتفق عطاء فى تفسيره للذكر مع تفسير مجاهد الذى أوردناه آنفا فى قوله تعالى (لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) .

---

١ - ابن سعد / الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٤٦٩

٢ - ابن كثير / البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠٧

٣ - [illegible]

فقد فسر الآية بأن التجارة لاتصرفهم عن أداء حقوق الله التى فرضها عليهم، إذ يؤدونها في أوقاتها .

ومن المسائل التى تحدث فيها عن نطاق حياة الزهد ومبادىء الأخلاق ، أنه صرح بكراهيته لرؤية الوسادة فى منزله لأنها تدعوه إلى النوم (١) ، فهو يفضل القيام ، ولا يحب من يلبس ثوب الشهرة .

ويبدو انه رأى التوسع فى لباس الزهد فأنكره .

أما عن أخلاقياته ، فهو ينصح بالكف عن الحسد فيقول (ولا تغبطن ذا نعمة بما هو فيه ، فإنك لا تدرى إلى ماذا يصير بعد الموت) (٢) .

ولما كان عطاء قد عاصر الفترة الحرجة فى التاريخ العقائدى والسياسى للمسلمين على أثر مقتل عثمان ، ذلك لأنه عقل مقتله (٣) ، فقد نصح الأمة وأرشدها ، ولم يلبس لباس الزهاد المتكفين بعيدا عن الأحداث .

وينقل لنا ابن كثير نضاله عن مذهب السلف حيث يقــــول ، وهو يطوف بالبيت ليعلن الموقف الصحيح من باقى الاتجاهات المعاصرة له، (امسكوا، احفظوا عنى خمس : القدر خيره وشره ، حلوه ومره من الله عز وجل ، وليس بالعبادة فيه مشيئة ولا تفويض. وأهل قبلتنا مؤمنون حرام دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ، وقتال الفئة الباغية بالأيدى والنعال والسلاح، والشهادة على الخوارج بالضلالة)(٤)

ولما انفجرت المشاكل التى أثارها الشيعة والخوارج والمعتزلة بالكوفة ، أدلى

---

١ — ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٤٠٨

٢ — ن. م ٣٠٩

٣ — ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ ٥ ص ٤٦٨

٤ — ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٠٨

برأيه فيما دار من مسائل . فقد دار حوار بينه وبين الإمام أبي حنيفة النعمان ، عندما سأله الفقيه عن بعض المسائل ، ففضل أن يستفسر منه عن بلده أولا ، ولما عرف أنه من الكوفة سأله :

(أنت من أهل القرية الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعا ؟) ، وعاد يسأل أبا حنيفة مرة أخرى عن الجماعة التي ينتمي إليها ، فأجابه (عن لا يسب السلف ، ويؤمن بالقدر ، ولا يكفر أحدا من أهل القبلة بذنب) فارتاح لإجابته .

وليست هذه القصة من قبل التعصب الاقليمي الذي نعرفه بين أهل المدن، لأن عطاء كان يعيب على أهل الكوفة حينذاك الاختلاف والفرقة، ولكنه اطمأن عندما أعلن أبو حنيفة أنه يعتنق المبادىء السليمة كما تلقاها من السلف ، فلم يعد يهتم بعدها من أي بلد هو ، بل قال له (عرفت فالزم) (١) .

وهذا يدعونا إلى الانتقال إلى مدرسة الكوفة، لنستطلع آراء شيوخها ، لنرى كيف تمسكوا بالاتجاه السلفي ، ولم يخوضوا مع الخائضين .

ثالثا ــ مدرسة الكوفه

إذا ما قيل إن أهل البصرة مجتهدون في العبادات والأحوال ، فإن المعروف أيضا أن جيرانهم أهل الكوفة اتسموا بالاجتهاد في مسائل القضاء والإمارة (٢) .

لهذا يقال (فقه كوفي ، وعبادة بصرية) لكي يعبر عن الصبغة لكل من المدينتين (٣) .

---

١ ــ ابن كثير / البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠٧

٢ ــ ابن تيمية / رسالة الصوفية والفقراء ص ٢١-٢٢

٣ ــ ن . م ٩

ولكنا لاندهش إذا تأملنا حكم ماسينيون الذى يشيد بالاتجاه الكوفى ، سواء فى الفقه أو الكتابة أو الأدب ، لأن هذا دأبه - وربما هناك كثيرون من المتصدين لدراسات الاستشراق غيره - يحشون فى الاتجاهات التى تبعد كثيرا أو قليلا عن الاسلام الصحيح : اسلام السلف .

أما مبعث دهشتنا الحقة ، فليست إشادة ماسينيون بالنزعات بالكوفة لأن أمرها مفهوم كما أسلفنا ، ولكن لأنه يصرح بأنه يعتمد عليها فى تأسيس أحكامه التى يشيد بها بالاتجاهات الكوفية ، مع أنه يقر بأن (المذهب الكوفى يبحث عن أوضاع الشواذ) (١) ! !

وربما كان مبعث الإشادة بالكوفة ، والحماس الزائد الذى لم يستطع ماسينيون إخفاءه عند حديثه عن هذه المدينة ، موطن البهاليل والصوفية كما يقول ، قد يرجع إلى محاولته البرهنة على أصالة شطحات الحلاج ،

إنه يلح على محاولة إضفاء طابع الأصالة وإيجاد تلك المادة الموجدة للتصور للتصور والابتكار) وصبغ المدينة بها حيث ظهر الحلاج (الذى فاق جميع النساك والزهاد الأسبقين(٢) . وسنثبت خطأ هذا الحكم الذى لايخلو من الهوى .

وقد طغى على العالم ماسينيون هـذا الاتجاه فاعتبر المذهب الكوفى منفردا بالابداع فى التصور فى كافة الأدوار الثقافية العربية(٣) . ومن الناحية السياسية، يصف الكوفة بأنها كانت شرعية إلى أقصى درجاتها(٤) متجاهلا الحقيقة التاريخية، وهى أن الكوفة كانت مصدر الارجاء والتشيع حيث انتشر منها إلى غيرها (٥) .

---

١ - ماسينيون / خطط الكوفة ص ١٣ .

٢ - ن . م ١٤   ٣ - ن . م ١٣   ٤ - ن . م ١٤

٥ - ابن تيمية / مذهب أهل المدينة ص ٢١

وكان ابن تيمية أكثر استقصاء فى بحثه عن الظروف الثقافية والسياسية للكوفة ، إذ فرق بين الكوفيين قبل مقتل عثمان وبعده .

وفى مجال مقارنته بين أهل المدينة والكوفة ، يسجل الوقائع التاريخية ، وتتلخص فى أن أهل الكوفة — قبل الفتنة — كانوا يقرون لأهل المدينة بالأفضلية (فلما قتل عثمان ، وتفرقت الأمة وصاروا شيعا ظهر من أهل الكوفة من يساوى بعلماء أهل الكوفة علماء أهل المدينة) (١) .

كذلك يذهب إلى أن أغلب الأحاديث المكذوبة ظهرت بالكوفة ، وكان مصدرها الشيعة بوجه خاص (٢) . غير أن ذلك لا ينفى وجود الثقات الذين لا ريب فى صدقهم أمثال أصحاب عبد الله بن مسعود (٣) .

وقد برز من شيوخ الزهد بالكوفة ، أويس القرنى ، وسعيد بن جبير ، ومسروق بن الأجدع ، وسفيان الثورى ، كما سيأتى :

١ — أويس القرنى :

يسميه الشاطبى (سيد العباد بعد الصحابة (٤) لما عرف عنه من كثرة العبادة . ويصفه الذهبى بأنه (القدوة الزاهد سيد التابعين فى زمانه) (٥) .

كما اشتهر القرنى بالزهد والعزلة ، ولما سئل عن السبب فى انقطاعه عن أصحابه أجاب بأنه (العرى) (٦) ، ولهذا كان ابن حنبل يضرب به المثل فى الزهد

---

١ — ابن تيمية / مذهب أهل المدينة ص ٣٠

٢ — ن ٠ م ٣١

٣ — ن ٠ م ٣٢

٤ — الشاطبى / الاعتصام ج ١ ص ٢١

٥ — الذهبى / سير أعلام النبلاء مجلد ٤ ق ١ ورقة ١٢٥ مخطوط

٦ — ابن سعد / الطبقات ج ٦ ص ١٦٢

فيقول (لا زهد إلا زهد أويس ، بلغ به العرى حتى قعد فى قوصره (١) .

ولكننا لا نلبث أن نجد عن صاحب الطبقات الكبرى) تعليلا آخر لتفضيله الوحدة . سنعود إليه مرة أخرى .

ويروى الحديث عنه بصيغ مختلفة — أحدها قول النبي صلى الله عليه وسلم (خليلى من هـــذه الأمة أويس القرنى وإنه لو أقسم على الله لأبره (٢) . أما الحديث الذى ينقله الذهبي فنصه (إن خير التابعين رجل يقال له أويس وله والدة ، وكان به بياض ، فروه فليستغفر لكم) (٣) . لهذا فقد سعى عمر بن الخطاب إلى لقائه ، وجرى بينهما حديث طويل ، تأكد من خلاله الفاروق أنه هو المعنى بالحديث ، وسأله أن يستغفر له . ففعل .

ولكن ابن حزم استبعد الحديث النبوى المروى فى وصف أويس القرنى (٤).

والظاهر أنه ليس وحده الذى ذهب إلى ذلك ، لأن ابن عساكر يذكر أن قوما من المحدثين أنكروا أويسا بالكلية ، ويعلق على ذلك بقوله (وأمر أويس مشهور ، فلا معنى لهذا القول) (٥) .

---

١ — المكى / قوت القلوب ج ٢ ص ١٩٥

٢ — نص الحديث من للطبقات ج ٦ ص ١٦٣ / ١٦٤

٣ — الذهبي / سير أعلام النبلاء مجلد ٤ ق ١ ورقة ١٣٥ مخطوط (وينظر الصيغ المختلفة للحديث بكتابه (ميزان الاعتدال ج ١ ص ١٢٩) .

٤ — ابن حـــزم / الفصل ج ٤ ص ١١٧ يقول (والحديث المأثور فى أويس القرنى لا يصح لأن مداره على أسيد بن جابر وليس بالقوى) .

٥ — ابن عساكر / التاريخ الكبير ج ٣ ص ١٧٤ . ويقول الذهبى فى ميزان الاعتدال (ولولا أن البخارى ذكر أويسا فى الضعفاء لما ذكرته أصلا، فانه من أولياء الله الصادقين ، وما روى الرجل شيئا فيضعف أو يوثق من أجله) ج ١ ص ١٢٩ .

أما عن تفضيله الوحدة، فإنه يمكن تعليله بكراهته أن يكون محدثا، أو قاضيا، أو مفتيا (١)، أى أنه سلك نفس الطريق الذى سلكه بعض الصحابة، حيث خشوا مسئولية هذه المواضيع الجسيمة بعد النبى صلى الله عليه وسلم . فهو يسمع من كتاب الله بعض الآيات فيغشى عليه، فلما أفاق كان يردد (الوحدة أحب إلى) (٢).

وفى حديث طويل بينه وبين هرم بن حيان نفى أنه سمع من الرسول شيئا، ولكنه سمع ممن سمع منه . فلما طلب منه هرم بن حيان أن يحدثه قال (إنى أكره أن أفتح على نفسى هذا الباب ، أن أكون قاضيا ، أو مفتيا أو محدثا ، إن فى النفس شاغلا (٣) .

إنه فى شغل عن نفسه بالخشية من الله، والعمل من أجله ، والتفكير المتواصل فى مصيره بعد الموت . فبعد أن يتلو الآيات (حم ، والكتاب المبين ، إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين . . إلى قوله (إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم ــ الدخان ٤٢) خر مغشيا عليه حتى ظن هرم بن حيان أنه قد مات . فلما أفاق آخر الأمر قال (إنى لم أزل فى غم ماكنت مع هؤلاء الناس . الوحدة أحب إلى) (٤) .

ومن المحتمل أنه اختار الوحدة بعد أن تعب مما لاقاه من الناس على أثر أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، حيث يقول (إن قيام المؤمن بأمر الله لم يبق له صديقا) (٥) . وهنا يذكرنا بموقف مشابه لأبى ذر الغفارى الذى يبدو أنه هو

---

١ ــ ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ١٦٥

٢ ــ ن٠م والصفحة

٣ ــ ابن حنبل / الزهد ص ٣٤٥

٤ ــ ابن حنبل / الزهد ص ٣٤٦

٥ ــ ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ١٦٥

الآخر لم يلق آذانا صاغية . فكان يشكو مما يلقاه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيقول (حتى ما ترك لى الحق صديقاً) (١) .

وقد اتخذ التسترى فيما بعد من أويس اليمنى مثالا يحتذى فى مقام الصبر ، إذ أنه ابتلى بمختلف ألوان الاضطهـــاد ولاقى الأمرين ، وكان يشكو ممن يأمرهم بالمعروف ، فيشتمون عرضه ، ويجدون من الفاسقين أعوانا حتى (والله لقد قذفونى بالعظائم) (٢)

وبالرغم من ذلك ، فإنه عندما سنحت له الفرصة لكى يطلب الحماية من عمر بن الخطاب أثناء زيارته له فى الكوفة لم ينتهزها ، بل حينما سأله الخليفة أن يكتب إلى عامل الكوفه ليستوصى به رفض وقال (أكون فى غبر الناس أحب إلى) (٣)

وعاش أويس مستغرقا فى العبادة ، فهو فى نهاره دائم الصلاة ، وفى ليلة قائم حتى يصبح ، يقول (بلغنى أن لله عباداً سجوداً أبداً) (٤) وربما يقصد بذلك التشبه بالملائكة . لاننا نقرأ له فى نص آخر (لأعبدن الله فى الأرض كما تعبده الملائكة فى السماء) (٥) .

ورآه الربيع بن خيثم ، فحاول أن يحدثه فى أمر من أموره بعد صلاة الصبح ، فوجده مشغولا بالتسبيح . فانتظر إلى صلاة الظهر فوجده كذلك أيضاً واستمر به الحال بين صلاة وتسبيح إلى أن استمر فى الصلاة بعـــد العشاء إلى صباح اليوم التالى ، دون تغفل له عين إلا بعد صلاة الصبح . ومع هذا ، فقد

---

(١) ابن سعد / الطبقات ج ٤ ص ٢٣٦

(٢) التسترى / تفسير ص ١٩٥ والطبقات ج ٦ ص ١٦٥

(٣) ابن سعد / الطبقات ج ٦ ص ١٦٤

(٤) الشاطبى / الاعتصام ج ٢ ص ٣٧

(٥) ابن عساكر / التاريخ ج ٣ ص ١٧٤

كره هذه الاغفاءة الخاطفة وأنب نفسه عليها ، داعياً ربه (اللهم إنى أعوذ بك من عين نوامة وبطن لا تشبع) (١) !!

ولهذا يعده الشاطبى ممن يأخذ بما هو شاق فى الدوام . ومع هذا لا يعتبر مخالفاً للسنة ، بل إنه من السابقين الأولين ، ألم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يقوم الليل حتى تتورم قدماه ؟

إن قيام الرسول بالليل لم يمنعه من الجهاد . وهكذا فعل أويس القرنى ، فإن الاختلاف فى تاريخ وفاته يرجع إلى تعدد الأخبار فى سبب موته ، فمن المحتمل أنه قتل فى موقعة صفين ، أو بعد خروجه غازيا إلى ثغر أرمينية حيث مرض ومات . ويرجح الحافظ ابن عساكر أنه قتل بصفين (٢) .

ونستخلص مما أورده مؤرخنا أمرين : أولهما أن عزلة أويس القرنى لم تمنعه من اشتراكه مع المسلمين حينما دعا داعى الجهاد . فالثابت أنه خرج غازيا وإن لم يثبت أنه قتل بأرمينية . والأمر الثانى ، وهو انفعال زاهدنا بالأحداث الكبرى فى الحياة السياسية ، كالخلاف بين على ومعاوية واشتراكه بنفسه فى القتال تحت راية الأول — إذا ما رجحنا مقتله فى موقعة صفين ، وهو ما يذكره الذهبى فى تأريخه له (فاستشهد بصفين فنظروا فإذا عليه نيف وأربعون جراحة) (٣) . وقد رأى أن وقوفه إلى جانب على يعنى لزومه الجماعة ، لأنه كان ينصح هرم بن حيان بقوله (لا تفارق الجماعة فتفارق دينك) (٤) .

---

(١) الشاطبى / الاعتصام جـ ٢ ص ١٢٨ وابن عساكر / التاريخ جـ ٣ ص ١٧٣

(٢) ابن عساكر / التاريخ الكبير جـ ٣ ص ١٧٤

(٣) الذهبى / ميزان الاعتدال جـ ١ ص ١٣٠

(٤) ابن عساكر / جـ ٣ ص ١٧٣

إن هذه السيرة الفريدة للتابعي الزاهد ، تدلنا على مدى تمسكه بطريقة الاقتداء، وإن كان قد سلك مسلكا خاصا في عزلته للأسباب التي قدمناها ، إلا أنها لم تنأى به عن (الجماعة) لم والأغلب أنه فهم فكرة الجماعة على وجهها الصحيح ، فليس الانتماء إليها يحتم بالضرورة اختلاطه بالمجتمع والناس ، ولكنها تعني عدم الخروج عن رأي الأغلبية أو إجماعها . فلما رأى الكوفة تناصر عليا ووجد الحق معه أيده وناصره بالسيف متخذياً عن عزلته . أليس من الخطأ هنا تصويره بالعابد الفاني الذي زال عقله ، كما يحاول الكلاباذي أن يفعل ؟ لقد وضعه ضمن من (يرى بعين العتاهة وزوال العقل لزوال تميزه في مرافق نفسه ، وطلب حظوظه ، وهو على ذلك محفوظ في وظائف الحق عليه) (١)

ثم إنه في وحدته كان من فرط إحساسه بالانتماء للجماعة ، يود لو شارك في إسعاد المسلمين جميعاً فيوفر لهم المأكل والملبس !! فهو في دعائه وتوسله إلى الله ، يخاطب ربه بكلمات عميقة الدلالة فيقول (اللهم إني أعتذر اليك اليوم من كل كبد جائعة . وبدن عاري ، فإنه ليس في بيتي من الطعام إلا ما في بطني ، وليس شيء من الدنيا إلا ما على ظهري) (٢) !! ولم يكن على ظهره حينذاك إلا خرقة . !

٢ - سعيد بن جبير (٩٤ هـ = ٧١٢ م) :

قلنا إننا لن نقتصر في بحثنا على الزهاد التقليديين الذين حفلت بهم المصادر ، ذلك لأن هناك من الأئمة من غلبت عليهم شهرتهم في مجالات الحديث . ولكنهم في الواقع ينضمون إلى الفريق الذي سلك طريق الحياة الروحية ، إما بالحياة

---

(١) الكلاباذي / التعرف .. ص ٣١

(٢) تفسير التستري ص ١٩٤

التى اختاروها لأنفسهم ، أو لأقوالهم التى يمكن استخراج نظرياتهم منها .

ومن هؤلاء الأئمة : سعيد بن جبير الذى قتله الحجاج لخروجه ضد حكام بنى أمية مع ابن الأشعث .

كان تلميذا لابن عباس ، وسرعان ما بلغ مرتبة شيخه .

وبعد ما عمى الشيخ ، أتاه أهل الكوفة يسألونه ، فأحالهم إلى تلميذه سعيد بن جبير ، وتعجب كيف يسألونه وفيهم سعيد ! ! (١) .

ولما قتل الحسين فى موقعة كربلاء . وجد السلوى فى قراءة القرآن ، يداوم عليه ولا يتركه إلا بسبب المرض أو السفر . وكان من أوائل القصاص فى الكوفة يقضى كل يوم مرتين بعد صلاة الفجر وبعد العصر (٢) . (ويقال إنه كان يقرأ القرآن فى الصلاة بين المغرب والعشاء ختمة تامة) (٣) .

وكان ابن جبير يختلف فى الرأى مع الحسن البصرى لأن إمام البصرة كان يرى التقية فى الإسلام ، بينما كان سعيد يرى أنه لا تقية فى الإسلام (٤) .

وخرج فى ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج كما قدمنا ، فلما انهزم أصحاب ابن الأشعث هرب سعيد من الكوفة ، وذهب إلى مكة .

ولم يكن الدافع سياسيا بقدر ماهو دينى ، لأنه كان يحض الناس على قتال بنى أمية بسبب (جورهم فى الحكم ، وخروجهم من الدين ، وتجبرهم على عباد الله ،

---

(١) ابن سعد الطبقات جـ ٦ ص ٢٥٧

(٢) ن . م ٢٥٩

(٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٩٨

(٤) ابن سعد /الطبقات جـ ٦ ص ٢٦٣

وأماتتهم الصلاة ، واستذلالهم المسلمين) (١) .

ولما أتت النتيجة على غير ما يبغى ، فضل الحياة فى مكة بجوار الكعبة ، وكان يفق الناس هناك راضيا بقضاء الله . وأخذ يتكلم عن الصبر ، والشكر ، والذكر ، والخشية وكأنه يفضل أن يعيش حياة الزهاد بعد أن أدى دوره تنفيذا لمبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقد حرص على دفع القهر عن المسلمين (وأبى الله أن يكون إلا ما أراد) (٢) .

ولما سألوه عن أيهما أفضل : الشكر أم الصبر ؟ أجاب (الصبر والعافية أحب إلى) (٣) .

ونقرأ له كلمات جامعة سبق بها الزهاد بعده فيما تكلموا فيه . فقد ضمن رأيه أن الخشية النافعة هى التى تحول بين الصبر وبين المعصية وتحمله على طاعة الله . وأعبد الناس عنده الرجل المقترف للذنوب ، فاذا ما تذكر ذنبه احتقر عمله الصالح . وينفرد فى تعريفه للذكر إذ يقول (الذكر طاعة الله ، فمن أطاع الله فقد ذكره ، ومن لم يطعه فليس بذاكر له وإن كثر منه التسبيح وتلاوة القرآن) (٤) .

وقد ضمه الامام أحمد ضمن الزاهدين فى كتابه (الزهد) وأورد له آراء عميقة المعنى فى الحياة الروحية .

ولئن كان الحسن البصرى لم يرض بحركة الخروج مع ابن الأشعث إلا أننا

---

١ – ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٢٦٥

٢ – ن . م ص ٢٦٢

٣ – ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٢٦٢

٤ – ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٩٨

نحس صدى الأسف العميق فى نفس إمام البصرة لأن ابن جبير لم يستطع الاختفاء بمكة (١) .

ولما سمع الحسن بمقتل سعيد بن جبير ، أفرغ طاقته الوجدانية كلها فى دعاء مخلص ، قال (اللهم يا قاصم الجبابرة اقسم الحجاج) (٢) . واستجاب الله له سريعا فقصم الحجاج بعدها ،

ولكن ، بعد أن قتل سعيد (وماعلى ظهر الأرض رجل لايحتاج إلى سعيد) (٣)، وهذه شهادة الحسن البصرى .

٢ - مسروق بن الأجدع (٦٣هـ = ٦٨٢ م) :

كان مسروق (قريع القراء وسيدهم) (٤) ، فوصفوه بأنه سيد قراء أهل الكوفة (٥) .

كره له عمر بن الخطاب اسم ، الأجدع ، لأن الأجدع يعنى الشيطان فسماه عبد الرحمن (٦) .

واشترك مسروق فى معركة القادسية وجرح فيها فشلت يده وأصابته ضربة رأسه (٧) . فهو فى زمرة القراء المؤثرين فى حياة المسلمين قبل أن تتحول حالتهم إلى ما تنقلها لنا المصادر فى شكل عديد من صور النقد والتجريح لما تقدم بهم

---

١ - ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٢٦٦

٢ - ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٩٨

٣ - ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٢٦٦

٤ - ن. م . ص ٨٠

٥ - ابن حنبل / الزهد ص ٣٥٠

٦ - ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٧٦

٧ - ن. م ص ٧٧

الزمن وبعد العهد بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ كان قاضيا أيضا ولكنه لم يأخذ عليه أجراً (١) .

وظل مسروق من القراء الذين فضلوا حياة الروح وتركوا لنا صورا جميلة لهذه الحياة .

كان لا يعبأ إذا شكت له امرأته نفاد الطعام لعياله ، فيجيبها مبتسما (والله ليأتينهم الله برزق) (٢) . يقول هذه العبارة وهو واثق ، بل لا يصل إلى هذه الدرجة من الثقة إلا عندما يسمع أنه ليس عندهم طعام ولا دراهم (٣) .

ولقد لقى سعيد بن جبير . ويبدو أنهما استعرضا معا أحوال المسلمين حينذاك ، ولعل أشد ما أثر فى نفس مسروق هو محاربة المسلمين بعضهم بعضا فى معركة صفين ، إذ يذكر ابن سعد أنه خطب فى الناس هناك وذكرهم بآيات الله عز وجل التى تنهاهم عن قتال بعضهم بعضا وحزن لأنهم لم ينصتوا له (فقد نزل به صفيه من أهل السماء ، على صفيه من أهل الأرض ينتهوا) (٤)

ولما لقى سعيد جبير ، قال له (يا أبا سعيد ما من الدنيا شىء آسى عليه إلا السجود لله عز وجل) (٥) . وفى نص آخر (يا سعيد ، ما بقى شىء يرغب فيه إلا أن نعفر وجوهنا فى هذا التراب) (٦) .

---

١ ـ ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٨٢

٢ ـ ن . م ص ٧٩

٣ ـ ابن حنبل / الزهد ص ٣٤٩

٤ ـ ابن سعد /الطبقات جـ ٦ ص ٧٨

٥ ـ ابن حنبل /الزهد ص ٣٤٩

٦ ـ ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٨٠

ومع هذا ، فهو يغبط المؤمن فى قبره الذى آمن العذاب واستراح من الدنيا (١) .

أما عن تعبده ، فإنه كان يكثر من الصلاة حتى تتورم قدماه ، فتبكى امرأته عندما تراه يصنع بنفسه (٢) .

والدنيا عنده كالقمامة ـ هذا الوصف الذى نراه يتكرر على لسان الزهاد ـ فيشير إليها ، ويضع لها وصفا جامعا يقول فيه (هذه الدنيا أكلوها فأفنوها ، لبسوها فأبلوها ، ركبوها فأنضوها، سفكوا فيها دماءهم واستحلوا فيها محارمهم، وقطعوا فيها أرحامهم) (٣) .

وهو يرى الهدف الحقيقى والنهائى من العلم هو خشية الله تعالى (٤) أما الجاهل فهو الرجل الذى يعجب بعمله (٥) وكان يحذر المسلمين من لقاء الله فيقول (إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فيأخذ حذره من الله سبحانه) (٦) .

ومات مسروق ، فلم يترك ثمن كفن (٧) !!

٤ ـ الربيع بن خيثم

يصفه ابن حبان فيقول (من عباد أهل الكوفة وزهادهم ، والمواظبين منهم على الورع الخفى والعبادة الدائمة) (٨) .

---

١ ـ ابن حنبل / الزهد ص ٣٥٠

٢ ـ ن. م والصفحة

٣ ـ ابن سعد / الطبقات ج ٦ ص ٨٢

٤ ـ ن . م ص ٨١

٥ ـ ابن حنبل / الزهد ص ٣٤٩

٦ ـ ن . م ص ٣٥٠

٧ ـ ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٨٣

٨ ـ ابن حبان / مشاهير علماء الأمصار ص ٩٩ ـ ١٠٠

ولعل إشارة ابن حبان التي يذكر فيها عبارة الورع الخفي قد إستقاها من دراسته لحياة الربيع ، فهي في الواقع نموذج من العباد الذين عاشوا في رحاب المعاني العميقة للكتاب والسنة ، فكان كثيرا ما يردد كلمات السرائر وأراد تطبيقها حرفيا ، ونجح في ذلك إلى أبعد حد حتى وصف بأنه من المخبتين (١) .

أراد الربيع تحقيق الحياة الجادة التي يكون العمل فيها لله تعالى وحده لأن كل (مالا يراد به وجه الله يضمحل) (٢)، ولهذا كلما أكثرت ابنته في استئذانه للذهاب لتلعب ، أخذ يردد عليها قوله (اذهبي فقولي خيراً) ولما اشترك بعض أصحابه في الاستئذان لها ملحين عليه أجابهم (لا أحب أن يكتب علي اليوم أني أمرت باللعب) (٣) !!

ونلاحظ اتفاقه مع غيره في رغبته تحقيق هيمنة الكتاب على أقوال المسلمين وأفعالهم ، وأن يهدفوا إلى تحقيق العبودية لله عز وجل وحده . فالكلام في رأيه ليس له من فائدة إلا إذا اقترن بالتسبيح والتكبير والحمد لله وحده وقراءة القرآن ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ومسألة الخير والاستعاذة من الشر) (٤) .

وسنجد اتفاقا بين هذه النظرية - نظرية هيمنة كتاب الله تعالى على المسلمين عند ابن تيمية مدعمة بالأسانيد والأدلة من القرآن والحديث . كذلك يذكرنا الربيع بنصيحة ابن تيمية الذي كان يوصي فيها المسلمين بقراءة أواخر سورة الأنعام (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم / آية ١٥١) .. إلى أن بلغ (لعلكم تتقون / آية ١٥٣) .

---

١ — ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ١٨٣

٢ — ن . م ص ١٨٦   ٣ — ن . م ص ١٨٨

٤ — ن . م ص ١٨٥

أننا نفسر هذا الترابط والالتحام الشديدين بين اثنين : أحدهما عاش فى عصر الصحابة والتابعين، والثانى فى القرن الثامن الهجرى، بأن النظر فى النصوص لخلق تواردا فى الخواطر يتشابه فى خطوطه العريضة - إن لم يتطابق - مهما بعد الزمن . وربما ينجم الاختلاف بسبب مؤثرات العصور التى عاش فيها شيوخ المدرسة السلفية .

وكان الربيع بن خيثم ينصح المسلمين بأن يطبقوا هذه القواعد فى حياتهم أيضا ، فيعملون العمل الصالح ولا يقولوا إلا الخير لأن الحسنات يذهبن السيئات، وأن يكثروا من ذكر الموت (١) .

وتتعدد أمامه المقارنات بين المسلمين السابقين وبين معاصريه فيبكى حتى تبتل لحيته ثم يقول (أدركنا قوما كنا فى جنوبهم لصوصا) (٢) !!

وكان ربيع يتمثل النار ويخشاها أيضا ، ويبدو أن اتجاه الخوف قد سرى إلى الكوفة من شيوخ البصرة - وفى مقدمتهم الحسن البصرى - فنرى الربيع يمر بالحدادين ، فاذا نظر إلى الكير وما فيه خر (٣) ، ويصيح فى المسلمين ليعتنوا بسرائرهم قبل علانيتهم ، فالسرائر خافية عن الناس ولكنها بواد لله ، وينصحهم بالتماس دواء السرائر فى كلمتين هما (أن تتوب ثم لا تعود) (٤)

ولما بلغه مقتل الحسين ، لم يجد تعليقا إلا من آيات الله نفسها فأخذ يتلو من الكتاب (اللهم فاطر السموات والارض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) (٥)

---

١ - ابن سعد / الطبقات ج ٦ ص ١٨٤

٢ - ن: م ص ١٨٩   ٣ - ن . م ص ١٨٨

٤ - ن.م ص ١٨٥   ٥ - ن : م ص ١٩٠

وقد مر بنا حضه على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيقول فى هذا المعنى أيضاً (أكره أن أرى شيئاً استشهد ، أو أرى حاملة فلا أعينها ، أو أرى مظلماً فلا أنصره) (١) .

فلم تكن هذه الأقوال إلا تطبيقا لما أتت به النصوص التى فهمها ، وكان ينصح المسلمين بالنظر فيها ودراستها . إذ نقرأ له فى سياق نصوص أخرى نصائحه للمسلمين بالالحاح فى دراسة الآيات والأحاديث والاجتهاد فى استيعابها بمثل قوله (لا كل ما أنزل على محمد أدركتم ، ولا كل ما تقرؤون تدرون ماهو)(٢). وكان رأيه فى الحديث الذى يدل على عمق الخبرة به (إن من الحديث حديثاً له ضوء كضوء النهار تعرفه ، وإن من الحديث حديثا له ظلمة كظلمة الليل تنكره) (٣) .

ويذكر ابن سعد أن الربيع مات بالكوفة فى ولاية عبيد الله بن زياد عليها (٤) .

٥ - سفيان الثورى (١٦١ هـ = ٧٧٧م) :

إنه أحد زهاد الكوفة الأعلام الذى ساد الناس بالورع والعلم ، ووضع فى مصاف ابن عباس فى زمانه والشعبى فى زمانه . وكان يلقب بأمير المؤمنين فى الحديث (٥) . كما وصفه ابن سعد بأنه كان (ثقة ، مأمونا ثبتا ، كثير ، الحديث،

---

١ - ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ ٦ ص ١٨٣

٢ - ن٠ م ١٨٥

٣ - ن٠ م ٤٨٦

٤ - ن٠ م ١٩٣

٥ - ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٣٤

حجة) (١) . وقد ضرب به المثل فى الحفظ فيقول عن نفسه (إنى لأمر بالحائك يتغنى فأسد أذنى مخافة أن أحفظ ما يقول) (٢) .

لهذا ، يصبح مثار اهتمام الباحث أن ينقب عن دواعى شهرته كزاهد مع أنه من حفاظ الحديث الكبار الذى دعا المسلمين إلى رعاية الحديث ، والحرص عليه وحضهم على حفظه ، لا للتعلم والحفظ فحسب ، ولكن العمل به وتنفيذه ثم نشره بين الآخرين . وهذا يفسر لنا التكوين العقلى لزهاد السلف ، فإنهم أهل حديث أولا ، ثم أصحاب سلوك ثانيا ، بمعنى أنهم وضعوا القواعد السليمة للعلم والسلوك وجعلوا من أنفسهم القدوة للغير .

ولا توضح المصادر لنا سبب اختفائه بمكة ، إذ يكتفى صاحب الطبقات الكبرى) بأن يسرد لنا حرص أمير مكة على مصارحة الثورى ، وتخييره بين الاختفاء وبين إجابة دعوة الخليفة ، ففضل الثورى التوارى ، فلم يعد يظاهر إلا لأهله ومن لا يخافه (٣) .

إلا أن ابن سعد أورد قصة قد يفهم منها سبب اختفائه ، إذ نصحه أحد أصدقائه بألا يتنحى عن السلطان لأنه من فعل أهل البدع ، وأقنعه بالكتابة الى المهدى ، ولما جاءه الرد ، عزم الذهاب الى بغداد الا أنه حم ومرض مرض الموت .

ولعل فى العبارة التى أتت على لسانه ما يفسر سبب عزوفه عن ملاقاة الأحياء ، فهو ينصح العلماء — ويسميهم الحكماء — فيقول لهم (ترك لكم الملوك الحكمة ،

---

١ — ابن سعد / الطبقات ج ٦ ص ٣٧١

٢ — ابن كثير / البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٣٤

٣ — ابن سعد / الطبقات ج ٦ ص ٣٧٢

فاتركوا لهم الدنيا (١) .

أما عن رأيه فى الزهد : فإن مما يثير الدهشة كما أسلفنا أن سفيان الثورى كان محدثاً ممتازاً ، حتى وصفه الامام أحمد بن حنبل بالامام ، واعترف له بالعلم ، ثم أضاف الى ذلك ، أنه ساد الناس بالورع ، مستنتجا ذلك من العبارة التى كان يرددها الثورى دائما فى دعائه (اللهم ، سلم سلم) (٢) . فهو يستنجد بالله فى دعائه لكى يتقى الشبهات ، ويتورع عن المحرمات .

ولكن ، كيف ارتقى الثورى هذا المقام فى الزهد ؟ وكيف نوفق بين نظريته فى الزهد وسلوكه فى الحياة حيث اختار التجارة يتكسب منها حتى لا يحتاج الى أحد من الناس ؟ وهو يقول (لإن أرك عشرة آلاف دينار يحاسبنى الله عليها أحب الى من أن احتاج الناس (٣) .

كان اذن رأية فى الزهد يختلف عن اتجاه البعض الذى اتخذ مظهر التقشف فى الملبس والمآكل . وهذا ما يقابلنا فى تعريفه للزهد اذ يرى أن الزهد فى الدنيا قصر الأمل (ليس بأكل الغليظ ولا لبس الغليظ) (٤) ، وربما كان متأثراً فى تعريفه للزهد برأى الامام الزهرى (١٢٤ هـ = ٧٤١ م) الذى كان يعرف الزاهد بأنه (من لم يمنع الحلال شكره، ولم يغلب الحرام صبره (٥) .

---

١ - ابن قتيبة / عيون الأخبار جـ ٢ ص ٣٣٠

٢ - ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٣٧١
وقال الامام أحمد فى حديثه عن الثورى (لا يتقدمه فى قلبى أحد)
ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٣٤

٣ - ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٣٤

٤ - ابن قتيبة / عيون الأخبار جـ ٢ ص ٣٥٦ وابن كثير/البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٠

٥ - ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٤٨

كذلك تطرق زاهدنا إلى الحديث عن الخوف والرجاء والنية والتقوى . لقد حلق مع نظريات زهاد السلف ، واتسمت آراؤه فى المجال بالتفرد والأصالة ، فهو فى تعريفه للزهد يتجه كما بينا آنفا اتجاها نظريا بحتا ، إذ فصله عن الجانب السلوكى من جهة ، كما نقد من خلاله — على الأرجح — الذين ثبتوا من الزهد بمظاهره فحسب ، فأكلوا الغليظ ، ولبسوا الغليظ ، ولم يتطرقوا إلى الأساس النظرى الذى يراه ممثلا للزهد الحقيقى وهو قصر الأمل .

يقول أستاذنا الدكتور النشار (وأعطى الزهد - كمذهب فى الحياة — صيغته المشروعة فى الحياة الاسلامية) (١) .

أما عن صلاته بشيبان الراعى وأبى هاشم الكوفى - أو الصوفى - ورابعة العدوية ، فإنها من قبيل سعى الثورى لمعرفة الاتجاهات المختلفة للزهد .

وربما كانت رواية نبذ رابعة العدوية (١٨٠ هـ — ٧٩٦ م) له هى أدلها على تنافر الاتجاهين : زهده الايجابى الذى يسعى نحو العلم والكسب والانتقال فى سبيل المعرفة . والزهد السلبى الذى يعد نموذجا تعبر عنه رابعة بعاطفة الأنوثة ودقتها فى نظرية الحب الإلهى .

لقد دافع عنها شيخا المدرسة السلفية الكبيران : ابن تيمية والذهبى ، إذ يرى الأول أن ما نسب إليها من وصفها للبيت بأنه الصنم المعبود فى الأرض من قبيل الأكاذيب التاريخية (٢) .

---

١ — د . النشار / نشأة الفكر ج ٣ ص ٢٤٠

٢ - ابن تيمية / توحيد الربوبية ص ٣١٠

ويرى الدكتور عبد الرحمن بدوى عدم الاعتداد بتكذيب ابن تيمية لهذا النص =

أنها لجرت عاطفتها فى مثل قولها :

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى ⁂ وأبحت جسمى من أراد جلوسى

وإذا كان يفهم من هذا القول وصفها بالحلول والاباحة ، فإن الذهبى يرفض الأخذ بهذا المعنى ، فيقول مدافعاً عنها (وهذا غلو وجهل ، ولعل نسبها إلى ذلك مباحى ، حلولى ليحتج بها على كفره) (١) .

وقد مر بنا اشتغاله بالتجارة ، وتفضيله الكسب على الحاجة للناس ، فهو إذن يعطينا مدلولا جديداً للزهد ، بحيث يظهر الجانب الإيجابى فى التفاعل مع الحياة ونبذ الخمول والسلبية فيذهب إلى أن (العالم إذا لم يكن له معيشة صار وكيلا للظلمة ، والعابد إذا لم تكن له معيشة أكل بدينه والجاهل إذا لم تكن له معيشة كان سفيراً للفساق) (٢) .

وتعدد المصادر مواقف لها شأنها فى هذا الصدد :

منها ، المشادة التى حدثت بينه وبين أبى جعفر المنصور (١٥٨ هـ ـ ٧٧٤ م) بعد وصفه له بالظلم فلم يجد أبو جعفر مناصاً من الاعتراف بفضل الثورى . قال (ألقينا الحب إلى العلماء فالتقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا فراراً) (٣) .

وكان يعلن عقيدة السلف فى الصفات للوقوف فى وجه التيارات المتباينة فى زمنه . يقول الذهبى (وقد بث هذا الامام الذى لانظير له فى عصره شيئاً كثيرا

= لان تكذيبه تم على أساس عقلى دون الاستناد الى أسانيد تاريخية . (شطحات الصوفية ص ١٨ ط مكتبة النهضة سنة ١٩٤٦ م)

١ ـ الذهبى / سير أعلام النبلاء ورقة ٢٠٩ مجلد ٦ قسم ٢

٢ ـ المكى / قوت القلوب جـ ٣ ص ٢٣

٣ ـ ابن عبد ربه / العقد الفريد جـ ٢ ص ١١٥ ، ١٢٨

من أحاديث الصفات ، ومذهبه فيها الإقرار والإمرار والكف عن تأويلها) (١).

كذلك كان يتكلم فى بعض علماء الدنيا من أهل الكوفة (٢) ، وهو يعلم أنه ربما أغضب منه البعض ، ولكنه لا يأبه بهم لأنه خبير بأحوال الناس فهو يرى أن (رضا الناس غاية لا تدرك، فأحق الناس من طلب من لا يدرك) (٣) .

ويحق لنا أن نقف وقفة قصيرة عند مدى تأثره بالتيار الشيعى ، لأن إحدى الروايات تنسب اليه حبه لعلى وتفضيله إياه ، بينما ينسب إليه أيضاً التوقف فى التفضيل خشية أن يكون ذلك طعنا على أبى بكر وعمر (٤) .

وقد علق ابن كثير على اختلاف النصوص المنسوبة إلى سفيان الثورى مرجحا عدم صحتها ، لأن المشهور عن بعض الكوفيين تقديم على على عثمان وليس تفضيله على الشيخين .

رابعاً : مدرسة البصرة

يؤيد ابن تيمية الرأى القائل بأن منشأ التصوف كان بالبصرة (وأنه كان فيها من يسلك طريق العبادة والزهد) (٥) . وفى وصف الطبائع الغالبة على الأمصار المختلفة ، يرى شيخنا أن الزيادة فى العبادة والأحوال خرجت من

---

١ – الذهبى / العلو للعلى الغفار ص ١٠٣

٢ – المكى / قوت القلوب جـ ١ ص ٢٠٠

٣ – ن . م جـ ٤ ص ١٤٣

٤ – ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٢

٥ – ابن تيمية / رسالة الصوفية والفقراء ص ٢٥

البصرة لما امتاز به عبادها من شدة الخوف (١) . كذلك خرج من البصرة القدر والاعتزال والنسك الفاسد (٢) .

ولا يسعنا ونحن في سبيل تبيان الخطوط العريضة لملامح الزهد في المدرسة البصرية ، إلا عرض وجه النظر المخالفة ، ونعني بها الخاصة بالمستشرق ماسينيون صاحب الدراسات المتعددة في التصوف . إننا نراه يتحامل بشدة على البصرة ، لاسيما على شيخها الحسن . لا لسبب إلا لأنها - في نظره - كانت موطن أهل الجماعة (٣) . ويشتد غضبه على البصريين لأنهم كانوا من الناحية السياسية ينكرون الخلاف بين الصحابة . وهنا التبس الأمر على ماسينيون ، وربما فهم موقف الإمساك عما شجر بين الصحابة . على أنه إنكار الخلاف بينهم ، فإنه بحكم كون البصريين من أهل السنة والجماعة ، فقد فضلوا ترك القتال في الفتنة (والإمساك عما شجر بين الصحابة) (٤) .

أما في مجال تفضيل البصرة على الكوفة ، فإن ماسينيون لم يستطع تقديم أدلة مقنعة ، اللهم إلا القول بأن سكان جنوب شبه جزيرة العرب من أهل المدن والقرى الذين عرفوا التمدين هم سبب التحضر العربي في الكوفة (تبعاً لصفة عقلية تختلف عن البصرة التي كانت تلك العناصر فيها قليلة متراخية) (٥) .

---

١ - ابن تيمية / رسالة الصوفية والفقراء ص ٢٠

٢ - ابن تيمية / مذهب أهل المدينة ص ٢١

٣ - ماسينيون / خطط الكوفة ص ١٤

٤ - ابن تيمية / مذهب أهل المدينة ص ٩٣

٥ - ماسينيون / خطط الكوفة ص ١٣

وهذا الرأي يذهب إليه أيضاً الدكتور كامل الشيبي الذي يبدو تأثره الشديد به ، بل لا نستبعد أنه أخذ مادته منه لكي تتفق مع النتائج المشابهة التي استخلصها .

وقد تصدى أستاذنا الدكتور النشار لهذا الرأى الذى عده تعبيرا قاسيا ، ويرى (أن هناك عوامل عامة قد تقرب بين مختلف المدارس فى مختلف المدن) (١) .

وسنتناول فى حديثنا عن مدرسة البصرة اثنين من شيوخها ، وهما يقفان فى مصاف أمام البصرة الشهير - أى الحسن - وهى أبو عثمان النهدى (١٠٠ هـ = ٧١٨ م) وقتادة بن دعامة السدوسى (١١٧ هـ = ٧٣٥ م) إلى جانب الحسن البصرى :

١ - ابو عثمان النهدى : (متوفى فى اول ولاية الحجاج بن يوسف نحو سنة ١٠٠ هـ = ٧١٨ م)

كان يسكن الكوفة ثم هجرها على أثر مقتل الحسين ، معلنا أنه لا يسكن بلدا قتل فيه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) .

وكان أبو عثمان ممن أدرك الجاهلية وحج خلالها مرتين ، ثم أسلم فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكنه لم يلقه . ومثله - أى من عاصر عصرى الجاهلية والاسلام يسميه أهل الحديث مخضرما .

صحب سلمان الفارسى إثنى عشرة سنة حتى وفاته وروى عنه وعن جماعة من التابعين (٣) ، ويصفه ابن كثير بأنه كان (صواما ، قواما يسرد الصوم ، ويقوم الليل لا يتركه ، وكان يصلى حتى يغشى عليه (٤) .

---

١ - د. النشار / نشأة الفكر ج ٣ ص ٢٩٦/٢٩٧

٢ - ابن سعد / الطبقات الكبرى ج ٧ ص ٩٨ .

٣ - ن . م والصفحة ، ابن كثير / البداية والنهاية ج ٩ ص ١٩٠

٤ - ابن كثير / البداية والنهاية ج ٩ ص ١٩٠

ويرى فى الآية (فاذكرونى أذكركم - البقرة ١٥٢) أن الذكر متبادل بين العبد وربه عز وجل، فيقول فى معناها (فإذا ذكرت الله ذكرنى) (١). لأن هذه الآية تعلمه حين يذكره ربه (٢) .

٢ - قتادة بن دعامة السدوسى

أما الشخصية الثانية فى البصرة التى تقف فى مصاف الحسن البصرى فهو قتادة بن دعامة السدوسى (١١٧ هـ — ٧٣٥ م) الذى لاحظ طغيان الاتجاه نحو الاكثار من العبادة بين أهل البصرة ، مما دعاه إلى رفع صوته لكى يحول انجاههم إلى العلم الذى لا يمكن الاكتفاء منه. ويضرب على ذلك مثلا بموسى عليه السلام، الذى طلب الزيادة ولم يكتف بما عنده ، فينصح بطلب العلم لأن (باب العلم يحفظه الرجل ، يطلب به صلاح نفسه وصلاح دينه ، وصلاح الناس ، أفضل من عبادة حول كامل) (٣) ، لأنه هو نفسه سلك طريق العلم ، وسعى فى طلبه ، فقدم على سعيد بن المسيب فى المدينة يسائله أياما ، ويحفظ عنه إجاباته ، ويقارنها بآراء الحسن البصرى (٤) .

كذلك جالس الحسن البصرى اثنتى عشرة سنة (٥) ، لهذا لا نعجب منه حين يتعمق هو أيضا فى فهم القرآن ، ويتحدث عن نظرية المعية الالهية فيقول (من وثق بالله ، كان الله معه ، ومن يكن الله معه يكن الفئة التى لا تغلب ، والحارس الذى لا ينام ، والهادى الذى لا يضل ، والعالم الذى لا ينسى) (٦) .

---

١ - ابن كثير | البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٩٠

٢ - ن٠م والصفحة والطبقات جـ ٧ ص ٩٨

٣ - ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣١٤

٤ - ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ ٧ ص ٢٣٠

٥ - ن ٠ م ص ٢٢٩

٦ - ن٠م ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣١٤

وكان ابن حنبل يرى أنه أحفظ أهل البصرة (١) . وقد روى عن أنس بن مالك وجماعة من التابعين ، منهم سعيد بن المسيب والحسن وغيرهما وحدث عنه جماعة منهم أيوب والأوزاعى (٢) .

والذى يهمنا فى تحديد أسمائهم بصفة خاصة ، هو إظهار الاتصال بين زهاد السلف . فقد كانت هذه الصلات تتم أحيانا عن طريق اللقاءات وتبادل الآراء والأفكار . كذلك فان تلقى الحديث وروايته أوجدت نوعاً من الترابط الفكرى والوجدانى .

٣ ـ الحسن البصرى (١١٠ هـ ـ ٧٢٨ م) :

تضخمت المصادر بذكر أخبار الحسن البصرى وأقواله ، وتعددت الفرق التى تسند إليه مذاهبها ونظرياتها . إن شهرة الإمام الكبير التى تجتذب الباحثين ناجمة أيضا عن الأساطير التى حيكت حوله بواسطة الصوفية فى القرن الرابع الهجرى ، لا سيما الطوسى فى كتابه (اللمع) ، والمكى صاحب (قوت القلوب . .) ، بينما الحقيقة أن الحسن لم ينفرد وحده فى عصره ـ أى فى أواخر القرن الاول وأوائل الثانى ـ فإن شخصيات أخرى شاركته فى التأثير فى المجتمعات الاسلامية حينذاك . كان الحسن إمام البصرة ، بينما سعيد بن المسيب إمام المـــدينة ، والشعبى إمام الكوفيين (٣) .

إن نظرية مقارنة للشيوخ الثلاثة تكشف عن تعددمجال ثقافاتهم واتجاهاتهم ، فالحسن كان فقيها وعالما ، وابن المسيب كان فقيها ، والشعبى اشتهر بصفته محدثا .

---

١ ـ ابن كثير / البداية والنهاية ص ٣١٢

٢ ـ ن . م والصفحة

٣ ـ دكتور احسان عباس / الحسن البصرى ص ٧

هذه هى الصفات البارزة لكل منهم . وسبقهم بقليل عمر بن عبدالعزيز ، إلى جانب العشرات الآخرين من المحدثين ، وكلهم يدخلون فى عداد الزهاد ، مع اختلاف اتجاهاتهم أحيانا .

وإذا قلنا إن الحسن أشهر شخصية فى الزهد تمثل روح القرن الأول كما يذكر نيكلسون (١) ، فان هذا صحيح من ناحية ، ويعوزه الدقة من ناحية أخرى . أما صحته ، فلا شك أن أمامنا احتل مكانته الممتازة فى قلوب أهل السنة والجماعة . ولكن ، من ناحية أخرى ، قد ترجع شهرته عن معاصريه إلى العواطف الجماعية التى التفت حوله ، واتخذت منه لسانا لها فى الأمور السياسية (٢) . وبالمثل أدى الصوفية نفس الدور ووضعوه فى سلسلة شيوخهم -- بل فى قائمة هؤلاء الشيوخ -- الذين لبسوا الخرقة عند الإمام على . وأنطقوه بما لم يقله من حديث عن أحوال الصوفية ومقاماتهم . وقد كفانا الدكتور إحسان عباس مؤونة إثبات ذلك لأنه سبقنا بكتابة الفريد عن هذا الإمام .

ويرى باحثنا ضمن ما أورده من آراء كثيرة انفرد بها ، أن ابن سعد فى (الطبقات الكبرى) ربما انتصر للتيار المضاد للصوفية حينما أظهر الحسن البصرى فى صورة المعارض لأصحاب الأكسية .

ولكن الواقع أن النصوص التى تضمنها كتاب الطبقات ليست وحدها التى نتخذها دليلا على كراهية إمام البصرة للبس الصوف ونقده بالتالى لأصحاب الأكسية . فإن ابن حنبل أيضا أورد نصا آخر أكثر تصريحا يقول فيه الحسن

---

١ -- نيكلسون / التصوف الاسلامى ص ٤٦ ترجمة الدكتور عفيفى

٢ -- د. احسان عباس / الحسن البصري ص ٤٢

لفرقد السبخي (يا ابن أم فرقد ، وكررها مرتين أو ثلاثة ، إن التقوى ليس فى هذا الكساء ، إنما التقوى ما وقر فى القلب وصدقه العمل والفعل) (١) .

أما النص الثالث ، فإننا نجده عند ابن كثير فى (البداية والنهاية) ذلك أن معاصره العلاء بن زياد البصرى (٧٨ هـ = ٦٩٧ م) المعروف بكثرة الخوف ظل يبكى حتى عمى . ويفسر ابن كثير بكاءه بالرؤيا التى رآها له رجل بالشام ، فلما أخبره بهذه الرؤيا تركه لا يهدأ ليلا أو نهارا ، وصام عن الطعام ، وداوم على الصلاة ، وكاد يفقد حياته من كثرة البكاء ، مما جعل أخاه يلجأ إلى الحسن لينصحه بالعدول عن هذا المسلك .

وقد استجاب الحسن ، ولم يزل بالعلاء بن زياد حتى انتهى من صيامه وخفف عما كان فيه (٢) ، وسنعود بعد قليل لنوضح توسط الحسن فى مذهبه ـ فيما عدا حزنه الشديد ـ ومع ذلك فإننا نستنتج من هذا التصرف لشيخ البصرة ، نقده لمظاهر الغلو، إذ يتفق مع قوله (دين الله وضع فوق التقصير ودون الغلو) (٣) .

---

١ ـ ابن حنبل | الزهد ص ٢٦٢

والنص كما ورد بالطبقات الكبرى ج ٧ ص ١٦٩ (يا ابن أم فرقد ، أما علمت أن أكثر أصحاب النار أصحاب الأكسية ؟)

كما ورد النص الآتى المتعلق بنقد الحسن لبس الصوف فى كل من (عيون الأخبار لابن قتيبة ج ٢ ص ٣٧٢ والطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ١٦٩ :

(وذكر عنده الذين يلبسون الصوف، فقال ما لهم تفاقدوا ثلاثا ، أكنوا الكبر فى قلوبهم ، وأظهروا التواضع فى لباسهم ، ؟ والله لأحدهم أشد عجبا بكسائه من صاحب المطرف بمطرفه !!)

٢ ـ ابن كثير / البداية ج ٩ ص ٢٦

٣ ـ الاعتصام / الشاطبى ج ٢ ص ٣٢

وهذا الموقف مرتبط بنقده لكافة مظاهر الغلو الأخرى التى لاحظها ، مثلما نقلوا إليه أن رجلا من أهله تنسك لأجل عدم استطاعته القيام بشكر الفالوذج الذى يأكله ، فوصفه الحسن بأنه (إنسان أحمق) ، واستطرد قائلا (ولا يقوم بشكر الماء البارد !!) (١) .

كذلك لم يرض عن انخراط أحد الحاضرين بحلقته فى البكاء الشديد إثر موعظته ، فالتفت إليه موجها الحديث (أما والله ليسألنك الله عز وجل يوم القيامة ما أردت بهذا ؟ !) (٢) .

ولكن ، ما الحل فى غلبة البكاء الذى لا يمكن مدافعته ؟

إن الحسن يرى رد الرجل لعبرته، فإذا خشى أن تسبقه، ينبغى أن يقوم(٣).

إنه كره إذن التظاهر بكافة ألوانه ، بما فى ذلك لبس الصوف ، وانتقد بشدة الغلو فى الدين ، ولم يأبه بمظاهر الأكسية ، وإعلان خبايا النفوس على الملأ لاتخاذها وسيلة لاجتذاب العامة ـ فيما يظهر . وكان سلوكه الشخصى يتسم بالاعتدال فى طابعه العام، إذا كان يتغذى الخبز واللحم ، وسماه «طعام الأحرار» وكان الحسن يشترى كل يوم لحما بنصف درهم ، وقد أبدى أحد أصحابه الاعجاب بريح مرقة الحسن بقوله (وما شممت مرقة قط أطيب ريحا من مرقة الحسن) (٤) . وقال لفرقد عندما امتنع عن أكل الخبيص لنفس السبب (ويحك ، ونؤدى

---

١ ـ ابن حنبل / الزهد ص ٢٦٤

٢ ـ ن. م ص ٢٧٠

٣ ـ ن. م ٢٦٢

٤ ـ ابن سعد / الطبقات جـ ٧ ص ١٦٧

شكر الماء البارد؟!!) (١) ، فهو يرى أن نعم الله أكثر من أن تشكر إلا ما أعان عليه (٢) .

وفى أحد المرات ، دعا ضيفا لمشاركته الطعام ، فاعتذر بأنه أكل كفايته حتى لايستطيع المزيد ، فتعجب بقوله (سبحان الله ! ويأكل المسلم حتى لايستطيع أن يأكل؟!!) (٣) ، فهو يود لو طبق المسلمون الحديث الذى يحض على الأكل دون الشبع الكامل الذى لا يقبل المزيد .

ويتضح هذا المنهج الوسط فى قوله أيضا (إن المؤمن أخذ عن الله أدبا حسنا إذا وسع عليه أوسع ، وإذا أمسك عليه أمسك) (٤) ، وهو يعنى بالوسع هنا، الانفاق فى أوجه البر ، إذ يقول (وجهوا هذه الفضول حيث وجهها الله عز وجل) (٥) . وبالمثل عند صحبه الناس ومعاملتهم ، فهو ينصح بالحب هونا ، والبغض هونا ، لأن الإفراط فى كليهما يؤدى إلى الهلاك (٦) .

أما عن كراهيته للإسراف فتتضح من مقارناته بين المسلمين فى عصره والسابقين عليهم. فقد كره التنعم ، وحض على الاكتفاء بحد الكفاف، لكى يتمكن المسلم من اقتصاد الزائد عن الكفاف ليوم فقره (١) . وكان يحلف بالله (ما

---

١ - ابن سعد / الطبقات جـ ٧ ص ١٧٦

٢ - ابن قتيبه / عيون الاخبار جـ ٢ ص ٣٧٠

٣ - ابن حنبل / الزهد ص ٢٦٨

٤ - ن . م ص ٢٦٨

٥ - ن . م ص ٢٦٢

٦ - ن . م ص ٢٩٦

٧ - ن . م ص ٢٧١

عال مقتصد قط) (١) ، ويضرب المثل على ذلك بالصحابة والتابعين الذين لم يتخذوا العقارات والأموال ليركنوا إليها فى الدنيا ولتشتد ظهورهم — وفى هذا الوصف تعريض ظاهر لبعض معاصريه - وإنما كانوا يأخذون مما أتاهم الله من رزق ما يعيشون به بحد الكفاف (وقدموا فضل ذلك ليوم فقرهم وفاقتهم)(٢).

ولكننا نراه ، من ناحية أخرى ، يحض على لفظ الزيادة حتى لا تأخذ بتلابيب المؤمن وتصرفه عن الله تعالى . فيعقد المقارنة بين السابقين ومعـاصريه - شأنه دائماً - فقد أدرك أقواماً يعزفون عن أخذ الأموال الحلال خشية على قلوبهم من الفساد (٣) .

وقد تحدث إمام البصرة كثيراً عن القلوب ونواياها ، حياتها وموتها . ويبدو أن هذا السبب جعل المتصوفة ومؤرخيهم يجعلونه من أئمة شيوخهم . ولكننا بعرضنا للمعنى الذى يرومه من حديثه فيها ، فإننا سنجد الاختلاف واضحاً بينه وبينهم . فهل جعل من القلب أداة للتذوق أو للمعرفة ؟

من الجائز اقترابه من هذا المعنى ، لاسيما عندما نراه ينصح أحد الجالسين فى حلقته - وكان يشكو إليه قسوة قلبه - فأجابه (أدنه من الذكر — أى ممن يذكر) (٤) .

وهو يتعجب من إبن آدم - وهو الاسم الذى كثيراً ما يستخدمه فى مواعظه للتقريع - ويتساءل (كيف يرق قلبك وهمك فى آخر ؟!) (٥) . ويستشهد بقول

---

١ — ابن حنبل / الزهد ص ٢٧٤

٢ — ن. م ص ٢٧١

٣ — م. ن ص ٢٦٢/٢٦٣

٤ — ن. م ص ٢٦٦

٥ — ن م ص ٢٥٩

مأثور (لسان الحكيم وراء قلبه) فهو دائم الرجوع إلى قلبه يستفتيه قبل أن يتكلم ، بعكس الجاهل الذى يقف فى الطرف المقابل من هذه المقارنة ، فإن قلبه فى طرف لسانه) (١) .

فالقلوب إذا رقت وصلحت استنارت البصيرة ، فعرفت ما ينتظر أصحابها يوم الهول العظيم (لو أن بالقلوب حياة ؟ ! لو أن بالقلوب صلاحاً ؟ ! لأبكتكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة ! !) (٢) .

ولكن لا ينبغى أن نستطرد كثيراً فى الاستدلال من عبارات الحسن عن القلوب كما حاول متأخرو الصوفية ، أن يفعلوا ، لأن هذا التابعى الكبير كان وثيق الصلة بمدرسة الصحابة حيث كان للنصوص سطوتها الكبرى .

ومن الجائز أنه تكلم عن القلوب لكى يقف فى وجه التيار المعتزلى الذى كان فى بداية ظهوره ، الذى يجد العقل واتخذ منه نبراساً للمعرفة والنظر ، فأراد أن يعيد المسلمين إلى سيرتهم الأولى ، وينبههم إلى منهج النقل ، ويلفت الأنظار إلى آيات الله العديدة التى تتناول هذ الجوانب الذوقية .

ويمكننا أن نستنتج من نقد الحسن البصرى للمتظاهرين بالنسك ، ووقوفه فى وجه المتكلمين ـ ويسميهم أصحاب الأهواء ـ ورفضه الانسياق لرأى الخوارج كل هذا يؤدى بنا إلى القول بأنه لم يكن حزيناً حزن الرهبان فى صوامعهم ولبوسهم المسوح ، ولم يؤد به الحزن إلى تسليمه إلى العزلة والترهب ، ولكنه كان متيقظاً لدوره كإمام من أئمة المسلمين ، عليه تقع تبعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومرشداً مخلصا قائما بحفظ السنن والآثار ، فيذهب إلى أن القائم بهذا الدور هم

---

١ ـ ابن حنبل / الزهد ص ٢٧١

٢ ـ ن. م ص ٢٥٨

نصحاء لله ، ودورهم يتلخص فى عرض (أعمال العباد على كتاب الله ، فإذا وافقوه حمدوا الله ، وإذا خالفوه عرفوا بكتاب الله ضلالة من ضل ، وهدى من اهتدى، فأولئك خلفاء الله) (١) .

أما تفسير حزن الدائم ، فهو وليد نظريته فى الزهد . ويبدو أن طبيعة شخصية الحسن أيضاً تميل إلى الحزن ، إذ يتذكر الموت دائماً لكى يحثه على طاعة الله والخوف منه ، ومما ساعد على سمة حزنه ، انكبابه على التفكير فى المصير المحتوم واشتغاله الدائم فى المقارنة بين الحياة الدنيا ، والحياة الأخرى بعد البعث ، إذ تصدمه دائماً حقيقة انقضاء الأولى ، التى وصفها يوم موت أخيه بالدار المفرقة (٢) .

وما الداعى للفرح أو السرور بالحياة بينما فضح الموت الدنيا ؟ ! (فلم يترك لذى لب فرحا ! ! (٣) ، ويؤرقه كثرة ذنوب ابن آدم فهى أكثر من أن يسلم منها ، إلا ما عفا الله عنه) (٤) .

ويتخذ الحسن من الذكر الدائم للموت حافزاً على إحسان العمل ، لأن طول الأمل يؤدى إلى العكس ، أى إلى أساءة العمل ، ويذكر أخوانه بما كان يفعله الأوائل ، إذ (كان رجل من المسلمين يبلغه موت أخ من إخوانه فيقول ، إنا لله وإنا اليه راجعون ، كدت والله أن أكون أنا السواد المختطف ، فيزيده الله جدا

---

١ – الشاطبى / الاعتصام ج ١ ص ٢٨/٢٧

٢ – ابن سعد / الطبقات ج ٧ ص ١٧٨

٣ – ابن حنبل / الزهد ص ٢٥٨

٤ – ابن قتيبه / عيون الاخبار ج ٢ ص ٢٧٠

واجتهاداً . (١)

كذلك فإن للخوف هدفاً محدداً، لأنه يورث تفادى التظاهر والرياء (فبالخوف والحذر يتفقد العبد الرياء) (٢) ، فإذا ما سئل عمن يفضل : العلماء الذين يذكرون الناس ويخوفونهم ، أم الآخرين الذين لايفعلون ذلك فيجيب (أنه من خوفك حتى تلقى الأمن خير ممن أمنك حتى تلقى المخافة) (٣) .

من هنا أصبح واضحاً غرض إمامنا من التخويف فى مواعظه فإن جانب الوعظ يقتضى ذلك ، كما أنه ـ بإحساسه بمسئوليته كشيخ من شيوخ المسلمين كما قلنا ـ ينبغى أن يكون القدوة ، فأخذ ينكب على قراءة القرآن ، ويتعلق بالآيات التى تصف النار وعذابها (أن عذابها كان غراما ـ الفرقان / ٦٥) قال الحسن (علموا أن كل غريم مفارق غريمه ، إلا غريم جهنم ! !) (٣) .
أيسمع المؤمن هذه الآية ولا يخاف ؟ !

ويقف الحسن أمام قوله تعالى (وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً ١٠ : ٦٢) ، فيشتد خوفه ، لأن الله عز وجل يرى العبد عندما يبدأ العمل ، وبمعرفة العبد لهذه الحقيقة ، فإنه يستحى أن يقدم على ما يغضب ربه ، لأنه يتذكر إطلاعه عليه فلا يتم ما بدأه (خوفا منه وحياء ، وإجلالا له عز وجل (٥)

---

١ ـ ابن حنبل / الزهد ص ٢٦٩
٢ ـ المحاسبى / الرعاية ص ١٣٢
٣ ـ ابن حنبل / الزهد ص ٢٥٩
٤ ـ ن. م ص ٢٠٨
٥ ـ المحاسبى / الرعاية ص ١٠٥

ثم هناك من الآيات الكثير مما يلقى فى قلبه الخوف من عذاب ربه وكان بكاؤه أحياناً لا يخرج عن المألوف عند السابقين عند قراءة القرآن (فيبكى حتى ينحدر الدمع على لحيته) (١) .

ويدعو إمامنا إلى الاقتداء به ، بل إنه فى حضه مداومة قراءة الكتاب كأنه يدعو المسلمين إلى الاستغراق فى نفس الآيات القرآنية التى تذ له رهبة وخشية ، فيحلف بالله (لئن قرأت القرآن ، ثم آمنت به ليطولن فى الدنيا حزنك ، وليشتدن فى الدنيا خوفك ، وليكثرن فى الدنيا بكاؤك) (٢) .

يمكن إذن تفسير الحزن عند الحسن بأحد عاملين : إما أنه طبيعة خاصة تتفق مع الميل الشخصى للحزن حيث أخذ يلتقط الآيات التى تتفق مع هذا الاتجاه ، كما نظر إلى القرآن نظرة شاملة واتخذ منه ـ بأكمله ـ دليلا على دعواه فى الحزن . الاحتمال الثانى ، أنه كان متأثراً دائماً بفكرة الموت وحقيقة انقضاء هذا العالم ، وانتقال الانسان الى عالم آخر . لقد تأمل مليا فى السنوات والأيام تنقضى وتقرب (ابن آدم) من نهايته المحتومة مما جعله يستخدم فكرة العدد للدلالة عـلى هذا لإنقضاء (يا ابن آدم ، أنت عدد ! ! ، فاذا ذهب يوم فقد انقضى بعضك ! !) .

فالأمر جد خطير ، والنهاية محتومة ، والحياة الدنيـا موقوته تنقضى بإنقضاء الأيام . فليعمل كل امرىء إذن من أجل الآخرة .

وهكذا لا تدهشنا مظاهر الحزن الذى اتسم بها الحسن ، فهى انعكاس إسلامى كما قلنا ، سبقه إليه بالبصرة أبو موسى الأشعرى الذى (صبغ البصرة وحياتها

---

١ ـ ابن سعد / الطبقات ج ٧ ص ١٧٥

٢ ـ ابن حنبل / الزهد ص ٢٥٩

الروحية بصبغته) [illegible] يا أيها الناس ابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، فإن أهل النار يبكون الدموع حتى تنقطع ، ثم يبكون الدماء حتى لو أرسلت فيها السفن لجرت ! !) (٢) .

أن حزن إماما إذن إسلامى ، قرآنى بحت . وهو الحريص كما قلنا أن يكون القدوة داعياً للمسلمين الى خوض تجربته الذاتية ، والسير فى نفس الطريق بل إنه بنصائحه ومواعظه التى يعبر بها عن نظريته فى الزهد ، يعبر بها عن مكنون قلبه وإن لم يصرح بذلك . فكثيراً ما نراه ينسب المعنى إلى الغير . وربما يعنى بذلك نفسه ، ونستطيع أن نلمح ذلك من فلتات لسانه فى تفسير بعض الآيات فى مثل قوله تعالى (يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) ، فيفسرها بكلمات قليله ، فيقول (هو الخوف الدائم (٣) . كما أنه فى استخدامه لندائه الملازم له فى مواعظه (يا ابن آدم) ، نراه أحيانا قد يعنى نفسه ، فقد رؤى يكرر عبارة لنفسه وهو منفردا ثلاث مرات ! ! (٤) . كما يردد أيضاً (يرحم الله رجلا لم يغره ما يرى من كثرة الناس . ابن آدم ، تموت وحـــدك ، وتدخل القبر وحدك ، وتبعث وحدك ، وتحاسب وحدك . ابن آدم ، أنت المعنى وإياك يراد) (٥) .

قصارى القول إذن ــ كما يرى أستاذنا الدكتور النشار ــ أن الحسن البصرى (كان عابدا من عباد المسلمين ، تكلم فى البصرة بكلمات رهيبة عن الجنة والنــار) (٦) .

---

١ ــ د. النشار / نشأة الفكر جـ ٣ ص ١٢٥

٢ ــ ابن حنبل / الزهد ص ١٩٩

٣ ــ المحاسبى / الرعايه ص ٥٠

٤ ــ ابن قتيبة / عيون الأخبار جـ ٢ ص ٠٠٠

٥ ــ ابن حنبل / الزهد ص ٢٧١

٦ ــ نشأة الفكر جـ ٣ ص ١٦٨

خامساً : مدرسة الشام

أن وقوع بلاد الشام فى الطرف الشمالى من الجزيرة العربية ، واقترابها من بلاد الروم ، جعل الباحثين من المستشرقين يتخذون من هذه العوامل سببا فى إيجاد المؤثرات المسيحية فى رجال الزهد المسلمين . يصور أستاذنا الدكتور النشار فى سخرية لاذعة خطأ هؤلاء الباحثين حين ادعوا ذلك بقوله (ولكن هؤلاء المستشرقين والباحثين فى الدراسات الاسلامية من الأوروبيين يرون أنه حين أتى العرب من أعماق صحرائهم لم يفعلوا شيئاً ، سوى أن قفزوا أيضاً على الأديرة والرهبان، وفتحوا الكنائس، يقرأون مافيها من حكمة الروح ، ويعتبرونها قانونهم الأزلى) ! ! (١) .

وسننقب وراء هذه الدعوى فى بحثنا لأفكار شيوخ هذه المدرسة .

أما الاتجاهات الغالبة على الشام — كما يراها ابن تيمية — فكان النصب ، أى العداء لعلى بن أبى طالب — والقدر (٢) .

ولكن أئمة أهل السنة ببلاد الشام ظلوا محبين للخليفة الرابع ، واتخذوا جانب المعاندة للقدرية ، كما سيتضح لنا عند الحديث عن الأوزاعى فقيه الشام بصفة خاصة .

وعلى قمة مدرسة الشام يقف أبو الدرداء . وكنا قد عرضنا للحياة الروحية عنده عند حديثنا عن زهد الصحابة .

---

١ — د . النشار / نشأة الفكر جـ ٣ ص ٢٩٤

٢ — ابن تيمية / مذهب أهل المدينة ص ٣٢

أما هنا ، فإننا سنلقى نظرة على شيوخ المدرسة الذين سلكوا الطريق بعد الصحابى الجليل ، منذ أبى مسلم الخولانى وبلال بن سعد وعبد الله بن محيريز إلى الأوزاعى والدرانى والتسترى .

ولعل خير ما يعوضنا عن معارضة الحديث عن أبى الدرداء ، هو أن نعرض للزهد عند عمر بن عبد العزيز .

١ - عمر بن عبد العزيز (١٠١ هـ = ٧١٩ م) :

لمع اسم عمر بن عبد العزيز كزاهد حتى كاد يخفى سيرة خلافته العادلة ، وأبقى زهده وورعه . ولكن الحق أن سيرة الخليفة الذى يعده أهل السنة والجماعة من سلسلة الخلفاء الراشدين — هذه السيرة أبت إلا أن تقرن عدله بزهده ، وكأن خلافته دعمت نظرية الزهد وغذتها ، فأثبت أنه فى الإمكان الجمع بين الخلافة والزهد - أعنى بين الرياسة أو امتلاك ناصية الحكم والتصرف فى شئون المسلمين ، وبين الحياة الروحية فى إطارها الإسلامى الأصيل الذى يعد عمر بن عبد العزيز أحد الرواد الأوائل فيه ، فأصبح من المألوف أن يعتبره أهل السنة والجماعة خامس الخلفاء الراشدين (١) .

ويبدو أنه أثر فى زهاد الشام تأثيرا كبيرا ، إذ اتخذوا منه قدوة ، فيصفه أبو سليمان الدرانى بأنه أزهد من أويس القرنى ، لأن عمر ملك الدنيا بحذافيرها وزهد فيها ، ثم تساءل عن حال أويس لو ملك ما ملكه عمر كيف يكون ؟ . ويعلق على ذلك بقوله (ليس من جرب كمن لم يجرب) (٢) .

---

١ - ألحقه بن سفيان الثورى بالخلفاء الراشدين ، وعد الخلفاء خمسة (ابن الأثير / الكامل جـ ٥ ص ٢٦)

٢ - ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٠٨

والحق أن هذه المقارنة ليست فى موضعها تماماً ، لأن خشية أويس القرنى تتصل بإحساسه بمسئوليته عن نفسه ، أما عمر بن عبد العزيز فقد كان يشتد خوفه لأنه يشعر بعبء مسئولية الرعية بأكملها، فقد سئل على أثر مبايعته ـ وهو مغتم مهموم ـ عن سبب هذا الهم الظاهر على ملامح وجهه، فأرجعه إلى أنه ما من أحد من أهل المشارق والمغارب من الأمة ، إلا ويطالبه بحقه ، سواء كتب له أو لم يكتب مطلبه (١) .

وكان له صلة أيضا بزهاد البصرة ـ وعلى رأسهم الحسن البصرى ـ وكذلك بالمدينة وشيخها حينئذ سعيد بن المسيب ، فقد أصبح هذا المثلث المدعم بثلاثة من التابعين ، سمة بارزة فى الحياة الروحية حينذاك .

وتبادل الخليفة مع هذين التابعين الرسائل المتعددة فى مجال الوعظ والطريق الروحى ، بل إن تأثيره تعدى دائرة شيوخ الزهد إلى عامة الناس إبان حكمه لتقليده فى قراءة القرآن والصلاة والعبادة ، فأصبح المسلمون يقلدونه (يلقى الرجل الرجل فيقول . كم وردك ؟ كم تقرأ كل يوم ؟ ماذا صليت البارحة؟) (٢).

وحرص على دوام صلاته بالحسن البصرى ، وكانت رسائل الشيخ البصرى تصله بصفة مستمرة ، تحمل مواعظه وتحذيراته بكلماته الحادة النبرات التى تلخص مذهب إمام أهل البصرة (أما بعد ، فكأن الدنيا لم تكن ، وكأن الآخرة لم تزل ، وكأن ما هو كائن قد كان ، والسلام) (٣) .

---

١ ـ ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٩٨

٢ ـ ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٠٨

٣ ـ أبو محمد بن الحكم (٢١٤ هـ) رواية ابنه أبى عبد الله ٢٦٨ هـ : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٠

والظاهر أن مثل هذه المواعظ كانت تؤثر فيه بعمق ، ففتقت ذهنه عن الاهتمام بأفكار الزهاد ، وعرف نظرياتهم التي حاموا حولها ، فتكلم عن الموت والقبور ، واشتد خوفه وفزعه من الموت ، فكان يؤرقه تصور القبر الذي يراه (بيتا تحوم فيه الهوام ، وتخترق فيه الديدان ، ويجرى فيه الصديد ، مع تغير الريح وبلى الأكفان ، بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب) (١) .

فهل كان خوفه صادرا فقط عن تصور ما بعد الموت خشية العقاب ؟ أم أنه تأثر بالحسن البصرى فى نظريته التى ملأ بها البصرة عن الخوف ونبع منها بكاؤه المتواصل كأنه كالعائد فى لحظته من تشييع جنازة ؟

الواقع أن الاحتمالين صحيحان . والمرجح أن التكوين الشخصى للخليفة جعله قابلا لنظرية الخوف منذ نشأته الأولى القرآنية (فإنه جمع القرآن وهو صغير) (٢) . فقد كان عمر بن عبد العزيز يرهب الموت ويذكره منذ طفولته ، إذ أثار دهشة أمه فى إحدى المرات لبكائه فسألته عن سبب بكائه فقال (ذكرت الموت !!) (٣) .

ويظهر ذكره الموت والخوف من الحساب بشكل واضح فى خطبه المختلفة . من ذلك قوله (فاتقوا الله قبل القضاء ، وراقبوه قبل نزول الموت بكم) (٤) . ولهذا كان يوضع مع الحسن البصرى فى مرتبة واحدة من حيث الخوف والخشية ، حتى قيل (ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز كأن

---

١ ـ ابن كثير / البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٠٤

٢ ـ ن . م ص ١٩٢

٣ ـ ن . م والصفحة

٤ ـ ن . م ١٩٩

النار لم تخلق إلا لها) (١) .

وكثيرا ما يبكى وهو يخطب واعظا وناصحا ، فيبكى السامعين حوله ويبلغ أحيانا من قوة أثر مواعظه المكتوبة إلى عماله أن بعضهم عزل نفسه (٢) ، كما يشتد خوفه إذا ما انفرد بنفسه ، فوصفته امرأته بأنها لم تر أحدا أشد فرقا من ربه منه (٣) . والخوف من الآخرة عنده هو باب الأمان والاطمئنان فإنه (لا يأمن غدا إلا من حذر اليوم الآخر وخافه) (٤) .

أما تعريفه للدنيا فقد وضع لها مدلولاتها ، فهي عنده مرادفة لمعاني الفناء والخوف والهلاك والقلة ، ويتعجب ممن يفضلها عن الحياة الآخرة ، فإن من يفعل ذلك يصبح بمثابة (من يبيع فانيا بباق ، ونافدا بما لا نفاد له ، وقليلا بكثير ، وخوفا بأمان) (٥) . إنه يتفق في هذا التعريف مع باقي الزهاد في عصره ، فقد سبق للحسن البصري أن كتب له بناء على طلبه ينصحه ، فوصف له الدنيا بأنها دار مخوفة (تهين من أكرمها وتكرم من أهانها وتفقر من جمع لها ، لها في كل يوم قتيل) ، ثم نصحه إمام أهل البصرة بقوله (فكن يا أمير المؤمنين كالمداوي لجرحه ، واصبر على شدة الدواء لما تخاف من طول البلاء) (٦) .

وكأن بالحسن يعرف مسبقا منحى الخليفة في الحياة ، ونظرته للدنيا

---

١ - ابن سعد / الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٢٩٨

٢ - ابن كثير / البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٠٨

٣ - ن . م ص ٢٠٤ والطبقات ج ٥ ص ٣٦٧

٤ - ن . م ص ١٩٩

٥ - ن . م والصفحة

٦ - ابن الحكم / سيرة عمر ص ١٢٣

ومعرفته بالناس . وإننا لنتأمل خصاله من سياق أول خطبة ألقاها حيث اشترط لمن يريد صحبته أن يرفع إليه حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعينه على الخير بجهده ، ويدله من الخير على ما يهتدى إليه ، ثم يستطرد فى خطبته (ولا يغتابن أحدا ولا يعترض فيما لا يعنيه) . وهنــا يعلق ابن الأثير (فانقشع الشعراء والخطباء وثبت عنده الفقهاء والزهاد وقالوا ما يسعنا نفارق هــذا الرجل حتى يخالف قوله فعله) (١) .

ولكن ظل قوله مطابقا لفعله حتى دفع امرأته للشكوى من جراء الخلافة (يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين فوالله ما رأينا سرورا منذ دخلنا فيهــا) (٢) .

وليس أدل على ذلك من شهادة أحد الصحــابة المعاصرين له ـــ وهو أنس بن مالك إذ يقول (ما صليت خلف إمام بعد رسول الله ﷺ أشبه بصلاة من إمامكم هذا) (٣) .

وإننا لنجد صدى تأثر عمر بن عبد العزيز بسيرة أبى بكر الصديق أيضا إذ تكاد تتطابق كلماته مع الخليفة الأول . لقـــد قام مرة فى مسجد دمشق (ثم نادي بأعلى صوته : لا طاعة لنا فى معصية الله) (٤) . وفى مناسبــة أخرى ينبه المسلمين إلى دوره الحقيق فيعلن لهم : (لست بقــاض ولكنى منفــذ ، ولست بخير من أحد ولكنى أثقلكم . . ولست بمبتدع ولكنى متبع) (٥).

---

١ – تاريخ الكامل ج ٥ ص ٢٥

٢ – ابن كثير / البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٠٤

٣ – ابن الحكم / سيرة عمر ص ٢٨

٤ – ابن سعد / الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٢٤٣

٥ – ن . م ص ٣٦٨

ولا جرم أن أمير المؤمنين كان يتمسك بالسنة تمسكا شديدا ، ويعظم منهج الخلفاء الراشدين ، لأن الرسول ﷺ ، وولاة الأمر من بعده سنوا سننا ، هي باختصار (اعتصام بكتاب الله وقوة على دين الله ، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ، ولا النظر فى أمر خالفها ، من اهتدى بها فهو مهتد ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا) (١) .

هذا هو أمير المؤمنين ، وأمير زهادهم أيضا ، الذى كان يتغشى كسرا وزيتا (٢) لأنه يفسر قوله تعالى (فكلوا من طيبات ما رزقناكم بأنها تعنى طيب الكسب لا طيب الطعام) (٣) .

ولنا بعد ذلك أن نتعجب — كما فعل أستاذنا الدكتور النشار — من انصراف المستشرقين عن عمر بن عبد العزيز ، بينما نسجوا قصة خيالية من امارة ابراهيم بن أدهم محاولين — فى تعسف مضحك — أن يجعلوا منه بوذا الثانى (٤) .

٢ — ابو مسلم الخولانى :

ونعثر من بين الذين عاشوا بأرض الشام على زاهد مشهور ، وهو أبو مسلم الخولانى ، فقد جمعت الأخبار الكثيرة عنه بين الزهد وبين معارضة معاوية ، إذ ينقل لنا ابن حنبل كثيرا من مواعظه لحاكم بنى أمية التى يشتد فيها عليه ، ويوجه إليه أعنف العبارات وأقساها .

---

١ — ابن الحكم / سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٣٥ .

٢ — ابن سعد / الطبقات الكبرى ج٥ ص ٣٧٢

٣ — ن. م ص ٣٦٧

٤ — د. النشار / نشأة الفكر ج ٣ ص ٤٢٦

من ذلك أنه صاح بمعاوية وهو جالس على منبر دمشق فقال له : (يامعاوية ، إنما أنت قبر من القبور) ! ! (١) ، فاستخدم القبر كناية عن الموت . ويشرح بعد ذلك معنى الخلافة بأنها ليست جمع المال وتفرقته ، ولكنها فى رأيه إقامة الحق واتباع العدل وأخذ الناس فى ذات الله .

ويسلك أبو مسلم طريق الزهاد فى نبذ الدنيا ، وينعتها بأنها (الخربة) ، فنقرأ له وصفا يشبه ما وصل إلينا من نصوص على لسان زاهدين آخرين يصفون الدنيا بأوصاف مشابهة . فقد أتى خربة فوقف أمامها يتحدث عن أهلها الذين ذهبوا ولم تبق إلا أعمالهم (انقطعت الشهوة وبقيت الخطيئة) (٢) .

كذلك يحوم حول المعانى التى تدور حول التوبة ، والخطيئة . ويصيح فى المسلمين يخاطبهم بنداء (ابن آدم) ، كما فعل الحسن فيما بعد بالبصرة ، فيقول (ابن آدم ! ترك الخطيئة أهون من طلب التوبة) ! ! (٣) .

ومن النظر فى التشابه فى استخدام هذا الأسلوب ، نستطيع تفسيره بتأثير الزهاد فى بعضهم البعض ، ودورانهم حول نفس المعانى . لما نلاحظه من الاتفاق فى الكلمات والعبارات . ومن المحتمل أن الخولانى كان له دوره فى الحياة الروحية بالبصرة أيضا قبل أن ينتقل إلى دمشق ، إذ يذكر ابن سعد أنه من أهل البصرة (٤) .

وقد أورد ابن حنبل فى كتاب الزهد حديثا نبويا يتصل فى طرفه الأعلى من

---

١ - ابن حنبل / الزهد ص ٣٩١

٢ - ن . م ص ٣٩٣

٣ - ن . م والصفحة

٤ - ابن سعد / الطبقات الكبرى ج ٧ ص ٤٤٨

بأبي مسلم الخولاني — وهو قول الرسول ﷺ (ما أوصى الله إلى أن أجمع المال وأكن من التاجرين ، ولكن أوصى إلى أن «سبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ») (١) .

وتمتزج فى شخصية أبى مسلم ملامح شخصية الزاهد بملامح الشخصية الفعالة فى حياة الجماعة الاسلامية . فهو يستنكر ما يراه من مظاهر لا يرضى عنها ، فيطوف ينعى الاسلام ! ! (٢) ولا يخشى معاوية عندما يستدعيه ليوضح له جلية الأمر — أى سبب نعيه للاسلام — وإنما يعنف فى رده عليه ، ويذكره بأنه إذا عمل خيرا جزى به ، وإن عمل سوءا جزى به ، ثم يصرخ فى وجهه : (يا معاوية ! لو عدلت على أهل الأرض كلهم ، ثم جرت على رجل واحـــد لمال جورك بعدلك) ! ! (٣) .

ويضع صاحب (الطبقات الكبرى) زاهدنا فى مرتبة الطبقة الثانية من التابعين . (٤) .

٣ ـ عبد الله بن محيريز (٩٩ هـ = ٧١٧ م)

وأما ابن محيريز ، فإن ابن سعد يعده أيضا من الطبقة الثانية للتابعين بالشام(٤)، وهو من الشيوخ الذين تلقى الأوزاعى منهم، وطالب الأمة بالاقتداء به، وأوجز صفاته بقوله عنه (من كان مقتديا فليقتد بمثله ، فإن الله لا يضل أمة فيها مثله) (٥).

---

١ — ابن حنبل / الزهد ص ٣٩١

٢ — ن. م ص ٣٩٢

٣ — ن. م والصفحة

٤ — ابن سعد / الطبقات الكبرى ج ٧ ص ٤٤٧

٥ — ن. م والصفحة

اشتهر عبد الله بالعبادة ، والاكثار من قراءة القرآن ، واعتزال الفتن وقد ذكر ابن كثير بعد وصفه باعتزال الفتن مباشرة بأنه (كان لا يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) ، فقد يظهر التعارض بين الوصفين ، لأن الاعتزال يعني السلبية ، بينما يطلب مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إيجابية ومجابهة وتصرف إزاء المواقف التي تستلزم تطبيق هذا المبدأ . ولكن ما جاء بترجمة الشيخ بالطبقات الكبرى قد يلقى بعض الضوء على هذا التناقض ما بين العزلة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فقد أورد ابن سعد نصا على لسان عبد الله قال فيه مستنكراً لأحد أعوان بني أمية فيما يرجع لأنه يتضمن نقـداً صريحا لتصرفاتهم (يا أبا إسحاق ! عطلتم الثغور ، وأغزيتم الجيوش إلى الحرم وإلى مصعب بن الزبير) (١) . ونصحه السامع بالحذر ، ويبدو أنه سرعان ما أخبر عبد الملك الذى استدعاه ، وأمره بلزوم الصمت ، وظهرت فى لهجته مسحة من التهديد .

ويختتم ابن سعد هذا الخبر بأن ابن محيريز رأى أنه قد غنم نفسه يومئذ (٢).

ويحتمل إذن أن عبد الله بن محيريز آثر العزلة بعد هذا الحادث . ولكننا نراه ـ مع هذا ـ ينكر لبس الحرير حتى ولو كان بغرض التزين لمقابلة أمير المؤمنين . ويعلق ابن محيريز بقوله (لا تعدل بخوفك من الله خوف أحد من المخلوقين)(٣) فهل اكتفى بتطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى نطاق أضيق حيث لا يتعدى الوعظ والنصائح بدلا من التعرض لحكام بنى أمية ؟

ولكن خوضه فى الحياة العامة لم يمنعه من الاستغراق فى العبادة حتى (كان

---

١ ـ ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ ٧ ص ٤٤٧

٢ ـ ن . م والصفحة

٣ ـ ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٨٥

يفرش له الفراش فلا ينام عليه) واشتهر بعبادته بين أهل الشام حتى وصفه أحدهم بأنه (إن يفخر علينا أهل المدينة بعابدهم ابن عمر ، فإنا نفخر عليهم بعابدنا عبد الله بن محيريز)(١) .

ترابطت إذن حلقات الزهاد بين الأمصار المختلفة وتبادلت التأثيرات بينها وتألفت من شيوخنا مجموعة مزدهرة، أصبحت عنوانا على الاقتداء السليم بطريقة السابقين الأولين، ولمعت بالشهرة بين المسلمين كالنجوم تزدان بها حياة الأمصار.

ولكن ابن محيريز رفض الآثار المترتبة على هذه الشهرة . فقد ذهب مرة ليشتري ثوبا ، فرفع صاحب المتجر السعر . ولكن عندما أنبأه زميل له بأن الراغب فى الشراء هو ابن محيريز ، انصرف مسرعا ورفض الشراء ، وتعليل انصرافه أنه أتى السوق ليشترى بماله لا بدينه ! ! (٢) .

ويتضح لنا هنا الحرص على تطبيق المبدأ ، ورفض ما يجنيه من وراء الشهرة من منافع مادية .

٤ - بلال بن سعد (١٢٤ هـ = ٧٤٢ م) :

ومن شيوخ الشام أيضا بلال بن سعد ، الذى كان من الزهاد الكبار والعباد الصوام القوام (٣) . وكان بلال من رجال الحديث الثقات (٤) ووصف بأنه شامى تابعى ثقة(٥) ، وقد جاء ضمن الأقوال التى نقلها لنا ابن حنبل فى (كتاب

---

١ - ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٨٥

٢ - ن. م ص ١٨٦

٣ - ن. م جـ ٩ ص ٣٤٨

٤ - ابن سعد / الطبقات جـ ٦ ص ٧

٥ - ابن كثير / البداية جـ ٩ ص ٣٤٨

الزهد) سلسلة الاسناد التالية : ابن المبارك عن الأوزاعى عن بلال بن سعد(١).

فتح عينيه على حال المسلمين فى عصره ، وأحزنه أن يرى الفارق بينهم وبين السابقين فيقول (لقد أدركت أقواما يشتدون بين الأغراض - كناية عن النشاط - ويضحك بعضهم إلى بعض ، فإذا غشيهم الليل كانوا رهبانا) (٢).

وأثر بلال فى الأوزاعى الذى كان يكتب ما يقوله ويصفه (ما رأيت واعظا قط مثله) (٣) . ولهذا نقل لنا عنه كثيرا من مواعظه التى تتشابه مع مواعظ الحسن البصرى فى حدة النبرات، وانتقاء الكلمات التى تؤدى إلى الهدف من أقصر طريق . إنه يصرخ فيهم بهذه الأوصاف لكى يهز فيهم الوجدان ، ويحيى فيهم موات النفوس ، منبها إياهم بأن زاهدهم راغب ، وعالمهم جاهل ، وعابدهم مقصر (٤) ، ويحذر أصحاب الشهرة من الزهاد الذين يدعون الولاية لله بينما هم أعدائه فى السر ، ويظهرون للناس خشية الله ، بينما قلوبهم فاجرة (٥) .

لذلك حاول بلال بن سعد التمسك الشديد فى تصرفاته بالمغالاة فى العبادة لكى يصبح قدوة حقيقية . فكان يقوم الليل ، فإذا نعس فى الشتاء ألقى بنفسه فى الماء البارد !! ولما عاتبه البعض أجاب (إن ماء البركة أهون من عذاب جهنم (٦) .

ويقول فى تحذيرهم أيضا (رب مسرور مغبون ولا يشعر ، يأكل ويشرب ويضحك ، وقد حق له فى كتاب الله أنه من وقود النار) (٧) .

---

١ - ابن حنبل / الزهد ص ٣١٥
٢ - ن . م ص ٣٨٥ وابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٤٩
٣ - ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٤٨
٤ - ابن حنبل / الزهد ص ٣٨٥
٥ - ابن كثير / البداية جـ ٩ ص ٣٤٨ وابن حنبل / الزهد ص ٣٨٥
٦ - ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٤٨
٧ - ابن حنبل / الزهد ص ٣٨٦

ويطول هذا التحذير قليلا من مصدر آخر ، إذ يكمن العبارة بكلمات رنانة نرى فيها تشابها مع تحذيرات الحسن البصرى ، إذ ينتقل فيها إلى التخصيص ، وكأنما يحدث كل شخص على حدة (فيا ويل لك روحا ! يا ويل لك جسدا ! فليبك ، وليبك عليك البواكى لطول الأبد ! !) (١) .

وقد مر بنا تعريف أحد الزهاد الأوائل للذكر . ويبدو أنهم فهموه على هذا النطاق الواسع ، فهو أوسع شمولا من الاقتصاد على الذكر باللسان ، وجعلوا منه مفهوما حيا متفاعلا مع المسلمين فى حياتهم اليومية ، وفى علاقاتهم بعضهم ببعض . وأيد بلال هذا المعنى فى تعريفه للذكر ، فالذكر ذكران (ذكر الله بلسان حسن جميل ، وذكر الله عندما أحل وحرم أفضل) (٢) .

وهنا نرى الزهد يقترن بالفقه ، بل ويفضل ابن سعد فى هذا النص الفقه صراحة . إنه ينظر إلى التراث الاسلامى كوحدة ، ويدمج أحكام الظاهر والباطن فليس النظر فى أحكام الحلال والحرام إلا بواسطة الفقهاء .

أما عن تفسيره الآيات القرآنية ، فقد نفث فيها من اتجاهه الروحى بجلاء . وهو يختار كلمات الله التى تحذر عباده، فى مثل قوله تعالى (أم حسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) ؟

يتلقى بلال هذه الكلمات الإلهية ويتجه بها إلى المسلمين منبها لهم ومعنفا إياهم (أترغبون فى طاعة الله لدار معمورة بالآفات ؟ ولا ترغبون وتنافسون فى جنة أكلها دائم ، وعرضها عرض الأرض والسموات ؟ ! !) (٣) ثم يعمق من معنى

---

١ – ابن كثير / البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٤٨

٢ – ن . م ص ٣٤٩

٣ – ن م والصفحة

التهديد ، فيرى أنه وإن كان الله تعالى يغفر الذنوب للتائب منها ، فإنه (لا يمحوها من الصحيفة حتى يوقف العبد عليها يوم القيامة) (١) ، ألا ينبغى بعد هذا للعبد أن يخجل ؟ عليه أن لا ينظر إلى صغر الذنب بل عليه أن ينظر إلى من عصى! (٢)

وبالرغم من صيحاته العنيفة الغاضبة ، فقد أحبه أهل دمشق ولجأوا إليه يستقون . فوقف فيهم يطلب منهم أولا الاقرار بالذنوب !! فلما أقروا بذنوبهم دعا ربه (اللهم إنك قلت : ما على المحسنين من سبيل . . وقد أقررنا بالاساءة فاعف عنا ، واغفر لنا) ، فسقوا يومهم هذا (٣) .

وينبهنا بلال إلى فكرة خلود الانسان - باعتبار الحياة الأخرى - فيذكرنا بالانتقال من الأصلاب إلى الأرحام ، ثم إلى الدنيا ، فالقبور فإلى الموقف . . (ومن الموقف إلى الجنة أو النار) (٤) .

ولعل فى المقارنات التى يعقدها شيوخ الزهد بين أجيالهم التى عاصروها، وبين الأجيال السابقة عليهم ، تجعل لهم دورا جديدا فى محاولة التمسك بالاقتداء بالسلف ، ومعارضة الاتجاهات الطارئة التى تحمل فى طياتها معالم الروح الأجنبية التى من شأنها تبديل المعالم التى شبوا عليها ورأوها . وكان بلال بن سعد قد رأى الاتجاه نحو علم الكلام بدأ يزحف على المسلمين فأزعجه ترك المسلمين للأعمال الصالحة كالصلاة وفعل الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهو شأن الناس الذين أدركهم وكانوا يتحاثون عليها ، ثم يقول (أما أنتم اليوم ،

---

١ - ابن كثير / البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٥٠

٢ - ن ، م ص ٣٤٩

٣ - ن . م والصفحة

٤ - ن . م والصفحة وابن حنبل / الزهد ص ٣٨٥

فتحاثون على الرأى) (١) .

الأوزاعى (١٥٧ هـ = ٧٧٣ م) :

هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد شيخ الإسلام وعالم أهل الشام (٢) .

اشتهر بأنه فقيه أهل الشام ، كما وضع فى مجال الزهد بالمقارنة بسفيان الثورى فقيل إنه مع تساويهما فى المرتبة ، إلا أن الأوزاعى (كان رجل عامة وأما الثورى فكان رجل خاصة نفسه) (٣) .

وسلك الأوزاعى سبيل الزهد فى حياته أيضا فلم يمسك شيئا من نصيبه فى بيت المال ، بل كان ينفقه فى سبيل الله وفى الفقراء والمساكين ، ولم يقتن شيئا من العقار . وقد رفض تولى القضاء حين عرض عليه (٤) .

وأصر فقيهنا عهدى بنى أمية وبنى العباس ، ودارت مناقشة بينه وبين عبدالله بن على عم السفاح ، يهمنا أن نستشف من خلالها أسلوب شيوخ السلف فى الرد والمناقشة . ولعله نفس الأسلوب الذى تمسك به ابن حنبل بعده .

إن الخليفة طلب رأى الأوزاعى فى أمور ثلاثة : إزالة حكم بنى أمية وهل يدخل فى دائرة الجهاد والرباط فى سبيل الله ؟ ومدى إحلال دمهم وأموالهم .

أجاب الأوزاعى عن السؤال الأول بالحديث الذى نصه (إنما الأعمال بالنيات ..) . وقدم رأيه عن السؤال الثانى من خلال الحديث الذى ينص على

---

١ ــ ابن حنبل / الزهد ص ٣٨٤

٢ ــ الذهبى / سير أعلام النبلاء مجلد ٢ قسم ١ ورقة ٣٠

٣ ــ ن . م ورقة ٣٧

٤ ــ ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١١٨

أنه (لا يحل دام امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى، والتارك لدينه المفارق للجماعة) . أما عن أموالهم ، فأجابه بصراحة قاطعة : إن كانت فى أيديهم حراما ، فهى حرام عليك أيضا ، وإن كانت حلالا فلا تحل لك إلا بطريق شرعى (١) .

ونرى من إجابات هذا الزاهد الفقيه تمسكا شديداً بالعلم النبوى بالرغم من أنه كان يوجس خيفة من عبد الله أثناء الحديث بينهما (وكان ينتظـــر رأسه أن تسقط) لأن حراس الخليفة على جانبيه معهم السيوف مصلته (٢) . ولكن خشيته لم تمنع مجاهرته بصريح رأيه ، مستندا على النص الصحيح المنقول . ثم إن هذا الموقف يكشف عن منهجه ، فهو الذى ينصح بالوقوف حيث يقف السلف ومتابعة آثارهم وإن رفض الناس . وحذر من أقوال الرجال وإن زخرفوه وحسنوه (٣). لهذا فإن من الخطأ ـ فى رأى الذهبى ـ ما ذهب إليه إسحق بن راهـويه حـين قال (إذا اجتمع الثورى والأوزاعى ومالك على أمر فهو سنة) (٤) . لأن الأوزاعى نفسه يرفض ذلك وينادى باتباع العلم الذى جاء عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقد اعترض الذهبى على هذا الرأى لأن السنة ما سنه الرسول والخلفاء الراشدين من بعده ، ويستطرد قائلا (وإنما مراد إسحق أنهم إذا اجتمعوا على مسألة فهو حق غالباً) (٥) .

وعاش الأوزاعى فى تلك الفترة التى لا نجد اختلافا كبيراً فيها بين الزهاد

---

١ ـ ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١١٨

٢ ـ ن. م والصفحة

٣ ـ ن. م ص ١١٧

٤ و ٥ ـ الذهبى / سير أعلام النبلاء مجلد ٦ قسم ١ ورقة ٣٨

والوعاظ ، فقد كان دأبه القيام بالوعظ . وبلغ من عمق وعظه حداً كان يبكي الناس معه ، ويحرص على أن يصبح قدوة إذ يقول (كنا قبل اليوم نضحك ونلعب ، أما إذا صرنا أئمة يقتدى بنا ، فلا نرى أن يسعنا ذلك ، وينبغي أن نتحفظ) (١) .
ولهذا كان كثير العبادة ، قليل الضحك ، لم ير مقهقها قط ، طويل الصمت ، شديد الاجتهاد فى العبادة .

واقتدى بالسلف فى عباداته ، متبعا لما سمع منهم ، فإذا صلى الصبح أخذ يذكر الله حتى تبزغ الشمس ، لأن السلف دأبوا على ذلك ثم يتذاكرون الفقه والحديث بعدها . وقد فسر الآية (ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا ، إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا .

إن إطالة القيام فى صلاة الليل تهون عن صاحبها طول القيام يوم الساعة .
كذلك عرف فقيهنا بكثرة البكاء فى صلاته حتى يبتل مكان سجوده .

وارتباط الأوزاعى بالسلف جعله يحض على السنة وسلوك طريقها والصبر عليها ، حرصا على أخذ العلم عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وطرح ما عداها ناهياً عن الجدل المفضى إلى إعاقة العلم والعمل .

ويبدو أن زاهدنا تضمخ بطابع الحزن أيضاً ، فمن النصوص التى أوردها ابن كثير نراه يخوف سامعيه من المصير المنتظر ، ويحذرهم من لقاء الله والقيام بين يديه ، وهو المصير المحتوم لهم جميعاً . كما ينبه القوم إلى حقيقة الرحيل من هذا العالم ، كما فعل أصحاب القرون الخالية ، الذين مضوا من قبل تطويهم السنين طيا ، مستخدما الأساليب القرآنية فى التشبيه ، مستعيرا من الآيات ما يخدم هذا

---

١ — ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١١٩

الغرض . إنه يصف السابقين الذين نسوا الموت والعمل للآخرة (. . فخردوا الجبال ، وجابوا الصخر بالواد ، وتنقلوا فى البلاد، مؤيدين ببطش شديد، وأجساد كالعماد) (١) . ثم أصبحوا بعد ذلك عبرة . وينهى السامعين عن خداع الأمل فى الحياة الدنيا ، ويحض على العمل للعالم الآخر .

أما عن موقف الأوزاعى إزاء القدرية الذى ألمحنا إليه فى بداية حديثنا عنه، فإن من السهل أن نتثبت من صحة رأى ابن تيمية الذى قال فيه إن إمام الشام كان معانداً لهم ، وفى هذا الصدد ، نعثر على نص هام أورده أبو بكر بن عبد الله (٤٥٣ هـ = ١٠٦١ م) صاحب كتاب (رياض النفوس) نستدل منه على أن الشيخ عالج موضوع (الأمر والإرادة والاختلاف بين الاثنين) (٢) ، وذلك قبل السالمية بوقت طويل .

وفى خلال المناقشة التى دارت بين القدرى والأوزاعى ، سأله الأوزاعى ثلاثة أسئلة وهى (هل علم أن الله عز وجل قضى بما نهى عنه ؟ وأنه حال دون ما أمر به ؟ وأنه أعان على محرم ؟) . وقد أجاب القدرى إنه لا علم له بهذه الحالات الثلاثة ، بل وقف مشدوها فى كل مرة يسأله فيها الأوزاعى .

أما الاجابة عن الأسئلة الثلاثة — كما يراها فقيهنا — فهى أن الله تعالى (نهى آدم عن أكل الشجرة وقضى عليه بأكلها ، وأنه أمر إبليس بالسجود لآدم وحال بينه وبين ذلك ، وأنه تعالى حرم الميتة وأعان المضطر على أكلها) (٣) .

---

١ — ابن كثير / البداية والنهاية ج ١٠ ص ١١٩ . وينقل ابن كثير مادته من ابن أبى الدنيا صاحب كتب الرقائق والزهد .

٢ — د. النشار / نشأة الفكر ج ١ ص ٦٤٤ ط ١٩٦٦

٣ — ابو عبد الله المالكى / رياض النفوس

٦ - ابو سليمان الداراني (٢١٥ هـ = ٨٣٠م) :

إنه من المحدثين أيضاً ، ولكن ابن الجوزى يذكر أنه اشتغل بالتعبد (١) . ويقول صاحب الحلية إنه أسند القليل ، ومن مفاريده حديث القوم الذين تخلقوا ببعض أخلاق حميدة من الجاهلية . فأقرهم الرسول صلى الله عليه وسلم (٢) . كما سيأتى فى السياق .

إنه من المطبقين لمبدأ قطع كل علاقة تصرف العباد عن الله فيقـــول (كل ما شغلك عن الله عز وجل من أهل ، ومال ، وولد فهو عليك شؤم (٣) . من أجل ذلك ، فإن أقرب ما يتقرب به إلى الله أن ينزع العابد من قلبه ما يشغله من متاع الدنيا ونعيم الآخرة ، إلا هو عز وجل (٤) .

والدارانى ممن عانى كثيراً من المجاهدات ، متهجدا بالليل قواما ، ويرى فى طاعة الله لذة لا يجدها أهل اللهو بلهوهم (٥) ، ولكنه متبع للسلف فى مجاهداته ، فلا يقبل منها إلا ما شهد بصحته الكتاب والسنة ، ويعى إلى رزقه أولا فيحصل على لقمة العيش ، ثم يتعبد ، مستنكفا ممن ينتظر الطعام من أسنان آخر . وهو يرجو عفو الله عن خطاياه فيكره الموت آملا أن يمتد به العمر لاحتمال توبته . ولهذا فإنه يغلب عليه محبة الله عن الخوف منه لأنه لا يمكن للحبيب أن يعذب أحبابه (٦) . ويبدو أن مثل هذه الآراء أخذت طريقها إلى الصوفية للحديث عن مقام المحبة .

---

١ - ابن الجوزى/ صفوة الصفوة ج ٤ ص ٢٠٦

٢ - ابن نعيم / الحلية ج ٩ ص ٢٧٩

٣ - ابن الجوزي / صفة ج ٤ ص ١٩٨

٤ - ن . م ص ٢٠٢

٥ - ن . م والصفحة

٦ - ن م ص ٢٠٤ / ٢٠٥

ومن الواضح من واقع أقواله التي أوردها الأصفهاني أنه أسقط الأسباب ، وعارض القدرية لأنه يعد العمل - عمل العابد - نعمة من الله ، فلا ينبغي للعبد أن يعجب بعمله ، ويقول (فأما من زعم أنه مستعمل فبأى شيء يعجب ؟!) (١)

وهو ممن يرى إخفاء العبادة عن الغير وعدم الإفصاح ، عنها لأنها سر بين العبد وربه ، فلا ينبغي أن يعلن عنها ويجاهر بالذي بينه وبين ربه ، الأمر الذي جعله يكره لبس الصوف ، لأنه نوع من التظاهر وأجاز لبسه في حالتين فقط هما : الاضطرار بسبب الفقر وأثناء السفر (٢) ، وإننا لنعثر في رأيه هذا على نوع من النقد للصوفية . كما يعطينا دليلا على أن الزهاد السلفيين - وهو إمام من أئمتهم - كرهوا الاعلان عن الزهد واتخاذ السمات البارزة لاظهار الزهد الحقيقي في القلب (ولا يجوز لأحد أن يظهر للناس الزهد والشهوات في قلبه (٣) . ويفضل الداراني لبس القطن ليستتر به أبصار الناس عن الزهد ، لأنه إذا أعلنه للناس بلبس الصوف فكأنه يبدى لهم صالح عمله ويبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد !! (٤) .

ولئن كان الداراني من أبرز شيوخ الشام ، إلا أنه كان له دوره في التأثير في الجنيد شيخ بغداد ، فنرى الثاني ينقل عنه بعض أقواله مستحسنا لها ، ولا سيما آراءه في تفضيل الاشتغال بالله عن الناس ، وحثه على طلب الدنيا حلالا دون أن يكون مفاخراً ومكاثراً ، بل بغرض الاستغناء عن المسألة والناس وتعريفه للغنى بأنه في القناعة وليس في طلب المال وجمعه . ورأيه في الراحة حيث تكمن في

١ - ابو نعيم / حلية الأولياء ج ٩ ص ٢٦٣
٢ - ن. م ص ٢٧٥
٣ - ابن كثير / البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٥٨
٤ - ابن الجوزى / صفة ج ٤ ص ٢٠٦

القلة ــ وليس فى الكثرة ، وإن مصدر الكرامة هو التقوى وليس الخلق ، وأخيراً فى التنعم الحقيق ليس فى الملابس الرقيقة أو الطعـــام الطيب أو المسكن المنيف (وإنما هو فى الإسلام والإيمان والعمل الصالح والستر والعافية وذكر الله) (١)

ونرى التطابق فى عبارتى أبى سليمان والجنيد فى إعلانهما عن منهجهما فى التمسك بالكتاب والسنة ، فقد نقل الجنيد عنه قوله (ربما يقع فى قلبى النكتة من نكت القوم ، فلا أقبلها إلا بشاهدين عدليين : الكتاب والسنة) (٢) .

وتتلخص نظرية الدارانى فى الزهد فى إرتباط الخشية من الله بمحبته .

حقا لقد أعلن تمسكه بنظرية الحب ، والعفو ، والكرم الألهى التى تنجيه من عذاب الله عز وجل إذ يقول فى دعائه (وعزتك وجلالك لئن طالبتنى بذنوبى لأطالبنك بعفوك ، ولئن طالبتنى ببخلى لأطالبنك بكرمك ، ولئن أمرت بى إلى النار لأخبر أهل النار أنى أحبك) (٣) ! !

ولكنه مع هذا الاطمئنان لحب الله وعفوه وكرمه ، ويرى أن (أصل كل خير فى الدنيا والآخرة الخوف من الله عز وجل) (٤) . ويتخذ من الخوف وسيلة لتربية القلب وإصلاحه . ولهذا ينبغى أن يغلب العبد عامل الخوف على عامل الرجاء لأنه (إذا غلب الرجاء على الخوف فسد القلب) (٥) .

ويمضى فى شرح نظريته الأخلاقية . فيعبر عن ثقته الشديدة بقوة إيمانه التى

---

١ - ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٥٧

٢ - ن. م ٢٥٥ وصفة ص ٢٠٤

٣ - ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٥٧

٤ - ن. م ص ٢٥٦

٥ - ن . م والصفحة وابن قتيبة / عيون الاخبار جـ ٢ ص ٣٥٧

تساعده على قمع هوى النفس وتعمق إخلاصه فإذا (أخلص العبد انقطعت عنه الوساوس) (١). واستطاع أن يتغلب على الشيطان، ويقول (ما خلق الله خلقاً أهون على من إبليس، فلولا أن الله أمرني أن أتعوذ منه ما تعوذت منه أبداً ولو تبدى لي ما لطمت إلا صفحة وجهه) (٢). ولكن ليس معنى هذا الغرور، إلا أنه يخبرنا عن نفسه بأنه لو اجتمع الناس كلهم على أن يضعوه كاتضاعه عن نفسه ما أحسنوا (٣).

أما عن رأيه في الدنيا والآخرة فإننا نراه يميل إلى فكرة الزهد الإيجابي، ونعني به مطالبته بالتفاعل بين الدارين، فلا يترك الدنيا ويهملها وإنما يعمل فيها من أجل الآخرة. وقد مر بنا رأيه في تفضيله الكسب عن الحاجة للناس وسؤالهم. ويؤيد هذا المعنى قوله (ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يقت لك، ولكن ابدأ برغيفيك فاحذرهما ثم تعبد) (٤).

أما عن نظرته إلى طبيعة العمل في ذاته فهو يقول (ما أحسب عملا لا يوجد له في الدنيا لذة يكون له في الآخرة ثواب) (٥)، فيتضح من ذلك رأيه في التفاعل والالتحام في الصلة بين الدارين، ويؤكده بقوله أيضاً (ليس الزاهد من أبقى غم الدنيا واستراح منها. أما الزاهد من ألقى غمها وتعب فيها لآخرته).

---

١ – ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٥٧

٢ – ن. م والصفحة

٣ – ابن نعيم / حلية الأولياء جـ ٩ ص ٢٧٣ وابن الجوزي / صفة جـ ٤ ص ٢٠٣

٤ – ن. م ص ٢٠٤ والحلية جـ ٩ ص ٢٦٤

٥ – الحلية جـ ٩ ص ٢٦٨

ويبدو أن الداراني اهتم كمحدث - سمع من سفيان الثوري وغيره(١) بأحاديث الرقاق والعظات ، فقد انفرد بالحديث الذي يصف قوما اتصفوا وقت الجاهلية بخمس خصال هي (الشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء ، والصدق في مواطن اللقاء ، والرضا بمر القضاء ، والصبر عند شماتة الأعداء) . واستكمالا للحديث ، ينقل لنا فيها رأى الرسول ﷺ فيهم حيث يقول (علماء حكماء ، كادوا من صدقهم أن يكونوا أنبيـــاء . ويذكر أبو نعيم أن هذا الحديث من مفاريده ، وتفرد به عنه تلميذه أحمد بن أبي الحواري (٢) .

وهكذا نرى الداراني المحدث بعد أن تبين لنـا ملامح زهده حيث يحض على كسب الحلال ، ويراعى الاحتياط الشديد في طلب الحـــلال . وهو يشبه هنا نظريات غيره من الزهاد كابن حنبل وغيره .

الأصل إذن هو الإسلام ، وقد حرص هؤلاء الزهاد على تطبيقه بعنــاية ، فأين المؤثرات المسيحية في كل هذا ؟

لقد كان الداراني يرقب الرهبان حبا في الاستطلاع ، إذ يبحث في أحوالهم ويقارن بين طريقتهم في الزهد وطريقـــة زهاد المسلمين . وكان قد أحس بهذه الفرحة التي سقناها في حديثه عن القلب . فاذا ما قارنها مع أحوال الرهبان، رأى أنهم قاموا على ما هم فيه - من انقطاع وتعبد - لشيء يجدونه هم أيضا في قلوبهم لأنه قد يعجل لهم ثوابهم في الدنيا (وليس لهم في الآخرة ثواب) (٣) .

فإذا قارنا بين فرحة القلب وخشيته وخوفه ، نعثر من بين أقواله على عبارة

---

١ - ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٥٥

٢ - ن . م ص ٢٧٩ وصفة جـ ٤ ص ٢٠٨

٣ - أبو نعيم / حلية الأولياء جـ ٩ ص ٢٧١

غامضة تتناول القلب أيضا، ولكنه فى مجال الخشية والخوف والروعة على مايبدو. وننقل هنا العبارة بنصها حيث سئل : أيأتى على القلب ساعة لا يرتاح ؟ فأجاب (لا أعرفه ، إلا من حدة فكرة ! قفزا لقط على السطح - يعنى قلب ابن آدم - يقول : لا بد من روعة ! !) (١) .

ونسأل بدورنا : هل هى روعة المحبة أو روعة الخشية ؟

ربما كان الدارانى لا يفصل بين الروعتين ، لأنه أدمج دائرة المحبة بدائرة الخوف ، فهو يبكى إذا جن الليل وهدأت العيون وأنس كل خليل بخليله (٢) . ويمضى فيصور لنا كيف جرت دموعهم على خدودهم متخيلا إشراف الجليل عليهم ، يسألهم عن سبب بكائهم (هل أخبركم أحد أن حبيبا يعذب أحباءه ؟) . ونفهم من هذا أن شيخنا يميل الى ترجيح نظرية المحبة الإلهية، فإن قلبه يخلو من محبة غير الله فيقول (وما فى الأرض أحد أجد له محبة ، ولكن رحمة) ! ! (٣) . من أجل هذا ، لما شكى له تلميذه ابن أبى الحوارى شغله بامرأته ، أجابه (إن علم الله من قلبك أنك تريد الفراغ له فرغك ، وان كنت إنما تريد الراحة منها تستبدل بها ، فهذه حماقة) ! ! (٤) .

ويجمل الدارانى مذهبه فى الأخلاق فى هذه العبارة الموجزة التى يصف فيها جلساء الرحمن يوم القيامة الذين استحقوها بخصال باقية فيهم وهى (الكرم ، الحلم والعلم ، الحكمة والرحمة ، الرأفة والفضل والصفح والإحسان والعطف والبر واللطف) (٥) .

---

١ - ابو نعيم / حلية الأولياء ج ٩ ص ٢٦٥

٢ - ابن قتيبة / عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٩٧ وابن الجوزى / صفة ج ٤ ص ٢٠٤

٣ و ٤ - ابن قتيبة / عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٥٧ و ص ٣٦٣

٥ - ابو نعيم / حلية الأولياء ج ٩ ص ٢٦٦

وقد وضح لنا بعد عرضنا لأفكار الزهد عند الدارانى وغيره ارتباط الزهاد فى الأصول العامة ، لأن النصوص جرت عندهم أذواقا ومواجيد متشابهة . ومن العجب أننا نجد ابن تيمية - وبينه وبين الدارانى عدة قرون - يردد العبارة التى تعبر عن الإحساس بالمتعة من العبادة نفسها . فقد وجد ابن تيمية فى عبادة الله لذة تقربه من الإحساس بلذات أهل الجنة ، ونجد عبارة تكاد تتشابه عند الدارانى بقوله (أنه يستمد بالقلب أوقات يرقص فيها طربا فأقول : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا ، إنهم لفى عيش طيب) !! (١) . ثم أنه يكرر أيضا نفس السبب الذى من أجله حرص الزهاد السابقون على البقاء فى الدنيا (فولا قيام الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا ، وما أحب الدنيا لغرس الأشجار ولا لكرى الأنهار ، وإنما أحبها لصيام الهواجر وقيام الليل) (٢) .

ويرى أستاذنا الدكتور النشار أن أبا سليمان الدارانى أول من استخدم مصطلح (أهل الليل) لكى يضعه مقابلا لأهل اللهو (٣) ، وهذا اتجاه يعبر به الدارانى عن رغبته فى دعوة أهل اللهو لتجربة طريق الزهاد فربما يجدون من اللذات ما يصرفهم عن لهوهم إلى حياة أخرى ، حياة العبادة التى عرف مذاقها وأخذ يدعو لها . إن الدارانى هنا يطبق قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بأسلوب جديد .

٧ — **اما تلميذه احمد بن ابى الحوارى** (٢٤٠ هـ أو ٢٤٦ هـ = ٨٥٤ أو ٨٦٠ م) ، فقد تابع شيخه فى كثير من آرائه ونقل لنا معظم أقواله ، وهذا

---

١ — ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٥٧

٢ — ن . م ص ٢٥٧

٣ — د . النشار / نشأة الفكر جـ ٣ ص ٤٣١

يعني أنه كان يلازمه في معظم الأوقات ملازمة المريد للشيخ فتأثر به وحفظ أقواله وآراءه .

وقد تظهر لنا مواضع الاختلاف في الأفكار من خلال المناظرات التي كانت بينهما . منها المناقشة في تفسير الحديث (أول زمرة تحشر إلى الجنة الحامدون لله على كل حال) وقد فهم ابن أبي الحواري منه الاقتصار على الحمد باللسان ، فأنبه شيخه (ويحك ! ليس هو أن تحمده على المصيبة وقلبك معتصر عليها ، فإذا كنت كذلك فارج أن تكون من الصابرين ، ولكن أن تحمده وقلبك مسلم راض ! !) ( ) . وأنبه شيخه مرة أخرى عندما تنهد أمامه ، قال (إنك مسئول عنها يوم القيامة ، فإن كانت على ذنب سلف فطوبى لك ، وإن كانت على فوت دنيا ، أو شهوة ، فويل لك) (٢) .

وفي رواية أخرى ، يظهر تفرد المريد عن شيخه في المفاضلة بين الصبر والرضى إذ كان من رأي ابن أبي الحواري أنه الرضى ، فصرخ الشيخ وأغمي عليه . فلما أفاق قال (إذا كان الصابرون يوفون أجورهم بغير حساب ، فما ظنك بالأخرى ، وهم الذين رضي عنهم) (٣) .

أما آراءه التي عبر بها عن نفسه فهـــو نظرته إلى القرآن . أنه يعده المنبع الأصلي للخوف ، وكما ينبغي أن يكون باعثا للفرح أيضا لأن حافظه يحمل في صدره كلام الله عز وجل . ثم يبدي عجبه من حفاظ القرآن الذين يشتغلون

---

١ ـ أبو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ١٠

٢ ـ ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٠٨

٣ ـ ن م. ص ٢٥٦

بأمور الدنيا ، ويستطيعون النوم ، بينما يتلون كلام الله !! (١) .

ولعل وصف الجنيد له بأنه (ريحانة الشام) (٢) تدلنا على انفراده بعد وفاة الداراني بالأولوية في مجال الحياة الروحية بالشام .

وقد ألتقى ابن أبي الحواري بالإمام أحمد بن حنبل ودار بينهما الحديث عن تفسير قول الداراني (إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علما !!) (٣) وتعجب الإمام أحمد من هذا القول . ويبدو أنه طلب ما يدعمها ، وحاول أن يتذكر حديثاً بها المعنى وهو (من عمل بما يعمل ورثه الله علم ما لم يعلم) ، فسر ابن حنبل وأيد صدق المعنى (٤) .

ونستطيع أيضاًالاستنتاج من هذه الواقعة ، تبادلالآراء بين الزهاد والمحدثين والتقاء بعضهم ببعض فإن الداراني سمع الحديث من سفيان الثوري وغيره (وروى عنه أحمد بنأبي الحواري وجماعة) (٥) . ووصف الأخير أيضاً بأنه

---

١ - ابن الجوزي / صفة الصفوة ج ٤ ص ٢١٢

٢ - ن. م. والصفحة

٣ - ابو نعيم / حلية الأولياء ج ١ ص ١٤

٤ - ن. م. والصفحة ويقول أبو نعيم بشأن الحديث أعلاه (ذكر احمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام ، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي صلى الله عليه وسلم فوضع هذا الاسناد - وهو عن يزيد بن هارون عن حميد الطويل عن أنس بن مالك - لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الاسناد عن احمد ابن حنبل

٥ - ابن كثير / البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٠٥

ثقة (١)، وكان معظما للسنة فيقول (من عمل عملا بلا اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فباطل عمله) (٢).

٨ - سهل التستري (٢٨٣ هـ = ٨٩٦ م):

ارتبط سهل التستري أيضاً بأصحاب الحديث ارتباطاً وثيقاً إذ كانوا موضع إعجابه، لأنه يرى أن من يريد الدنيا والآخرة، عليه بكتابة الحديث. وينصحهم بألا يلقوا الله إلا ومعهم المحابر !! أي يظلوا طلابا للحديث، كتابا له حتى موتهم: ولما سئل عن العمر الذي ينبغي للرجل أن يتوقف فيه عن كتابة إجابته (حتى يموت ويصب باقي حبره في قبره) !! (٣).

إن هذا التمسك من أحد أصحاب الأحوال والكرامات — والذي يعد من أكبر مشايخ القوم كما يصفه ابن العماد — يفسر لنا حرص المدرسة السلفية على وضعه في نسق أصحاب المواجيد الذين تعتز بانتسابهم إليها. وكان ابن تيمية يشيد به.

لقد أقام المذهب على طريقة الاقتداء، وأعلن أن أصول الزهد الحقيقي تقوم على سبعة أسس في (التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام والتوبة، وأداء الحقوق) (٤). والنص يوضح كيف ربط بين العقيدة وقواعد الأخلاق.

ويرى التستري في منهج الاقتداء السلامة من أتباع الهوى، لأن (كل فعل

---

١ - ابن حجر العسقلاني / تهذيب التهذيب جـ ١ ص ٤٩

٢ - الرسالة القشيرية ص ١٧

٣ - ابن العماد / شذرات الذهب جـ ٢ ص ١٨٢

٤ - ن. م ١٨٣ والشاطبي / الاعتصام جـ ١ ص ١١٤

يفعله العبد بغير اقتداء طاعة كان أو معصية ، فهو عيش النفس ، يعني باتباع الهوى) (١) . وهو يقصد بمنهج الاقتداء هنا السنة ، لأنه في تفسيره لقول الله تعالى (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ـــ ٢٦٩ / البقرة) قال سهل (الحكمة إجماع العلوم وأصلها السنة) (٢) . كذلك وقف في عناد ضد أهل الأهواء والبدع المخالفين للسنة (٣) .

ويتضح مذهبه الأخلاقي بصفة خاصة عند حديثه عن التوكل ، حيث يفوض الأعمال كلها لله ، لأنها تتم بتوفيقه عز وجل ، مفتاح التوفيق الدعاء والتضرع (٤) ، ثم يردد (أمس قد مات ، واليوم في النزع ، وغداً لم يولد) (٥) .

كذلك يفسر قوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ـــ الطلاق / ٢) بأن العبد ينبغي ألا يدعي الحول والقوة ، بل يتبرأ منها ويجعلها لله تعالى وحده . أما الآية (ومن يتوكل على الله فهو حسبه ـ الطلاق / ٣) فقال (لا يصح التوكل إلا لمتق ، ولا يتم التقوى إلا لمتوكل لقوله تعالى (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ـ المائدة / ٢٣) (٦) .

ولكن ، إلى أي مدى يؤيد شيخنا هذا التوكل ؟

هل هو التوكل الذي يؤدي إلى السلبية ويحض على القعود عن التكسب ؟

إنه سرعان ما يعود إلى السنة يستجلي منها الأمر ، ثم يربط في قاعدة محكمة

---

١ – الاعتصام ص ١١٤

٢ – التستري / تفسير القرآن العظيم ص ٣٣

٣ – ن . م ص ٥٩

٤ – ابن العماد / شذرات الذهب ج ٢ ص ١٨٣

٥ – ابن الجوزي / المنتظم ج ٥ قسم ٢ ص ١٦٣ وصفة ج ٤ ص ٤٨

٦ – ابو نعيم / حلية الأولياء ج ١٠ ص ١٩٢

بين الكتاب والسنة فى هـذا المبدأ ، فيقول (من طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان ، ومن طعن فى التكسب فقد طعن فى السنة)؟(١)

ولكن الكلاباذى يمسخ هذا النص ، وينقله لنا مغايرا تماماً ، حيث يعرف التوكل - على لسان التسترى - بقوله (كل المقامات لها وجه وقفا غير التوكل فإنه وجه بدون قفا) ! ! (٢) ويوضح لنا هـذا التأويل ، إلى أى مدى يتدخل مؤرخ التصوف فى النصوص ليحملها ما لا تحتمل .

ويمضى سهل التسترى ناظراً إلى الآيات القرآنية ، باحثاً فيها ، مستخرجا منها تفسيراته التى يجعل منها أصولاً للمذهب ، لأنه لا معين إلا الله ولا دليل إلا رسول الله (٣) ، ووسيلته إلى ذلك القلوب عن طريق قبول الوحى المنزل - أى آيات الكتاب . فالإنسان يستمد الحول والقوة والمشيئة والإرادة من الله عز وجل . أما أصحاب القلوب القاسية ، فويل لهم ، لأنهم حرموا الانشراح الذى يتحقق بقول الوحى (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله - الزمر / ٢٢) ، وهم (المدعون الذين يدعون الحول والقوة والمشيئة والإرادة ، ويدعون الاستغناء عن الله) (٤) .

ولعل ما يؤيد ما نذهب إليه من اختلاف المصادر من حيث إضافة طابع التصوف على شيوخ السلف ، أن أبا نعيم قد وضع التسترى ضمن أصحاب الحديث. ولقد رأينا كيف كان يعظم أهل الحديث ويرفع من شأنهم ويوصى بصحبتهم .

---

١ - ابو نعيم / حلية الأولياء ج ١٠ ص ١٩٥

٢ - الكلاباذى / التعرف ص ١٠١

٣ - ابو نعيم / حلية الأولياء ج ١٠ ص ١٩٨

٤ - ن م. ص ٢٠٦

فإذا ما تتطلعنا إلى صورة شخصية التسترى فى مصدر آخر وهو (التعرف لمذهب أهل التصوف) للكلاباذى ، نجده ينقل لنا نصا يعبر به عن تفضيله للصوفية لأنهم (لا يستكثرون ولا يستنكرون شيئا) (١) .

وللتسترى تعريف آخر ينفرد به عن الحب الإلهى، إذ أن الحب عنده هو الخوف لأن الكفار أحبوا الله فصار حبهم أمنا ، وصار حب المؤمنين الخوف) (٢) . والنص يشير إلى الرغبة والرهبة ، أو الحب الذى يدفع إلى العمل اتقاء غضب الله وخوفا من عذابه، فإذا ماقارنا هذه العبارة بنص خر فى المحبة أورده الكلاباذى، نجـــد معنى بخا يسلب التعريف سهولته ورونقه ويحيله إلى رموز ، يذكر صاحب (التعرف . .) أن سهل التسترى قال (من أحب الله فهو العيش ، ومن أحب فلا عيش له) (٣) . كما نستبعد أن سهلا استعمل كلمة (العارف) ، لأن الصيغة الغالبة على أفكاره تدور حول المحبة والخشية والتقوى - أى جانب المجاهدات التى يقصد بها الجانب العبادى متبعا فيها سبل السابقين . أما درجة المعرفة ، فلم تكن فى الغالب من نتاج مذهبه ، ولكن الكلاباذى افتعل الاصطلاح - كشأنه مع شيوخ السلف من الزهاد الأوائل - ليرقى من شأن الصوفية محاولا إيجاد الجذور لهم بانتسابهم إلى الأجيال السابقة .

إن النظرة الموضوعية المقارنة بين شخصية التسترى المستقاة من (الحلية) أو (تفسير القرآن العظيم المنسوب له) ، ونفس هـذه الشخصية التى يحاول الكلاباذى تقديمها ، تبرهن على ما نقول ، وتجعلنا نميل إلى استبعاد التعريف

---

١ - الكلاباذى / التعرف ص ٢٦

٢ - ابو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ٢٠٥

٣ - التعرف ص ١٠٩

الذى أورده الأخير على لسان سهل فى تعريفه لأهل المعرفة ، والتى يذهب فيها إلى أنهم (كأصحاب الأعراف ، يعرفون كلا بسيماهم ، أقامهم مقاما أشرف بهم على الدارين ، وعرفهم الملكين) (١) .

ولعل أشد هذا النموذج وضوحا ، ما أتى به الكلاباذى على لسان سهل فى قوله (أنا منذ ثلاثين سنة أكلم الله ، والناس يتوهمون أنى أكلمهم) ! ! (٢) .

وقد يفهم من النص اتجاه إلى مذهب الحلول الذى لم يعرفه سهل ولم يتطرق إليه . وتتدخل الأسطورة فى حياة سهل أيضا لكى يتم الإطار الصوفى المحكم لها بواسطة القشيرى ، فيجعله من أصحاب الكرامات المشهورين ، فيرى عمن دخل قصر سهل ، فرأى فيه بيتا كان الناس يسمونه (بيت السباع) لأنها كانت (تجىء إلى سهل وكان يدخلهم هذا البيت ويضيفهم ويطعمهم اللحم) ! ! (٣) .

والمدرسة السلفية لا تنكر الكرامات . ولكننا نستطيع أن نتخذ من النص السالف مثلا لطرق دعاة التصوف فى الدعوة إلى المذهب والتعصب له ، إذ القصة تجعل من سهل صاحب قصر أولا ، وهو يتسع بطبيعة الحال لبيوت كثيرة منها بيت السباع . ولا شغل لواحدنا إلا إطعام السباع ، دون أن تفسر لنا الأسطورة الأسباب الدنيوية أو الأخروية التى تدعوه إلى ذلك ! !

---

١ — التعرف ص ١٩٣

٢ — ن . م ص ١٤٤

٣ — الرسالة القشيرية ص ١٦٢

سادسا : مدرسة بغداد

ازدهرت بغداد فى خلافة الدولة العباسية ، بعد أن انتقلت إليها عاصمة الخلافة وأصبحت تجمع رجال الفقه والحديث والعلماء على اختلاف مراتبهم (وسكنها من أفشى السنة بها ، وأظهر حقائق الإسلام مثل أحمد بن حنبل وأبى عبيد وأمثالهما من فقهاء أهل الحديث) (١) .

إن انتقال الخلافة إليها هو أحد العوامل التى أدت إذن إلى افشاء السنة ، وليس الأمر — كما يرى كل من أرنولد وجيوم (٢) — كان داعيا للاحتكاك بالحضارات السابقة ومن ثم التأثير على المسلمين . وسيتضح ذلك عند عرضنا لمذاهب الزهد فى بغداد حينذاك ، إذ سيتبين لنا كيف وقف شيوخها فى وجه المخالفين للسنة ، لاسيما دور ابن حنبل فى المحنة ، ونقده للحارث المحاسبى باعتبار الحديث فى الخطرات والوساوس نوع من البدع ، وكذلك معارضة عمرو بن عثمان المكى للحلاج ونبذه إياه .

ومن الظواهر التى تعد هامة بهذه المدرسة ، أن الشيوخ المعاصرين للإمام أحمد كان أغلبهم من الزهاد المنتسبين للمنحى السلفى — فيما لو تغاضينا عن الحارس المحاسبى — للأسباب التى سنوضحها ، وأن نظرة فاحصة لكتاب (طبقات الحنابلة) للقاضى أبى يعلى ، أو لكتاب (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادى لتدلنا على أن أهل الحديث سلكوا طريق الزهد والحياة الروحية ، وهم أشد اهتماما من غيرهم باتباع طريقة الاقتداء ، ومن ثم يمكن أن يطلق عليهم اسم (السلفيين القح) .

---

١ — ابن تيمية / مذهب أهل المدينة ص ٣٣

٢ — The Legacy of Islam

وسيتضح لنا من دراستنا لأبرز شيوخ هذه المدرسة ، كيف انبثق عنهم مضمون روحى لا يقل أصالة عن غيرهم ، على عكس المعتقد ، مما جعل الدكتور عبد الرحمن بدوى يخلع عنهم نبضات قلوبهم ونوازعهم الروحية ، ويوسمهم بالتحجر والجمود ! ! (١).

١ ــ أحمد بن حنبل

اشتهرت مدرسة بغداد بالحارس المحاسبى ، وبشر الحافى وغيرهما ، من أهل الزهد المعاصرين للإمام أحمد بن حنبل ، فاختفت معالم الحياة الروحية عن الإمام وراء شهرته كفقيه ومحدث ، إلى جانب اقتران اسمه بمشكلة خلق القرآن التى خاض فيها الباحثون قديما وحديثا. يصف لاوست إمامنا بأنه من أعظم الشخصيات حيوية فى الإسلام ، ويقول (وقد أثر ابن حنبل فى التطور التاريخى للإسلام وفى نهضته الحديثة ، وأسس أحد المذاهب السنية الأربعة الكبرى وهو المذهب الحنبلى ، وكان عن طريق تلميذه ابن تيمية ، الجد الأول للوهابية ، وقد وقد أوحى أيضا ـ إلى حد ما ـ بحركة الاصلاح المحافظة للسلفية) (٢).

ولكن لاوست يعود فيستنتج من الوقائع التاريخية المتصلة بمنع الإمام من تدوين آرائه ـ أنه لم يقصد تأسيس مذهب . ويستطرد قائلا (وإن كان من الحق أنه حذر سائله من تدوين آرائه ، إذ يحتمل فى هذه الحالة أن تحل محل قواعد السلوك التى مرجعها إلى القرآن والسنة) (٣) .

ولقد سبق لابن تيمية توضيح رأيه فى هذه المسألة مؤكدا أن الإمام أحمد

---

١ ــ د. عبد الرحمن بدوى /مقدمة كتاب (شخصيات قلقة فى الاسلام) صفحة (د)

٢ ــ دائرة المعارف الاسلامية ، مادة أحمد ابن حنبل بقلم لاوست

٣ ــ ن . م

(كان ينهى فى حال حياته عن كتابة كلامه ليجمع القلوب على المادة الأصلية العظمى ، ولما توفى استدرك أصحابه ذلك الأمر الكبير ، فتتبعوا علمه وبينوا مقاصده وشهروا فوائده فانتصرت طريقته) (١) .

كادت تختفى إذن شخصية الإمام الزاهد وراء الاهتمام بنتاجه الفكرى فى الحديث والفقه وردوده على المتكلمين ، فيما عدا النصوص المنقولة عنه بواسطة ابن أبى الدنيا بمؤلفاته التى تعد فى حكم الضائعة (٢) إلى جانب الإشارة إلى زهده فى معظم المصادر التى أرخت لحياة الإمام ، إذا اتفقت أيضا على وضعه مؤلف فى الزهد .

والحق أن لابن حنبل من الآراء فى الزهد ما يضعه فى مصاف الزهاد الذين يعبرون عن التيار السلفى أصدق تعبير ، إذ لا يغرب عن بالنا أن من بين مؤلفاته كما قلنا ، كتاب (الزهد) . الذى يعد أحد المصادر الهامة لموضوعنا ، وقد وصفه ابن كثير بأنه (لم يسبق إلى مثله ، ولم يلحقه أحد فيه) (٣) . وقد عالج فيه موضوع الزهد عند الأنبياء عليهم السلام ثم الصحابة فالتابعين فمن يليهم .

إن العبارة التى أوردها صاحب (البداية والنهاية) فى معرض حديثه عن الكتاب

---

١ - ابن تيمية / مجموعة نصوص باسم (مجموعة علمية) ص ١٥٢

٢ - يقول القاضى أبو يعلى فى حديثه عن ابن أبى الدنيا (٢٨١ هـ) :

« وقد حدث فى عدة من تصانيفه عن رجال عن أحمد . حدث فى كتاب (الجاثين) وفى كتاب (القناعة) وفى كتاب (إصلاح المال) وفى كتاب (البكاء) عن البرجلانى عن أحمد . وفى كتاب (مداراة الناس) ، وفى كتاب (المنام) عن الحسن بن الصباح بن البزاز عن أحمد وحدث فى كتاب (الأضاحى) عن أبى بكر الأثرم عنه » . طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٩٣

٣ - ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣٢٩

توجه الباحث إلى الحياة الروحيــة العميقة التي عاشها الإمام يقول ابن كثير (والمظنون - بل المقطوع به - أنه إنما كان يأخذ بما أمكنه منه، رحمه الله (١) ، أي بعبارة أخرى، نستطيع أن نستنتج أن الإمام تمثل بحياة الزهاد الذين أوردهم بكتابه، وتأثر بنظرياتهم، ومال إليهــا، ؛ إن حرصه على تدوينها يحمل معنى تأييدهـا .

إن دائرة الاهتمامات المتعددة لإمامنا في الحديث والفقه والرد على المتكلمين والزهد تفتح الباب لدراسات متشعبة حول ابن حنبل .

وربما يصح الآن أن نتساءل : أي هذه العلوم كان الجدير بحفظ التراث الإسلامي ؟ وهل وقع عبء حفظه على عاتق الفقهاء والمحدثين أم بواسطة الزهاد والصوفية ؟

ويحسن بنا إذن أن نناقش أن التصوف هو الثورة الروحية في الإسلام، فإن هذا القول يعد من العبارات التي تعطى مدلولا أضخم بكثير من المعنى الحقيقي لها.

لقد أفاض المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفي في كتابه (التصوف - الثورة الروحية في الإسلام) في القول بأن التصوف هو الثورة الروحية التي تشبع العاطفة وتغذى القلب . وأن التصوف كان انقلابا عارما على الأوضاع والمفاهيم الإسلامية التي حددها الفقهاء والمتكلمون والفلاسفة .

ولا نجد بهذا الصدد إلا رد أتباع المدرسة السلفية ، فهم يدعون ببساطة إلى اتباع السلف الصالح ، بدلا من افتعال هذه الثورة ، واستخدام منهجهم في معرفة الإسلام كما عرفوه ، لأن الإسلام نفسه كان ثورة على المفاهيم الروحية ، والأوضاع الاجتماعية السائدة في الجزيرة العربية قبله .

---

١ - ابن كثير / البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٢٩

وإذا جاز استخدام الإصطلاحات السياسية فى ميـــدان الفكر الفلسفى أو الصوفى ، فإن معنى الثورية الذى يقصده أستاذنا ، قد يشير إلى تخلف المناهج الأخرى غير التصوف . وهنا نرى دأب البعض ـــ وخاصة بعض المستشرقين على تشويه نظريات شيوخ المدرسه السلفيـة ، ومن ذلك أيضاً تشويه (فكرة المسلمين عن الحركة الوهابية)⁽¹⁾ فى العصر الحديث . وأصبح من المألوف أحياناً أن توسم الحركة السلفية بالرجعيـة ، وهو وصف لا يتفق مع الحقائق التاريخية .

لقد قدم السلفيون نماذج ممتازة لشخصيات ثورية ، كانت تثور ـــ بدافع إخلاصها لمنهجها ـــ على كافة مظاهر السلطة المنحرفة ، وتحارب الجمود والتخاذل ومظاهر الكهنوت والبدع ، ولا تخضع لأسباب الخنوع والمذلة .

إن الحركة السلفية تعادى البدع الممثلة فى (بقايا الوثنية ، وما ابتدعته الأجيال المتأخرة ، وتسللات الحضارة الدخيلة) (٢) .

لهذا يحسن بنا أن نقف قليلا عند الاتجاه الذى يعد ثوريا لابن حنبل . لأنه ثوريته تتمثل فى رفضه الثبات الحـــاسم الذى كلفه صنوفا من الآلام والعذاب لا تطاق فى سبيل الدفاع عن عقيدته ومنهجه السلفى ، فى مواجهة الفقهاء والمتكلمين المعارضين الذين ساندتهم الدولة العباسية حينئذ بالقوانين المعنوية والمادية معاً ، (ولقد ابتليت السنة الإسلامية فى شخصه ، فكان فى صبره ـــ لو صبر ـــ فوزها ونهوضها ، وفى ضعفه ـــ لو فتن ـــ سقوطها وخذلانها) ⁽³⁾ .

---

١ ـــ د. محمود قاسم / الاسلام بين أمسه وغده ص ٣٥

٢ ـــ دائرة المعارف الاسلامية ـــ مادة أحمد بن حنبل ـــ بقلم لاوست

٣ ـــ ولتر م. باتون / أحمد بن حنبل والمحنة ص ٣٥

وبوسعنا أن ننظر إلى النتائج المحتملة التى كانت ستترتب على انهياره وتسليمه ، بتأثير القوة والجبروت ، على مذهب أهل السنة والجماعة برمته . يقول باتون (وإنا نعتقد بأن الإبقاء على السنة وصيانتها ، قد أتى بخير النتائج وأعظمها فائدة . ويمكن أن نتجاوز ذلك إلى القول بأن الإسلام ، إذا كان ينبغى المحافظة على جوهره وطابعه ، ليظل إسلاما ، فما من سبيل يبلغ به هذه الغاية أفضل من سبيل المحافظة على السنة والاستمساك بعراها) (١) .

وسنعرض فيما يلى لجانب الزهد فى شخصية الإمام أحمد بحيث نبدأ بعلاقته بالحارث المحاسبى ، ثم ببشر الحافى ، وأخيراً نوضح جوانب الزهد عنده .

ا ــ علاقته بالحارث المحاسبى

يرجح البيهقى (٤٥٨ هـ = ١٠٦٥ م) أنه كره ما اشتغل به المحاسبى من علم الكلام . أما ابن كثير فإنه يرجح أن ما فى كلامه ــ هو وأصحابه ــ من التقشف وشدة السلوك والمحاسبة الدقيقة ، التى لم يأت بها الشرع . ويبدو أن الاحتمالين صحيحان ، إذ أننا نعثر ضمن النصوص التى أوردتها المصادر المختلفة ما يؤيد ذلك .

فقد ورد على لسان الإمام ابن حنبل (أنه يكره الكلام فى الوساوس والخطرات ، لأنه لم تتكلم بها الصحابة والتابعون) (٢) . وإمامنا هو أحرص الناس على التقيد بالسنة وأقوال الصحابة ، لأن منهجه يستند على هذا الأساس ، ولكنه يخشى هذا التعمق الذى يؤدى إلى الاختلاف ، مادام لم يأت به النقل ، وهو نفسه قد جرب هذه المحاولة وأفصح عن صعوبتها ، إذ سئل عما إذا كان قد تعلم

---

١ ـ ولتر م. باتون / أحمد بن حنبل والمحنة ص ٣٥

٢ ــ النابلسى / مختصر طبقات الحنابلة ص ٧٣

العلم لله – يريدون بذلك توافر النية فأجاب (هذا شرط شديد) ، أي أنه وجد صعوبة فى تحقيقه إذ يقول أما لله فعزيز، ولكن حبب إلى شيء فجمعته)(١)

أما قصة سعى ابن حنبل لحضور جلسة المحاسبي مع أصحابه فى الخفاء وإعجابه بحالهم ، ثم نهيه عن صحبتهم ، فإنها ربما تعد من قبيل محاولة التوفيق بين مكانة الشيخين ، وإن كان ابن الجوزى يفسر موقف ابن حنبـــل فيها بالتمسك بالسنة والنهى عن البدعة فيقول (وقد كان الإمام أبو عبد الله أحمد ابن حنبل لشدة تمسكه بالسنة ، ونهيه عن البدعة ، يتكلم فى جماعة من الأخيار إذا صدر منهم ما يخالف السنة ، وكلامه ذلك محمول على النصيحة للدين) (٢) .

ولكن المحاسبي – من جهة أخرى – كان يحمل التقدير لابن حنبل ، مؤيدا موقفه من المحنة ولأن (أحمد بن حنبل نزل به ما لم ينزل بسفيـــان الثورى والأوزاعى) (٣) .

ب – صلته ببشر الحافى

يبدو أن التعاطف بين ابن حنبل وبشر الحافى كان مبنيا على أسس حقيقية بسبب الاتفاق فى الآراء والاتجاهات ، ولا ترجع إلى الصبغة الغالبة على تآليف القرن الثالث الهجرى ، التى بدأت تنسج خيوط الود بين بعض الفقهاء والزهاد . ودليلنا على التعاطف الحقيقى بين الشيخين نلتمسه فى اتفاقهما من حيث بعض الآراء فى الزهد ، فضلا عن كونهما محدثين . فمن الثابت أن بشر الحافى طلب

---

١ – ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣٣٠
وأبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ٢ ص ٣٠٧

٢ – ابن الجوزي / مناقب الامام أحمد بن حنبل ص ١٨٥

٣ – ن. م ص ١٢١

الحديث فى البداية ، ثم أقبل على العبادة واعتزل الناس (١) . وقد عده ابن حبان من الثقات ، كما وثقه أيضا الدارقطنى (٣٨٥ هـ = ٩٩٥ م) وقال عنه (إنه لا يرى إلا حديثا صحيحا وربما تكون البلية ممن يروى عنه) (٢) . وهكذا أعطاه رجال الجرح والتعديل حقه ووثقوه .

ولكن المصادر لم تفصح عن سبب تركه رواية الحديث ، وسبب كراهيته للرواية (ودفن كتبه لأجل ذلك) (٣) .

ويعطينا ابن عساكر تفاصيل أكثر عن زاهدنا ،فيصفه بأنه الزاهد المعروف بالحافى ، ويذكر أنه قدم الشام واجتاز جبل لبنان . أما عمن حدث عنهم ، فهم مالك بن أنس ، وفضيل بن عياض ، وعبد الله بن المبارك وآخرين (٤) .

ولعل هذه السلسلة من المحدثين والزهاد هى التى دفعت بالبشر إلى تدوين كتاب (الزهد) الذى أشار إليه صاحب (الفهرست) والذى نقرأ منه شذرات فى كتاب (الزهد) لابن حنبل ، مما يؤكد لنا ميل الإمام له وتأييده لأفكاره .

ولكن مما يلفت نظر الباحث ، أنه مع تعاطف بشر مع الإمام أحمد ، إلا أنه اختار مذهب الثورى (فى الفقه والورع جميعا) (٥) . أما النص الوارد بنفس هذا المعنى بتاريخ ابن عساكر فهو (أن بشر تأدب بمذهب سفيان الثورى فغالبه ، غير أن سفيان له السبق فى السن والعلم) (٦) .

---

١ — ابن كثير / البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٩٧

٢ — ابن حجر / تهذيب ج ١ ص ٤٤٥

٣ — ن . م والصفحة

٤ — تاريخ ابن عساكر ج ٣ ص ٢٢٨

٥ — ابن حجر / تهذيب التهذيب ج ١ ص ٤٤٥

٦ — تاريخ ابن عساكر ج ٣ ص ٢٣٣

ومثل هذه المقارنة تعطينا الشواهد على وقوف هؤلاء المشايخ في صف واحد، تضمهم حلقات الحديث والفقه والزهد ، فهم أئمة يقتدى بهم في هذه المجالات . لقد أوجد المنهج السلفي ارتباطا وثيقا بينهم ، وخلق الوحدة في نظرياتهم بالرغم من اختلاف البلدان التي أقاموا فيها . فإن بشرا الحافي من أبناء خراسان (١) ، ولكنه اشتهر بانتمائه للبغداديين لإقامته ببغداد مـــدة طويلة (٢) ، وظل انتماؤه لمدرسة بغداد هو الغالب ، إذ يذهب إبراهيم الحربي ـ أحد تلاميذ الإمام أحمد ـ في وصف رجاحة عقله بقوله (لو قسم عقله على أهل بغداد لصاروا عقلاء ، وما نقص من عقله شيء) (٣) . ولكن هذا لا يمنعه من الاسترشاد بآراء سفيان فقيه الكوفة وزاهدها :

من ذلك أننا نراه يستشهد بقول الثوري في مسألتين :

أحدهما عن الرجل إذا مر بمن يلعب الشطرنج ، هل يسلم على اللاعبين أم لا؟ . فأجاب مستندا إلى قول سفيان الثوري (يسلم ويأمر) أي يأمر بالترك ، عملا بقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

والمسألة الثانية التي يذهب فيها إلى قول الثوري أيضاً هي (كل من تخوفت من طعامه أن يفسد عليك فلا تجبه) !! (٤) فأكد بذلك فكرة الطعام الحلال التي سنرى ابن حنبل يضعها أساساً (لاطمئنان القلوب) .

وهكذا كان التجاوب بين الزهاد الثلاثة : الرأي لسفيان الثوري يؤيده بشر

---

١ ـ ابن حجر العسقلاني / تهذيب التهذيب جـ ١ ص ٤٤٥

٢ ـ ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٩٧

٣ ـ ن . م ص ٢٩٨

٤ ـ ابن حنبل / الزهد ص ٢٧٥

الحافى ، ويسجله لنا ابن حنبل فى كتابه (الزهـــد) . ثم يؤيده أيضا ويضع له الأساس النظرى من آيات الكتاب .

ولم يكن بشر يقبل من أحد شيئا سوى من السرى السقطى ، لأنه يرى فى السرى الزاهد الحقيقى ، فهو (يفرح بخروج الشىء من يده . ويتبرم ببقائه عنده، فاكون أعينه على ما يحب) ! ! (١) .

ومن هذه العبارة نفهم رأى بشر فى الزهد واتفاقه مع ابن حنبـل فى تحرى الأكل من المصدر الحلال ، والتحرز الشديد من الشبهات .

ونظر الشيخان إلى الفقر كعامل يقوم عليه الزهد، لأن الغنى يفتن ، بينما يستدعى الفقر الصبر على الحرمان . يقول ابن حنبل (ما أعدل بالفقر شيئا ، وما أعدل بالفقر شيئا ، أنا أفرح إذا لم يكن عندي شىء) (٢) ، ويستمد إمامنا هذه النظرة من إحساسه بمدى المعاناة التى يتكبدها الفقير فى صبره على الفقـــر ، فيتساءل (أتدرى الصبر على الفقر أى شىء هو ؟) ويقارن بينه وبين الغنى الذى توافرت له أسباب الحياة المترفة ويقول (كم بين من يعطى من الدنيا ليفتتن ، إلى آخـــر تزوى عنه !) (٣) .

ولكن بشر الحافى لا يفصح عن سبب تفضيله الفقـــر على الغنى ، فيسرد المقارنات سرداً ، دون الاستناد إلى سبب مقنع كالمعاناة التى يراها ابن حنبل سببا لتفضيله الفقر ـ فيقول مثلا (العبادة لا تليق بالأغنياء) ! ! ويشبه الغنى المتعبد كالروضة المطلة على مكان إلقاء القمامة ، بينما العبادة للفقير كالعقد الجوهر فى جيد

---

١ ــ المكى / قوت القلوب جـ ٢ ص ١٩٩

٢ ــ أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٠ وابن الجوزى / مناقب ص ٢٧٣

٣ ــ ابن الجوزى / مناقب الامام أحمد ص ٢٧٣

الحسناء (١) . إلا أنه يعود فيتلمس السبب فيراه فى الورع ، فيذكر أن (التقوى لا تحسن إلا فى الفقر (٢) .

ومن أن الشيخين وقفا فى وجه تيار الترف فى عصرهما ، واتخذا من الزهاد أداة للمعارضة والنقد .

وكان الإمام أحمد يصف بشراً بأنه ليس له نظير إلا عامر بن قيس ولكنه ظل يأخذ عليه عزوفه عن الزواج فيقول (ولو تزوج لتم أمره) (٣) . وكان موضوع الزواج أخذ ورد سنعود إليه حالا .

كما نلمح التقدير المتبادل أيضا بين الشيخين من العبادة التى وردت على لسان بشر عندما طلب منه أصحابه أن يعلن تمسكه بعقيدة الإمام أحمد التى امتحن فيها - وهى مسألة خلق القرآن - فأجاب متسائلا فى تعجب يحمل معنى التقدير الكبير (أتريدون أن أقوم مقام الأنبياء ؟) ! ! ثم دعا له (حفظ الله أحمد من بين يديه ومن خلفه) (٤) .

ويلح علينا هذا الود العميق الذى يكنه الإمام أحمد لبشر ، إذ جاءت النصوص التى تدل على مبادلة التعاطف بين الشيخين . فإلى جانب ما نقرأه على لسان بشر الحافى يصادفنا نص آخر يحمل توافق الآراء . فإن ابن حنبل فى وصفه لبشر يقول فى موضوع الشهرة وكراهيته لها (ليتنا نترك ! الطريق ما كان عليه

---

١ - المكى / قوت القلوب ج ٢ ص ١٩٢

٢ - ن . م والصفحة

٣ - ابن عساكر / التاريخ ج ٣ ص ٢٣٣ وابن كثير / البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٩٧

٤ - الذهبى / ترجمة الامام أحمد (منتقاة من تاريخ الاسلام) ص ١٨

بشر بن الحرث) (١) . وسنعود إلى هذا النص بعد قليل ، لأنه يكشف عن أحد جوانب الزهد لدى الإمام أحمد .

ومن المرجح أن البغداديين كانوا يضعون الشيخين فى مرتبة واحـــدة ، ويجدون حرجا فى ترجيح كفة أحدهما عن الآخر ، وإن كان لابد من وصف كل منهما على حدة ، فإن ابن حنبل يوصف بأنه (تفخر النساء أن تلد مثله) أما بشر (فملوء عقلا من قرنه إلى قدمه) (٢) .

وقد أفاض المكى فى عقد المقارنات بين الإمامين على سبيل المقارنة، كما أورد نصا لبشر يجعل فيه ابن حنبل أفضل منــه بسبب أمور ثلاثة فيقول (فضل على بثلاث بطلب الحلال لنفسه ولغيره وأنا أطلب الحلال لنفسى ، واتساعه للنكاح وضيقى عنه ، وقد جعل إماما للعامة وأنا أطلب الوحدة لنفسى) (٣) .

ونلمح فى عبارة زاهدنا ما يشبه إقراره بالخطأ لأنه لم يتزوج ، ولكننا سرعان ما نجده يدافع عن نفسه أيضا فى هذه النقطة ، إذ لما بلغه أن الناس يتحدثون عن عزوبته وينقدونه بسبب تركه للسنة، دافع عن نفسه محتجا بأنه مشغول بالفرض عن السنة ، ولما ازداد العتاب نحوه ، عثر فى الكتاب على آية يتخذ منها سند فى ترك الزواج وهى (ولهن مثل الذى عليهن ، آية ٢٢٨ سورة البقرة) ، أى أنه خشى ألا يتمكن من أداء حقوق الزوجية عليه فانصرف عن الزواج لهذا السبب . ثم يورد عبارة قالها الإمام ابن حنبل تختلف تماما عمـــا أسلفنا الإشارة إليها ـ الواردة فى تاريخ ابن عساكر ـ إذ يتضح فيها أن ابن حنبل يرفع من شأن

---

١ ـ الذهبى / ترجمة الامام أحمد ص ٢٦

٢ ـ ابن عساكر / التاريخ الكبير جـ ٣ ص ٢٣٣

٣ ـ المكى / قوت القلوب جـ ٢ ص ٢٤٩

الحافى لهذا السبب ، فبعد أن كان يتمنى أن يتم له الأمر بالزواج يقول هنا (وأين مثل بشر ؟ أنه قعد على مثل حد السنان !) (١) .

ومع هذا ، فالظاهر أن الروايات الصوفية لما أخفقت فى الاقناع بترك بشر الحارث للزواج ، ومخالفته بذلك السنة ، عادت تتلمس طريقها فى إطار اختلاق الرؤيا المعتادة ، إذ يرى بشر فى المنام ، ويسأل عن الدرجة التى بلغها عند ربه عز وجل فيجيب (رفعت سبعين درجة فى عليين ، وأشرف بى على مقامات الأنبياء ، ولم أبلغ منازل المتأهلين) ! ! (٢) .

والذى يعنينا من كل هذا هو القول بأن ترك بشر الحافى للزواج لم يكن بسبب مسيحى ، أى تقليداً للرهبان ، فإنه لم يتخذ منهم مثالا يقتدى به ، ولكنه ظل يعتذر طوال حياته بسبب ترك السنة ويحاول أن يجد المبررات . فإما أن يتلمس العذر من عدم استطاعته الوفاء بحقوق الزوجة عليه كما نصت الآية ، أو أنه ظل آسفا لهذا التقصير ، إذ وجد فى عزوبته ما يستدعى الاعتذار ، وفضل على نفسه صاحب العيال . فقد قصده رجل فقير يطلب منه الدعاء ، فنصحه بأن يتحين الفرصة عندما يخبره أولاده بنفاذ الدقيق والخبز ، ثم يدعو الله (فى ذلك الوقت ، فإن دعاءك أفضل من دعائى) ! ! (٣) .

الزهد عند ابن حنبل :

قلنا فى مستهل حديثنا إن شخصية ابن حنبل العلمية قد جمعت بين الحديث والفقه وأعلن تمسكه بمنهج النقل . وظل الإمام أحمد معظما عند مفكرى المسلمين من أهل السنة ، وكان موضع إجلال كبير بصفة خاصة بواسطة شيوخ الأشاعرة ،

---

١ و ٢ – المكى / قوت القلوب جـ ٢ ص ٢٤١

٣ – ن . م جـ ٢ ص ١٩٣

وعلى رأسهم إمام المذهب أبي الحسن الأشعري ، الذى أورد عقيدة أهل الحديث كاملة فى (مقالات الاسلاميين . .) ، وأعلن فى ختامها تأييده لها فيقول (فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول ، وإليه نذهب ، وما توفيقنا إلا بالله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل وبه نستعين وعليه نتوكل وإليه المصير) (١) .

وقد تعددت المصادر التى وصلتنا تحمل أدق تفاصيل حياة الإمام ابن حنبل ومذهبه وآرائه (٢) . ويبدو أن الإمام رأى أن يوضح وجهة نظره فى المسائل التى طغت على ثقافة العصر واتجاهاته المختلفة . وأن يدعم المنهج النقى ، فأخرج على هذا الأساس — ضمن مؤلفاته — روائعه الثلاثة : وكلها تحفظ لنا نظريات السلف وآرائهم وسط التيارات المختلفة السائدة فى العالم الإسلامى حينذاك ، فإن (المسند) عنى بحفظ الحديث ، وكتابه (الرد على الجهمية والزنادقة) يتضح فيه حجاجه العقلى فى أجلى وأدق صورة تكشف عن الاستعداد العقلى الممتاز . ثم مؤلفه فى (الزهد) الذى اتخذه وثيقة يدافع بها على طريقة الاقتداء وكأنه يعلن : من أراد الزهد حقا فعليه اتباع السلف أيضاً . ويمكننا أن نستنتج أن الدافع الأساسى هنا هو الرد على الحارث المحاسبى وأتباعه، الذى كره ما (فى كلامهم من التقشف وشدة السلوك التى لم يرد بها الشرع ، والتدقيق والمحاسبة الدقيقة ، البليغة ، ما لم يأت بها أمر) (٣) .

ثم أن هناك سببا جانبيا ، من المحتمل أنه كان له أثره كأحد دوافع الإمام

---

١ — أبو الحسن الاشعري / مقالات الاسلاميين ص٢٩٧

٢ — ينظر ثبت المؤلفات التى عددها عبد العزيز عبد الحق فى ترجمته لكتاب أحمد بن حنبل والمحنة ص ٢٦٥ وما بعدها .

٣— ابن كثير / البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٣٠

أحمد فى كتابة مؤلفه فى الزهد ، فإن من الشيوخ الذين اعتز بهم وهو أبو زرعة (٢٦٤ هـ = ٨٧٧ م) — الذى ترك ابن حنبل فى أحد الأيام أداء نوافله لكى يتفرغ لمذاكرته — وكان يدعو له فى دبر كل صلاة (١) . كان أبو زرعة يصف كتاب (الرعاية لحقوق الله) بأنه بدعة ، ويحث على اتباع ما كان عليه مالك والثورى والأوزاعى والليث (٢) .

فإذا ما عرضنا لناحية الزهد ، فإن غرضنا تأكيد الفكرة التى نحاول البرهنة عليها ، وهى أن أئمة شيوخ الزهد — كالثورى وابن المبارك والأوزاعى وابن حنبل من الزهاد الأوائل — كانت حياتهم مكتملة الحلقات . وكانت امكانياتهم العقلية واهتماماتهم الثقافية متعددة النواحى ، بلغت حدا من الخصوبة يصعب معها على الباحث إبراز جانب دون آخر . ولقد كان ابن تيمية واعيا لهذه الحقيقة عندما سمى شيوخ السلف بأنهم (مشايخ أهل الكتاب والسنة) (٣) ، أى بعبارة أخرى ، أنهم الشيوخ الذين لم يخرجوا فى مذاهبهم — سواء كفقهاء أو مفسرين أو أصحاب قلوب وأرباب سلوك — عما خطه الكتاب والسنة . لقد قاموا (بحقائق الدين علماء ، وحالا ، وقولا ، وعملا ، ومعرفة ، وذوقا) !!(٤)، وظلوا حريصين على ذلك طوال العصور والأزمنة ، يتلقونه جيلا عن جيل بمنهج ثابت لا يحيدون عنه . فالدين — كما يروى الإمام أحمد — هو (كتاب الله عز وجل وآثار وسنن وروايات صحاح عن الثقات بالأخبار الصحيحة القوية المعروفة ، يصدق بعضها بعضا ، حتى ينتهى ذلك إلى رسول الله ﷺ

---

١ — ابن الجوزي / مناقب الامام أحمد بن حنبل ص ٢٨ و ٢٨٩

٢ — ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣٣٠

٣ — ابن تيمية / كتاب التصوف ص ٢٣٣

٤ — ن . م ٥٧٢

وأصحابه رضوان الله عليهم والتابعين وتابعي التابعين) (١) .

ولعل هذا النص يوضح لنا أيضا أحد الأسباب التي دعت ابن حنبل للخوض في غمار الحياة الروحية ، والكتابة في الزهد . فقد مر بنا أنه كتب (المسند) ، ولما سئل عن سبب كتابته له بالرغم من كراهيته لوضع الكتب أجاب (عملت هذا الكتاب إماما، إذا اختلف الناس في سنة رسول الله ﷺ رجعوا إليه) (٢)

ومن اليسير أن نستنتج أنه لنفس السبب حرص على الكتابة في الزهد الذي كتبه على نمط رواية الحديث ، أي نقل بالأسانيد أقوال السابقين في الموضوع .

والظاهر أنه استرشد أيضاً بعبد الله بن المبارك الذي كتب في الزهد قبله (٣) ، أي أنه عثر في مضمون كتاب ابن المبارك على التيار السلفي الصحيح ، مقابل الاتجاه الصوفي في عصره الذي يتزعمه الحارث المحاسبي ، فكان يحض على كتب ابن المبارك ، وينصح بقراءتها (حسبك بها ، ولا تبال بسماع غيرها) (٤) ، لأن مؤلفها تتبع طريقة النقل الصحيح الصادق . ونرى الإمام يغضب لمن يتهم ابن المبارك بالكذب فيقول (من كذب أهل الصدق فهو الكاذب) (٥) .

كان الإمام ابن حنبل اذن في زهده لا يخرج عن دائرة السابقين ، كما حرص على الاقتداء في سلوكه الشخصي بصفة خاصة بالحسن وابن سيرين

---

١ ــ أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٣١

٢ ــ ن. م جـ ١ ص ١٨٤

٣ ــ ابن النديم / الفهرست ص ٢٢٨

٤ ــ النابلسي / مختصر طبقات الحنابلة ص ١٦١

٥ ــ ن. م ص ١٧٠

وابراهيم بن أدهم(١) . كذلك أراد — سواء فى آرائه أو سلوكه — أن يعارض المظاهر التى اتخذها الصوفية . فلم يكن (لثوبه رقة تنكر ، ولا غلظ يذكر) (٢) أى أنه توسط فى ملبسه . فيصفه من رآه بقوله (فإذا رأيته تعلم أنه لا يظهر النسك ، ورأيت عليه نعلا لا يشبه نعل القراء) (٣) .

ويعلق ابن الجوزى على ذلك ، فيذهب إلى أنه أراد بهذا ترك التزين بزى الفقراء كى يزيل عن نفسه ما يشتهر به (٤) .

والظاهر أن الصوفية أثاروا موضوع السعى لكسب الرزق ، فكان من رأى ابن حنبل لزوم السوق ، أى الاشتغال بالتجارة ، حيث تعين على صلة الرحم فيقول (التجارة أحب إلى من فلة بغداد) (٥) .

وكان يأمر أولاده أن يختلفوا إلى السوق للاشتغال بالتجارة (٦) ، وكره للرجل الجلوس فى بيته منتظرا المنح ، مفضلا خروجه للاحتراف (٧) . وتعجب من أمر رجل صاحب عيال يمتنع عن التكسب محتجا بأن نيته لم تصح لهذا الغرض إذ يرى الإمام أنه مادام عليه نفقة عياله (فمن النية صيانتهم) ! ! (٨) .

من هذا نرى كراهية ابن حنبل للتكلف فى الخطرات ، وتشدد البعض فى

---

١ — ابن الجوزي / مناقب الامام أحمد ص ٢٤١

٢ — ن. م ص ٢٥٤

٣ — ن . م ص ٢٨٢

٤ — ن.م والصفحة

٥ — ابن حنبل / الورع ص ١٣

٦ — ن. م والصفحة

٧ — ن. م ص ١٤

٨ — ن. م والصفحة

تحقيق النية والقعود عن طلب الرزق ، إذ يفسر خروج الرجل للتكسب — أى هذا التصرف الظاهر الدلالة — يعبر عن نية توفير القوت للأولاد . وهذا يكفى لصدق نيته ، لأنه لا شك يقصد بسعيه حفظهم من الهلاك جوعا .

إذن ، ما الداعى لتشدد إمامنا فى تحقيق نظرية الحلال فى المطعم وجعلها أساس تزكية القلوب ، مع أننا نراه لا يلزم تحقيق النية ؟

كذلك مما يثير دهشة الباحث فى هذا الصدد أيضا أن لفظ (الحنبلى) مازالت تتردد حتى وقتنا هذا ، دليلا على التمسك الشديد بأحكام الحلال والحرام . ومن هذه النقطة ظهر الأساس النظرى لزهد الإمام ، فإنه فى تفسيره لتزكية القلوب كما رأينا قال (بأكل الحلال) ، وأيده بشر بن الحرث .

وقد يبدو التفسير بعيدا عن المعنى ، مما يجعل المرء يتساءل أيضا ، هل وقع ابن حنبل فى التفسير الرمزى الذى ابتدعه الصوفية ؟

ولكن سرعان ما تتضح لنا الحقيقة ، إذا ما تأملنا ظروف العصر من تزايد فى اقتناء الأموال ومظاهر الثراء والغنى بين المسلمين . وكأن ابن حنبل قد رأى أن وراء هذه المظاهر تحللا لأحكام الحلال . ولعل ترديد الإمام للقول بتفضيله الفقر على الغنى يكشف أيضا عن دوره فى الميدان الاجتماعى . لقد انضم إلى جماهير المسلمين الغفيرة لكى يشد أزرها ، أما محبته للفقر ، وتفضيله إياه ، فلأنه يساعده على نبذ (المادة) فتقوى لديه حياة (الروح) .

ثم إن تحرى الدقة المتناهية فى الحلال من الطعام هو المظهر الحقيقى للزهد ، إذ يختفى وراءه عوامل الخوف العملى من الله . وأنه لمن المعقول أن نفترض انزعاجه الشديد من اقبال القراء على موائد الأمراء والحكام والأثرياء ، فكان يرقبهم عن كثب ويعلن رأيه فيهم (عزيز على أن تذيب الدنيا أكباد رجال

وعت صدورهم القرآن ! !) (١) . وينقل لنا ابن الجوزى ثلاثة وقائع تدل على محاولة الإمام تطبيق فكرة الحلال تطبيقا شديدا (٢) .

وربما لوصف (الحنبلى) تفسير آخر يكشف عن المحاربة العنيفة التى لقيها الإمام أحمد من خصومه العتاة ، فاستطاعوا بما لهم من نفوذ سياسى أن يسيئوا إلى الشيخ الكبير بالتشهير به على نطاق واسع ، لكى يمحوا تأثير موقفه المعاند لهم من قلوب جماهير المسلمين الذين اتخذوه إماماً . ونعثر فى هذا الصدد على عبارة قالها أحد أولئك الذين حاولوا شد أزره فى المحنة ، قال له (وإنك رأس الناس اليوم ، فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك) (٣) .

خشى إذن أصحاب السلطة مكانة الإمام على أنفسهم فابتدعوا هذه الفرية ، وأصبحت كلمة (الحنبلى) علامة على التشديد المتناهى ، لأنه رفض الاستجابة لهم بالقول بخلق القرآن . وظلت الكلمة تتردد ، بينما الإمام المظلوم برىء مما وسموه به . فمن الثابت أنه فى اجتهاداته الفقهية أكثر يسرا من المذاهب الأخرى فى المعاملات ثم ان إمامنا كان موضع تبجيل واحترام بواسطة الأغلبية العظمى من معاصريه ، إذ يقول أبو نعيم (فيمن لا أحصيهم من أهـــل العلم والفقه ، يعظمون أحمد بن حنبل ويوقرونه ويبجلونه ويقصدونه للسلام عليه) (٤) . فليست هذه الفرية إذن إلا من جانب خصومه المقربين لذوى السلطان .

أما علاقة ابن حنبل بالصوفية — ولا يفوتنا أن نذكر أنه استعمل لفظ

---

١ — ابن الجوزى/ مناقب الامام أحمد ص ٢٠٠

٢ — ن. م. ٢٦١ وما بعدها

٣ — ابن كثير\ البداية . . ج ١٠ ص ٣٣٢

٤ — ابو نعيم / الحلية ج ٩ ص ١٧١

الصوفى — فيبدو أنه ، فيما عـــدا معارضته لبعض المظاهر ، فإنه كان يتدخل لتوضيح آراءه فيما يثيرونه من مسائل . من ذلك مثلا ، أنه لما سئل (كيف أكلك ؟ كيف نومك ؟ كيف جماعك ؟) أجاب إجابة مختصرة ، ولكنها تشمل كثيرا من المشكلات التى كان الصوفية سببا فى ظهورها ، فقـــد قال (ليس أنا بمصور ولا روحانى) ! ! (١)

ولكننا نلاحظ أنه آثر أن يضع الكتابه فى المضمون الروحى اسم (الزهد) لا (التصوف) ، فإذا ما أضفنا إلى ذلك عبد الله بن المبارك وبشر الحافى قبله ، اللذين وضعا مؤلفين فى الموضوع بنفس الاسم ، فإن المغزى يشير إلى تفضيلهم إياه ، وربما يدل على أنهم وجدوا فى التصوف من دخيل التيارات وغريب الثقافات ما نأى بهم عنه . فآثروا الخوض فى الحياة الزاهدة الإسلامية الأصل والمنبع ، والتى عثروا عليها عند السلف فسجلوها وخاضوا فيهـــا متابعين لها ومقتفين أثرها .

أما الرواية المشهورة عن سؤاله لأبى حمزة الصوفى (ما تقول فيها ياصوفى؟) فإنه لم يكن يهدف بسؤاله الاستفسار عما يجهله بقدر ما يود تصحيح الرأى الذى يذهب إليه هذا الصوفى . وهذا ما ذهب إليه القاضى أبو يعلى فى تعليقه على الخبر فيقول (أراد — والله أعلم — بسؤاله إن أصاب أقره عليه ، وأن أخطأ بينه له) (٢) .

وفى تعريف الإمام للزهد ، تقيد بطريقة أهل الحديث ، فنقل رأى أحد السابقين وهو الزهرى (١٢٤ هـ = ٧٤١ م) ، قال (حدثنا سفيان عن الزهرى

---

١ — ابن الجوزى / مناقب الإمام ص ٢٢٣

٢ — أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٦٨

ـ أن الزهد فى الدنيا قصر الأمل) (١) . ويضيف إلى هـذه العبارة أبو طالب المشكانى ـ صاحب الأمام الذى نقل عنه مسائل كثيرة ـ (٢٤٤ هـ = ٨٥٨ م) ما سمعه فيقول (وسئل أحمد ، وأنا شاهد ، ما الزهد فى الدنيا ؟ قال : قصر الأمل والإياس مما فى أيدى الناس) (٢) .

ولم يخرج ابن حنبل فى نظريته فى الزهد عن الإطار التقليدى للمعانى التى خاض فيها السلف ، ويمكن ترتيب دروس الموضوعات التى صاغ حولها آراءه بحيث تنحصر فى تناوله لعلاقة الإنسان بالله تعالى التى تحكمها نظرية الإخلاص وتوفر النية والتقوى ، وحياة الإنسان فى الدارين ـ الدنيا والآخرة ـ ثم حديثه عن حياة القلوب أو المحبة والرضى .

يرى ابن حنبل أن الصدق والاخلاص هو سبب الرفعـة (٣) ، ويعرف التوكل بأنه الاستشراف باليأس من الناس ، ويحتج على ذلك بالخليل إبراهيم عليه السلام عندما وضع فى النار (٤) .

ويلخص مذهبه الأخلاقى فى عبارة موجزة ، إذ ينصح بأن (كل شىء من الخير تهتم به فبادر به قبل أن يحال بينك وبينه) (٥) .

وقد حرصنا على الإتيان بهذه العبارة عقب رأيه فى التوكل مباشرة لأن المقارنة بينهما تفسح لنا مجال الحديث عن تفضيله للوحدة أو العزلة . فليست

١ ـ أبو يعلى / طبقات الحنابلة ج ١ ص ١٠٧
٢ ـ النابلسى / مختصر طبقات الحنابلة ص ١٨
٣ ـ ابن الجوزى / مناقب الأمام أحمد بن حنبل ـ ص ١٩٩
٤ ـ ن . م ١٩٨
٥ ـ ابن الجوزى / مناقب الأمام أحمد بن حنبل ص ١٩٩

هذه الوحدة من النوع الذى خاض فيها الصوفية ، لأن تحقيق الخير لا يتم فى صورته الكاملة إلا فى الجماعة ، فما السبب إذن فى حضه على الأياس مما فى أيدى الناس ؟ !

أن متابعة حياة ابن حنبل تفصح عن كراهيته التامة للشهرة ، إذ كان يتعجب من التفاف الناس حوله ، ومشيهم وراءه ، ويرى أنه بلى بالشهرة ، ويفضل عليها خمول الذكر ، ويغضب لمن يقول له (لا يزال الناس بخير ما من الله عليهم ببقائك) ويرجو من قائل ذلك إلا يردد قوله مرة أخرى ، ويتساءل متعجباً (ومن أنا فى الناس ؟ !)[1]. فليست وحدته نوع من الكبر والتعالى على الناس، ولكنه كان يخشى فى الواقع الأثر النفسى لتعظيمهم لشأنه. وهو يعبر لنا عن خشيته بقوله (أخاف أن يكون هذا استدراجا ، أسأل الله أن يجعلنا خيراً مما يظنون ، ويغفر لنا ما لا يعلمون) !! (٢) . ثم أنه فى عبارات أخرى ، يفصح عن نفسه الرقيقة التى تكره صحبة الناس لوحشة الفراق (٣) ، فالفراق بعد الألفة عسير على النفس التى رقت بالعاطفة والود .

وفى تأملنا لحديثه عن العزلة أو الخلوة ، نرى إيجابية الفكر الحنبلى إذ يفضل الخلوة لأنها أروح لقلبه (٤) . كما أن العزلة تتيح له فرصة التزود من المعرفة والعلم (٥) . وفى الوقت نفسه لم يحض على العزلة السلبية ـ عزلة الصوفية بدعوى أداء النوافل ـ إذ لما سئل عن أى العملين أفضل : العمل بالسيف والرمح

---

١ ـ ابن الجوزى / مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص ٢٧٦

٢ ـ ن، م ص ٢٧٧

٣ ـ أبو يعلى / طبقات الحنابلة ج١ ص ١٨٦

٤ ـ ابن الجوزى /مناقب ص ٢٨٠

٥ ـ ن،م ص ٢٨١

والفروسية أو الصلاة التطوع ؟ أجاب (إذا كان ههنا - يعنى ببغداد - فينال من هذا وهذا ، وإذا كان بالثغر ، فاشتغاله بذلك أفضل من التطوع) (١) ، مستندا فى ذلك إلى قوله تعالى (وأعدوا لهـم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) .

أما رأيه فى مجال المقارنة بين الدنيا والآخرة فإنه يرى فى الأولى أن قليلها يجزى ، وكثيرها لا يجزى (٢) .

وكان يطبق هذا المبدأ على نفسه . فقد رفض عطاء المتوكل .

وإن تقشفه وكراهيته لكثرة الأموال ناجم عن فكرته هذه ، فالقليل منها يعاون على أن يستمر فى أداء رسالته فى الحياة ، وهـذا هو المقصود بقوله (إنما هو طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، وأيام قلائل) ! ! (٣) وكان يتعجب من أمر القراء الذين استهلكت قلوبهم الدنيا كما أسلفنا .

واصبحت مناعته فى مقاومة فتنة الأموال موضع إعجاب بشر الحافى الشديد ، إذ يرى هذا الزاهد أن الإمام أحمد قام مقام الأنبياء ، لأنه امتحن بالضراء على يد المأمون والمعتصم والواثق ، الذين تداولوه بالضرب والحبس والإخـافة والترهيب ، فلم يضعف بل حافظ على سلامة عقيدته .

كذلك امتحن بالسراء بواسطة المتوكل ، حيث أنعم عليه بالأمـوال فرفضها ! (٤) .

---

١ - ابو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٤٧

٢ - ن م. ص ١٠ وابن الجوزى / مناقب ص ١٩٧

٣ - ن . م والصفحة وابن الجوزى / مناقب ص ٢٤٨

٣ - ن. م ص ٢٦٥

وسئل الإمام أحمد عن الحب فى الله ، فأجاب (إن لا يحبه لطمع الدنيا) (١)

ولعل أبرز ما يوضح لنا آراء ابن حنبل المتفاعلة مع حياته ، والتى تشكل نظرته الجامعة لعلاقة الإنسان بالغير ، ومع ربه والتى نختم بها حديثنا عن مضمون الحياة الروحية عنده ، وهى عبارة عن إجابته لمن سأله كيف حالك ؟

أجاب (كيف أصبح من ربه ويطالبه بأداء الفرض ؟ ونبيه يطالبه بأداء السنة ؟ والملكان يطالبانه بتصحيح العمل ؟ ونفسه تطالبه بهواها ؟ وإبليس يطالبه بالفحشاء ؟ وملك الموت يطالبه بقبض روحه ؟ وعياله يطالبونه بالنفقة ؟) (٢) .

٢ - معروف الكرخى (٢٠٠ هـ = ٨١٥ م) :

ان حلقات الشيوخ التى تربط مدرسة بغداد بعضها ببعض ، تجعل معالم الحياة الروحية شديدة التماسك ، لا تكاد تختلف فى ملامحها إلا من حيث المنازع الشخصية والانطباعات الفردية الضئيلة . أما الطابع العام لها فهو التمسك بنصوص الكتاب والسنة ، ويشكلون وحدة مترابطة تدافع عن الطاووس من الآراء والنظريات ، وسيظهر من خلال عرضنا لآرائهم دور كل منهم فى هذا الميدان .

ومن شيوخ بغداد ، معروف الكرخى ، الذى اشتهر (بالزهد والعزوف عن الدنيا ، يغشاه الصالحون ، ويتبرك بلقائه العارفون ، وكان يوصف بأنه مجاب الدعوة ، ويحكى عنه كرامات) (٣)

وكان شيخا لشيوخ آخرين — منهم تلميذه السرى السقطى (والسرى خال

---

١ - ابن الجوزى / مناقب ص ١٩٥ وطبقات جـ ١ ص ٥٧

٢ - ابن الجوزى / مناقب ص ٢٨٤ وطبقات الحنابلة جـ ١ ص ٥٧

٣ - البغدادى / تاريخ بغداد جـ ١٣ ص ١٩٩ وأبو يعلى طبقات جـ ١ ص ٣٨١

الجنيد كما هو معروف . فمن الخطأ إذن أن نربط مدرسة بغداد فى الزهد بالحارث المحاسبي وحده وننسى أثر الإمام أحمد بن حنبل ، وقد تبادلوا الصلات معه ، أو نقلوا عنه بعض المسائل كمعروف والجنيد .

وإذا تقبينا فى قصة إسلام معروف الكرخى ، فهل نستدل منها على تأثير مسيحى ؟

الواقع أن سبب إسلامه — لو صح — يؤيد أن الدين الجديد كان المسيطر على قلب هذا الزاهد ، لأنه منذ طفولته رفض عقيدة التثليث الذى حاول مؤدبه أن يلقنه إياها ، وأجاب فى حزم وقطع (بل هو الله أحد) (١) .

ومضى فى العمل الذى يحض عليه الكتاب والسنة فيقول (طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور ، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق) (٢) .

والعبارة واضحة الدلالة على الحث على العمل والتعلق بالأسباب ، وهو المبدأ الذى حرص على اتباعه زهاد السلف عملا بالاقتداء ونبذ لما طرأ من أفكار . وفى نص آخر نرى معروف الكرخى يذم الجدل وأصحابه بقوله (إذا أراد الله بعبد شرا ، أغلق عنه باب العمل وفتح عليه باب الجدل) (٣) .

أما عن رأيه فى التوكل ، فقد استمده من الحديث ، إذ لما سئل عن المصدر الذى استقى منه دعاءه ، قال سمعت أن النبى ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء — وذكر

---

١ — ابن العماد / شذرات الذهب جـ ١ ص ٣٦٠

٢ — ن م والصفحة

٣ — الذهبى / سير أعلام النبلاء / المجلد ٧ قسم ١ ورقة ٨٩ / ٩٠

أسانيده — وكان دعاؤه (اللهم إن قلوبنا ونواصينا بيديك لم تملكنا منها شيئا ، فإذا فعلت بها فكن أنت وليها واهدها إلى سواء السبيل) (١) .

ولكنه لا ينفي جانب المسئولية الفردية ، إذ يرى أي السبب في أداء سجدتي السهو ، هو لعقاب القلب لأنه اشتغل وغفل عن الصلاة (٢) .

وكان معروف موضع إعجاب الإمام أحمد بن حنبل لأنه يمثل عنده العلم الصحيح ، الذي ينبغي تحصيله بالعبارة التي وردت في أكثر من مصدر وهي (أيراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف ؟ !) (٣) .

وهنا ، يحتمل أحد أمرين : الأول ، وهو أن الاعجاب كان متبادلا حقيقة بين الشيخين ، فإن القاضي أبا يعلى يذكر أن معروفا وصف الإمام أحمد بعد أن رآه بأنه (فتى عليه آثار النسك) (٤) . أما الاحتمال الثاني ، فإنه مما يلفت نظر الباحث كثرة الروايات التي تعبر عن المودة المتبادلة بينهما ، والتي قد تعزى إلى رغبة كلا الجانبين — الصوفية من ناحية ، والفقهاء من ناحية أخرى إلى تضييق شقة الخلاف بينهما .

ولكن الاتجاه السلفي الأخير ينقد بشدة بعض النصوص الواردة عن معروف الكرخي ، إما لأنها تتضمن أقوالا تخالف الأحاديث ، أو تحتوي على أحد مظاهر الشرك كوصف قبر معروف بأنه

---

١ — البغدادي / تاريخ بغداد جـ ١٣ ص ١٩٩

٢ — ن ٠ م ص ٢٠٠

٣ — ن٠م والصفحة وأبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٣٨٢

والذهبي / سير اعلام النبلاء مجلد ٦ قسم ١ ورقة ٨٩

٤ — أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٣٨١

(الترياق المجرب) (١) .

ومن طريف ما ينقل عن معروف فيما يتصل بدوامه الع ل ، ولو فى نطاق الذكر باللسان — ما نقرأه فى (سير أعلام النبلاء) حيث يقول الذهبى (وقص إنه ان شارب معروف ، فلم يفتر من الذكر ، فقال : كيف أقص ؟ فقال : أنت تعمل وأنا أعمل) (٢) ! !

٣ - السرى السقطى (٢٥٦ هـ = ٨٦٧ أو ٨٦٩ م)

كان السرى تلميذ معروف الكرخى ، وهو خال أبى القاسم الجنيد (٣) أى أنه ينتمى إلى الحلقة البغدادية فى الحيـــاة الروحية ، كما تضخمت صلته التأثيرية القوية بالإمام أحمد بن حنبل فى ترديده لنظرية الحلال ، ومناداته بوجوب التحرى الدقيق للتأكد من تحقيق هذه الفكرة ، ولهذا اشتهر السرى بخصائص ثلاثة ، طيب الغذاء ، وتصفية القوت ، وشدة الورع (٤) ، وكان ابن حنبل يعرفه بالصفة الأولى خاصة ، أى أنه (الشيخ الذى يعرف بطيب الغذاء) (٥) .

كذلك كان السرى من أوائل الذين تكلموا فى محبة الله ، وبلغ الغاية القصوى من نظريه العشق الإلهى ، إذ يخبرنا عن نفسه (لو قلت أن هذه الجلدة يبست على هذا العظم من محبته لصدقت (٦) ، كما ينشد الشعر مصورا حبه العميق لله عز

---

١ — تعليقة ١ من نفس المصدر ص ٣٨٢

٢ — الذهبى / سير أعلام النبلاء مجلد ٧ قسم ١ ورقة ٩٠

٣ — ابن خلكان / وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٨٢

٤ — ابو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ١٢٦

٥ — ن. م والصفحة وابن الجوزى / صفة ص ٢١٣

٦ — ابن خلكان / وفيات جـ١ ص ٢٨٢

وجل فى أدق معنى وأقواه فى قوله :

من لم يبت والحب حشو فؤاده   لم يدر كيف تفتت الأكباد (١)

فهو إلى جانب اهتمامه بتنفيذ فكرة الحلال ، فإن موضوعات تصفية القلوب وشدة الورع استأثرت باهتمامه ، ولعله من أوائل الزهاد الذين تحدثوا أيضا عن التفرقة الدقيقة بين الرضا والصبر ، فنراه فى تعريفه للصبر يقول (أن تكون مثل الأرض تحمل الجبال ، وبنى آدم) ، ومع هذا ، فإنها — أى الأرض — لا تشكو ولا تئن (ولا تسميه بلاء ، بل تسميه نعمة وموهبة من سيدها !!) (٢)

وتبدأ نظرية الزهد عنده من حيث الوحدة فى الدنيا ، والعزلة والوحدة ، لأن (الدنيا كلها فضول ، إلا خمس خصال : خبز يشبعه ، وماء يرويه ، وثوب يستره ، وبيت يسكنه ، وعلم يستعمله) (٣) . ولكنه فى الوقت نفسه يحرص على الجمعة والجماعة (٤) وذلك اتباعا للسنة بحذافيرها (لأن قليل فى سنة خير من كثير فى بدعة) (٥) .

وتمسكه هنا بالسنة — إلى جانب التعاطف الشديد مع الإمام أحمد بن حنبل — يظهر لنا التيار السلفى الذى برز بمدرسة بغداد لكى يغذى الحياة الروحية بدعائم إسلامية ثابتة بعيدة تماما عن تأثير الثقافات الأجنبية ، فالسرى يحرص على الجمعة والجماعة ، ويتحرى طيب الغذاء فيقول (أشتهى أن آكل أكلة ليس لله

---

١ — أبو نعيم / حلية الأولياء ج ١٠ ص ١١٩

٢ — ن. م ص ١٢٠

٣ — ن. م ص ١١٩

٤ — ابن الجوزى / صفة ج ٢ ص ٢١٦

٥ — ن م ص ٢١٢

فيها على تبعة ، ولا أحد على فيها منة ، فما أجد إلى ذلك سبيلا (١) . فهو فى هذه العبارة يتفق مع ابن حنبل تماما فى نظرية الحلال والتمسك بهذا المبدأ ، واعتباره أساس الزهد وتزكية القلوب ، تمثلا بأهل الورع السابقين ، إذ لما (ضاقت عليهم الأمور فزعوا إلى التقلل) (٢) .

كذلك يتضح تأثره بابن حنبل فى تعظيمه للحديث ، إذ يجعل منه مرحلة ضرورية يبدأ منها الزاهد فإذا (ابتدأ الإنسان ثم كتب الحديث فتر ، وإذا ابتدأ يكتب الحديث ثم تنسك نفذ) (٣) . ويكاد يتفق مع الإمام أحمد فى تعريفه التوكل الذى وصفه ابن حنبل بأنه الاستشراف من الناس ، فإن السرى يذهب إلى معنى قريب من هذا ، لأن التوكل عنده هو (الانخلاع من الحول والقوة) (٤) .

ولعل اتفاق السرى مع ابن حنبل فى مثل هذه النظريات ، جعلت الزهاد يضعونه فى مصاف الإمام أحمد وبشر الحافى (٥) .

وأن هذه المقارنة تشير إلى تمسك الثلاثة بمنهج واحد فى الزهد ، وهو بلا شك الطريق السلفى الذى مكنهم من الوقوف فى وجه التيارات الغريبة من الإسلام . وها هو السرى يعترض على نظرية تقسيم العلم إلى ظاهر وباطن ،

---

١ ـ ابن خلكان / وفيات ج ١ ص ٢٨٣ وابن كثير / البداية ج ١١ ص ١٣ والحلية ج ١٠ ص ١١٦

٢ ـ ابو نعيم / الحلية ج ١٠ ص ١١٦

٣ ـ ن. م ص ١٢٥

٤ ـ ن م ص ١١٩

٥ ـ ن . م ص ١٣٦

ويصرح فى جلاء بأن (من ادعى باطن علم ينقض ظاهر حكم فهو غالط) (١) .

ويستمد السرى مذهبه الأخلاقى من أسس إسلامية بحتة ، فإن الخصال الأربعة التى تقع مع العبد هى (العلم والأدب والعفة والأمانة) (٢).

٤ — الجنيد (٢٩٧ هـ)

يعد الجنيد سيد طائفة الصوفية كما يذكر القشيرى (٣) . وكان التصوف فى عصره قد اقترب من المرحلة التى أصبح فيها منهجا للمعرفة ، وبدأت معالم الكشف تتخذ أحد الصور الخطيرة بادعاء بعض الصوفية سقوط التكاليف. ووقف الجنيد فى وجهها بعنف وأعلن (أن الذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا ، وهو عندى عظيمة) (٤) .

لقد اتخذ الجنيد هذا الموقف لأنه بدأ فقيها ، وكان يفتى وهو ابن عشرين سنة (٥) ، كما أسند الحديث ونقل عن الإمام أحمد بعض المسائل (٦) .

ويمثل الجنيد أحد المراحل التى ظهر فيها بداية تأثر الزهاد بالتصوف . فقد لاحظنا أن الاتجاه الغالب للزهاد لايقترب صوب (علم المعرفة) ، ولم يتخذوا اسم (العارفين) أى كانوا يسلكون الطريق الروحى المعتاد الذى غلب عليه اسم الزهد من اتباع الورع والحض على التقوى ، والحديث عن النظريات الدينية التى

---

١ — أبو نعيم / حلية الأولياء ج ١٠ ص ١٢١

٢ — ن. م ص ١٢٠

٣ — الرسالة القشيرية ص ١٨

٤ — ن. م ص ١٩

٥ — ابن الجوزى / المنتظم ج ٧ ص ١٠٥

٦ — أبويعلى / طبقات الحنابلة ج ١ ص ١٢٧ والنابلسى / المختصر ص ٨٩

تتناول الدنيا والآخرة ، وكانت الدائرة التي ينحصر فيها الزهد متداخلة بين المجاهدة للنفس وترك الشهوات ، والحث على تقوية الوازع الديني في إطار إسلامي بحت أي انحصرت في الاتجاه العملي الأخلاقي . فهل اضطر الجنيد إلى استخدام أسلوب العصر في مجابهة تيار التصوف الفلسفي الذي بدأت تتضح معالمه .

للإجابة على هذا السؤال ، يقتضي البحث أن ننظر أولا في المصطلحات التي استخدمها في التعبير عن آرائه . إنه تكلم عن القديم والمحدث ، أي استعمل اصطلاحات المتكلمين والفلاسفة . وقد يبدو لأول وهلة أنه تأثر بالمحاسبي الذي كان يذهب إلى منزله ويدعوه للخروج معه ، وبالرغم من أن الجنيد كان في بداية الأمر ينزعج من الخروج إلى الطرقات والتعرض بذلك للآفات والشهوات كما يخبرنا عن نفسه — إلا أنه سرعان ما كان يستجيب للصوفي المتكلم ويغرقه في أسئلته المتعاقبة (١) .

ولكن هذه القصة التي يذكرها صاحب (حلية الأولياء) تضع الجنيد في صورة الكاره لصحبة المحاسبي الذي يضطر تحت الإلحاح إلى إجابته إلى طلبه . بعبارة أخرى فإن المحاسبي هو الذي يسعى لها وليس الجنيد ، ثم يقول أبو نعيم (ثم اشتغل بالعبادة) (٢) . ونفهم من هذه العبارة أن الجنيد انصرف عن مصاحبة الحارس المحاسبي . وكانت له آراؤه الخاصة جعلته سيد الطائفة .

واتخذ الجنيد موقف الخصومة من علم الكلام فهو القائل (أقل ما في الكلام سقوط هيبة الرب من القلب ، والقلب إذا عرى من الهيبة لله عرى من الإيمان) (٣) .

---

١ — أبو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ٢٥٥/٢٥٦

٢ — أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٢٧

٣ — السيوطي / صون المنطق والكلام ص ٧٤ تحقيق د. النشار ط الخانجي ١٣٦٦ هـ ١٩٤٧ م

كذلك خاض فى الموضوعات الطارئة التى لم يعرفها الزهاد من قبل ، منها دعوى سقوط التكاليف التى عارضها الجنيد بعنف كما قلنا ، ومنها ظهور ما يسمى بمقام المشاهدة الذى بدأ يتسرب إلى الفكر الصوفى ليتخذ منه نظرية معرفة ، إن هذه الفكرة كانت تلح على المحيطين بالجنيد ، فيسأ ونه عنها (هل عاينت أو شاهدت ؟) !! ونعثر فى إجابته على دحضه لنظرية الكشف الصوفى التى يروج لها الصوفية المتأخرون ، إذ يجيب (لو عاينت تزندقت ، ولو شاهدت تحيرت) !! ، ثم يؤكد العجز التام فى هذا الصدد بقوله فى نهاية العبارة الآنفة الذكر (ولكن حيرة فى تيه ، وتيه فى حيرة) (١) .

أما حديثه عن الصفات ، وتفرقته بين القديم والحديث ، فيبدو أنه تكلم فيها للرد على نظرية الحلول التى روج لها الحلاج . ومعاصرته للحلاج تؤذن بالعثور على العلاقة بين آراء الحلاج فى الحلول ، وبين تمسك الجنيد بالتفرقة بين القديم والمحدث .

ولا شك أنه رأى أحد مقومات العقيدة السلفية يهتز من أساسه بتأثير فتنة الحلاج ، فأراد أن يعيد الصوفية مرة أخرى إلى العقيدة الصحيحة ، فأعلن أن (مذهبنا إفراد القديم عن المحدث (٢) . وفى تعريفه للتصوف يؤكد فكـــرة (الاثنينية) ليدحض نظرية (الحلول) ، ويفصل بين الله تعالى ومخلوقاته فيعرف التصوف بأنه (صفاء المعاملة مع الله) (٣) ، ثم أوضح أن طريق الخيرات كلها مفتوح لمن اقتفى أثر الرسول ﷺ وأتبع سنته (٤) فأعاد بذلك أهل القلوب

---

١ ـ أبو نعيم / الحلية جـ ١٠ ص ٢٧٤

٢ ـ ابن العماد / شذرات الذهب جـ ٢ ص ٢٢٨

٣ ـ ابو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٢٨

٤ ـ الحلية جـ ١٠ ص ٢٥٧

وأصحاب الإرادات من جديد إلى سبيل السنة ، ولهذا أصبح شيخهم المعبر عن أحوالهم ومواجيدهم . ولما لجأ إليه ابن كلاب ليسأله عن التوحيد ، أجابه باصطلاحات الصوفية . قال عندئذ ابن كلاب (هذا كلام لا يمكن فيه المناظرة) (١) .

وقد تلقفه التيار السلفي هذه الآراء للجنيد ليضعه في مصاف الشيوخ الذين دافعوا عن العقيدة في أحد المراحل التي كانت معرضة فيها لمخاطر الآراء الأجنبية ويعجب به ابن تيمية ويستشهد بآرائه في نظرية الفناء .

وأخيراً ، تقابلنا الرواية المعتادة التي تكرر عن موت كل شخصية هامة في المذاهب المختلفة ، وهي الرؤى التي يراها المريدون والأتباع لشيوخ المذهب . فإذا سئل الجنيد في هذه القصة التقليدية ، فلا بد أن يجيب بلسان المذهب أيضاً !!

وتتلخص إجابته فيما اكتشفه بعد الموت من أن مظاهر التصوف من الإشارات ، والعبارات ، والعلوم ، والرسوم قد غابت كلها وفنيت (وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في الأسحار) (٢) . أي بعبارة أخرى تعبر عن المذهب السلفي أصدق تعبير : لقد ذهبت الوساوس والخطرات هباء منثورا لاقيمة لها ولا نفع ، وبقيت الفاعلية للعمل وحده الذى كان الجنيد معظماً لشأنه أثناء حياته ، إذ فسر قوله تعالى (ودرسوا ما فيه ـ الأعراف : ١٦٩) بأنهم تركوا العمل به (٣) .

---

١ ــ أبو العماد / شذرات الذهب جـ ٢ ص ٢٢٩

٢ ــ أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٢٩

وأبو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ٢٥٧

٣ ــ أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٢٨

٥ - عمرو بن عثمان أبو عبد الله المكي (٢٩٧ هـ = ٩٠٩ م)

يذكر ابن الجوزى أنه ولى قضاء جدة فهجره الجنيد لأنه رأى أن قبوله تولى القضاء يعبر عن الاتساع فى طلب الدنيا ! ، ثم ينتهى فى ختام ترجمته له أنه توفى ببغداد (١) .

ويبدو أنه نشأ بالحجاز إذ يلقب بـ (المكى) نسبة إلى مكة ، ثم أن توليه القضاء بجدة يدلنا على أنه مكث بأرض الحجاز ، ولكننا لانعرف الوقت الذى انتقل فيه إلى بغداد ، وربما ذهب إليهـــا رغبة فى التنقل والترحال الذى اعتاده الصوفية ، إذ يورد أبو نعيم فى ترجمته له أنه (ساح فى البلاد) (٢) .

ولعل مالفت نظر ابن تيمية إليه ليضعه فى مصاف أهل الزهد السلفيين ، ما ينقله لنا من نصوص كتاب له يسمى (التعرف بأحوال العباد والمتعبدين) ، الذى ضمنه عقيدة السلف فى الصفات ، مع إضفاء الطابع الروحى الذى نلمسه فى مثل تفسير قوله تعالى «وجاء ربك والملك صفا صفا» . بأن المجىء بصفة لا تلحقه الكيفية ولا التشبيه فيه تحسر العقل ، وتنقطع النفس عند إرادة الدخول فى تحصيل كيفية المعبود) (٣) .

كما يورد النصوص المثبتة لصفات العلو ، فى تفسيره لقول الله تعالى (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هو تمور ، أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا ؟ !) .

يوضح المكى تفسير الآيتين بأن الله تعالى وتقدس أقرب فى قربه من حبل

---

١ - ابن الجوزى / المنتظم ج ٦ ص ٩٣ .

٢ - أبو نعيم / الحلية ج ١٠ ص ٢٩١ .

٣ - ابن تيمية / الرسالة الحموية الكبرى (مجموعة نفائس) ص ١٢٨ .

الوريد ، وأنه عز وجل البعيد فى علوه من كل مكان بعيد ، ثم يقول (تعالى وتقدس أن يكون فى الأرض كما هو فى السماء ، جل عن ذلك وعلا علواً كبيراً) (١) .

ثم نرى هذا الطابع ظاهراً بصفة خاصة عند تفسيره للآيتين اللتين يرى شيوخ السلف أنهما يتضمنان الحجة فى إثبات صفات الله دون تشبيه أو تمثيل أو تعطيل وهما (ليس كمثله شىء ـ الشورى / ١١) وقوله عز وجل (ولم يكن له كفوا أحد ـ سورة الإخلاص) .

ويحيط المكى تفسيره لهما بما يتصل به وجدانه من الإجلال والمحبة لله فيقول (واعلم ـ رحمك الله ـ أن كل ما توهمه قلبك ، أو رسخ فى مجالى فكرتك ، أو خطر فى معارضات قلبك ، من حسن أو بهاء أو إشراف أو ضياء أو جمال أو شبح ماثل أو شخص متمثل ، فالله بخلاف ذلك كله) (٢) .

ويكاد يتطابق هذا الوصف مع عبارة مشابهة وردت على لسان ابن تيمية فى مجال الصفات يقول فيها (ولكنا نعلم أن ما اختص به الله وامتاز به عن خلقه ، أعظم مما يخطر بالبال ، أو يدور فى الخيال ! !) (٣) . ولا نستبعد أن الشيخ السلفى كان ينكب على تراث الزهاد يقرأه ويتذوق ويتأثر به .

ونعود إلى تفسير المكى ، الذى نلمح فيه التأثير الوجدانى غالباً . فهو ليس تفسيراً رمزياً ـ مثل تفسير (لطائف الإشارات) للقشيرى مثلا ـ بحيث ينأى

---

١ ـ ابن تيمية / الرسالة الحموية الكبرى (مجموعة نفائس) ص ١٢٨

٢ ـ أبو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ٢٩١

٣ ـ ابن تيمية / الرسالة التدمرية (مجموعة نفائس) ص ١٩

بالمعنى الصريح إلى معنى آخر رمزى ، ولكنه هنا ، حيث حياة القلوب وانفعالات النفوس ، يجعل الآيات تنبض بالوجد والمحبة ، فتجعلنا نحس تذوق المكى للمعانى بمنهج أصحاب الأحوال والمقامات .

وأول المقامات عنده هو مقام التوكل ، إذ يهرب العبد فزعا إلى الله ، متخلصاً من حيرة الهوى (إذ لا قابض ولا باسط ولا نافع ولا ضار ولا معين، ولا ناصر ولا عاصم ، ولا عاضد إلا الله وحده لا شريك له فى سمائه وأرضه) (١) .

ويستمد معنى المراقبة من قوله تعالى (إن الله كان عليكم رقيباً - النساء / ١) التى تستلزم الإخلاص والورع ، وتفقد القلوب بالأعمال والنيات فى كل الأحوال والأعمال والحركات والسكنات . إن حياة القلوب والضمائر عنده هى الأصل ، وهى المحرك للجوارح، فإذا دامت حالة المراقبة لله فى القلوب، فشا الحياء فيها ، فأعظمت حركات الله حياء من جلال الله . فإذا ما تمكنت المراقبة فى القلوب ازداد الحياء من الله .

ولا يمضى شيخنا فى هذا التفسير الوجدانى إلى مداه ، إلا بعد أن يستهدف منه تحقيق أوامر الشريعة ، واجتناب نواهيها . فالغرض من المراقبة لا يعنى الانحباس فى دائرة المحبة والوجد ، بل بيان تأثير ذلك على المراقبة ، فإذا ما عظمت مراقبة الله فى القلوب ، أصبحت أكثر حياء إذ (دوام الحياء يوجب عن القلوب إعظام حرمات الله) (٢) .

كذلك يفعل المكى فى نظرته إلى النفس والتنقيب عن أحوالها ، وأخذها

---

١ - أبو نعيم / حلية الأولياء ج ١٠ ص ٢٩١

٢ - ن٠م ص ٢٩٥

بالمجاهدة ليذتقل بها من التوبة والاستغفار ، إلى التقشف والتعب والنصب ، إلى المحاسبة والتوقيف على كل لحظة وخطرة وهمة وشهوة وإرادة ، ويمضى فى فى هذه الأحوال ، لينقل النفس إلى أحوال جديدة تتحقق عندها تذوق المحبة والسرور والراحة (فذلك كله من صفة الحياة التى دعا الله إليها ، ونبه قلوبهم عليها بقوله سبحانه وتعالى : (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم — الأنفال / ٢٤ (١)) .

هذا هو الهدف الذى يسعى وراءه الشيخ من تفسيره الآيات : أى تعظيم أوامر الله ، واجتناب نواهيه ، وتعميق الحياة الروحية عند المسلم لتحقيق معنى الحياة التى تنص عليها الآية .

إلى جانب هذا ، نلاحظ أسلوبه الأخاذ فى التفسير الذى لا يخلو أحيانا من الإسراف فى استخدام المحسنات اللغوية ، والاعتماد على إيقاع الكلمات المترادفة فى تأكيد المعانى التى يريدها . ففى تفسيره لقول الملائكة (لا علم لنا إلا ما علمتنا — البقرة / ٣٢) يصفهم بأنهم (خشوع ، خضوع ، خنوع فى حجرات سرادقات العرش محبوسون أن يتأملوا ساطع النور الأوهج ، فهم يضجون حول عرشه بالتقديس ضجيجا ويعجون بالتسبيح عجيجا ، باهتون ، راهبون ، خائفون ، مشفقون وجلون لما بدا لهم من عظيم القدرة ، ولما أيقنوا به وسلموا له من شموخ الرفعة (٢)) .

والحق أن التفسير الذوقى يحتاج أيضا ، إلى جانب تأكيد أوامر الشريعة ونواهيها ، توضيح هذه الصورة الأخاذة التى تأخذ بمجامع

---

١ — أبو نعيم / حلية الأولياء ج ١٠ ص ٢٩٥

٢ — ن . م ص ٢٩٢

القلوب فتكون أدنى لقبول العظة . وهذا فيما يبدو ماكان يهدف إليه زاهدنا .

أما اهتمامه بآيات الصفات ، فمرده إلى رغبته فى الدفاع عن العقيدة السلفية ، ليعاند أفكار الحلول أو الاتحاد التى كان الباطنية وأتباع الحلاج قد بثوها بين صفوف الصوفية .

إننا نرى تأكيده على التشبث بالعقيدة السلفية من حيث إعلانه تأييده لأفكار العلو ، وصفات الله ، دون تعطيل أو تشبيه أو تمثيل ، فى مثل قوله تعالى (تعالى وتقدس ، أن يحل بجسم ، أو يمازج بجسم ، أو يلاصق به ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا) (١) .

ولهذا نجد المكى ينضم إلى أصحاب الحديث. وبينما المسائل المتشابكة ، وفى وسط حلقات المرجئة والمعتزلة والخوارج ، كان لأصحاب الحديث دورهم فى التمسك بعقيدة السلف ، فتتقفوا النصوص ، وحرصوا على منهج النقل . ثم كان موقفهم الذى أعلنه زهادهم للرد على أصحاب أفكار الحلول الاتحاد ، لا سيما وأن المكى عرف الحلاج وصحبه فى أحد أدوار حياته ، ولما اكتشف محاولته تقليد القرآن عنفه واشتد عليه ، ثم نبذه . يقول المكى (كنت أماشيه ـ يقصد الحلاج ـ فى بعض أزقة مكة ، وكنت أقرأ القرآن ، فسمع قراءتى فقال : يمكننى أن أقول مثل هذا ، ففارقته) (٢) .

ولقد نقل لنا هذه الواقعة مصدران من مصادر الصوفية اللذان يتخذهما

---

١ ـ ابن تيمية / الرسالة الحموية الكبرى ص ١٢٨

٢ ـ البغدادى / تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٢١

الصوفية حججا لا سبيل للطعن فيهما ، ونعني بهما (رسالة القشيرى) و (اللمع) للطوسى .

فقد أورد القشيرى أن المكى لما رأى الحسن بن منصور - أى الحلاج - يكتب شيئا سأله عما يكتبه ، فأجاب (هو ذا أعارض القرآن) ويعلق القشيرى على ذلك بقوله (فدعا عليه وهجره . قال الشيوخ إن ما حل به بعد طول المدة كان لدعاء ذلك الشيخ عليه) (١) .

أما الطوسى فقد ذكر هذه الواقعة أيضاً بشكل مختلف ، فأرجع غضب المكى على الحلاج إلى أخذه منه كتاب فى شيء من العلوم الخاصة ، وهروبه به ، فلما علم بذلك قال (سوف يقطع يديه ورجليه ويضرب رقبته) (٢) .

سابعا : مدرسة خراسان

من الدعاوى التى تستحق النظر فى أبحاث المهتمين بالدراسات الإسلامية من بعض المستشرقين محاولة إيجاد الصلة المبكرة بين زهاد المسلمين الأوائل بخراسان، وبين البوذية . والمثال على ذلك قول نيكلسون (إن البوذية سادت خراسان قبل الفتح الإسلامى بألف عام ، كما سادت فى فارس الشرقية عموماً ، ومن هنا كان لابد أن تؤثر فى نمو الصوفية فى هذه الأصقاع) (٣) .

ولكنه يعود فيناقض نفسه عندما يذهب إلى أن عامة المسلمين ينظرون بكراهية إلى اتباع بوذا لأنهم وثنيون ، ومن ثم (فليس من الغريب ، ولا من المحتمل أن

---

١ - الرسالة القشيرية ص ١٥١

٢ - الطوسى / اللمع ص ٤٩٩

٣ - نيكلسون / الصوفية فى الاسلام ص ٢٤ - ترجمة شريبة

يعقدوا معهم أواصر صلة) (١) ! !

فإذا كان هذا الحكم يصدق على عامة المسلمين كما يرى ، فما باله بعلماء خراسان الكبار من الزهاد الأوائل مثل الفضيل بن عياض وعبد الله بن المبارك وغيرهما ، الذين وقفوا بالمرصاد لكافة البـــدع – وهو اصطلاح يعنى به أى تسلل لتأثير أجنبى . كان الفضيل يقول (أدركت خيار الناس كلهم أصحاب سنة ينهون عن أصحاب البدع ، وصاحب سنة وإن قل عمله فإنى أرجو له وصاحب بدعة لا يرفع الله عملا وإن كثر) (٢) ، وكان ينهى من مخالطة أهل البدع كما سيأتى .

كان تأثير الإسلام إذن قويا فى نفوسهم . وهذا ما أقره المستشرق نولدكه الذى رأى (أن الحركة الهلينية لم تمس من الحياة الفارسية إلا السطح والقشور ، بينما استطاع الدين العربى — وهو يقصد الإسلام — والحياة العربية أن ينفذا إلى قرارة الحياة الايرانية ولبابها) (٣) .

وأيده براون المستشرق الانجليزى ، ولكنه كان يهدف بتأكيده هذا المعنى إلى نفث روح العـــداء بين المسلمين — من العرب وغيرهم — وهى دعوى شعوبية (كان غايتها القضاء على الروح الإسلامية فى إيران وفصلها سياسيا عن المجموعة العربية) (٤) .

ثم تنقف جولد تسهير فكرة السياحة وحاول إرجاعها إلى الرهبانية ويذهب

---

١ – نيكلسون / الصوفية فى الاسلام ص ٢٣ – ترجمة شريبة

٢ – ابن بطة ٣٨٧ هـ / الشرح والابانة ص ٣٢

٣ – براون / تاريخ الأدب فى ايران ص ١٣

٤ – د. النشار / نشأة الفكر الفلسفى جـ ٣ ص ٥٣٥

إلى أن (الكلمتين مترادفتين تماما) (١) . وهو يعنى الزهاد الذين ساحوا فى البلاد ولم يتنبه إلى أن المعنى الصحيح للسياحة هو طلب العلم . قال عكرمة (١٠٧ هـ = ٧٢٥ م) — وهو مولى ابن عباس وأحد التابعين والمفسرين المكثرين : السائحون هم طلبة العلم (٢) . ثم أن أوائل السائحين فى الإسلام - كما يرى أستاذنا الدكتور النشار (لم يكونوا زهادا . بل كانوا محدثين ، تفتيشا وراء الحديث ، وتحريا لمواطنه ولصحة رواته) (٣) . وسنرى كيف أفنى عبدالله بن المبارك عمره فى الأسفار حاجا ومجاهدا ، وتاجرا ، وطالبا للحديث (٤) .

وفى عرضنا للزهد فى مدرسة خراسان ، سنبحث فى آراء أربعة شيوخ بها وهم :

ابراهيم بن أدهم (١٦١ / أو ١٦٢ هـ = ٧٧٧ / أو ٧٧٨ م) .

الفضيل بن عياض (١٨٧ هـ = ٨٠٢ م)

عبد الله بن المبارك (١٨١ هـ = ٧٩٧ م)

أبو عثمان الحيرى النيسابورى (٢٩٨ هـ = ٩١٠ م)

١ - ابراهيم بن ادهم :

إذا كانت قصه إتجاه ابراهيم بن أدهم إلى حياة الزهد والعزلة واختيار الانسلاخ عن الإمارة بمحض إرادته قد سيقت على نمط قصة بوذا ، فإننا لا نستطيع

---

١ - جولد تسهير / العقيدة والشريعة ص ١٤٨

٢ - ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٨٤

٣ - د. النشار / نشأة الفكر جـ ٣ ص ٥٣٧

٤ - الذهبى / تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٥٠

الإغضاء عن التأثير القوى المباشر للشيوخ الذين عاش معهم ، وحدث عنهم وحدثوا عنه . ولو افترضنا صحة التحول الذى طرأ على حياته ، فإن الافتراض الأكثر صحة وهو انطواؤه تحت لواء الجماعة الزاهدة المسلمة التى أسست المذهب فى إطار آيات الكتاب ، وتقيدت بالمبادىء الإسلامية البحتة .

فابراهيم بن أدهم ممن اشتهروا بطيب المطعم (١) ، ووضع فكرة الحلال أساساً للنبل — التى قد تكون مقدمة لفكرة الفتوة — فيقول (لم ينبل عندنا من نبل بالحج والجهاد وإنما نبل من كان يعقل مايدخل جوفه ، يعنى الرغيفين ، من حله) (٢) .

والدراسة التحليلية لأفكاره فى الزهد لاتخرج عن الإطار العام الذى أتسم به أصحابه ، مما أوجد نوعا من توارد الخواطر أو القبول المشترك بينهم . من ذلك أن من آرائه تفضيل العزلة لأنه يكتفى بالله صاحبا (٣) . فإنه يردد أصداء نفس الاتجاه الذى يميل إليه الفضيل بن عياض أيضا ، فإذا ماسمع من يفضل العزلة عن الجماعة يتساءل (سمعتم كلاما أحسن منه ؟ !) (٤) .

والذى يجعل من قصة تشبهه بهذا أثراً باهتا ليس له مفعول يذكر ، بجانب الأصول الإسلامية ، إنه كان يفضل الحصول على قوته بنفسه ، فيعمل فى مواسم الحصاد (٥) . ويرى أن الأغنياء أكثر حسابا عند الله فى اليوم الآخر ، فهم عنده

---

١ — ابن قتيبة / عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٦٠

٢ — ابن الجوزى / صفة ج ٤ ص ١٢٩

٣ — ابن قتيبة / عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٦٠

٤ — ن . م والصفحة

٥ — ابن الجوزى / صفة ج ٤ ص ١٢٧

(المساكين) لأنهم سيسألون عن الزكاة والحج والجهاد وصلة الرحم ، بينما الفقراء لايسألون عن ذلك كله (١) .

أما الغنى فليس معناه الإكثار من المال ، ولكنه ينصرف عنده إلى عدم التطلع إلى المزيد منه ، فقد رغب أحدهم فى إهداء جبة له ، فلم يمتنع ابن أدهم عن قبولها ولكنه اشترط أن يكون غنيا لكى يقبلها منه ، ثم تأكد قبل قبولها من غنى الرجل فسأله : كم عندك ؟ فأجاب الرجل بأنه يمتلك ألفين ، فعاد يسأله : (فيسرك أن تكون أربعة آلاف ؟ ، قال نعم ، قال : أنت فقير ، لا أقبلها) !! (٢) .

وكان زاهدنا يكثر من زيارة القبور لكى يتخذ من الموت عظة وعبرة ، ثم ينصح أصحابه (إخوتى ، عليكم بالمبادأة والجد والاجتهاد وسارعوا وسابقوا) (٣) وهو دائم الذكر لله فى جوف الله ، فكلما استيقظ صاحبه وجده فى ذكره ! فينظر إلى نفسه فيغتم ، لأنه لايستطيع مسابقة ابن أدهم فى ذكره الدائم ، ولكنه سرعان مايتذكر الآية التى تطبق على الزاهد (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ـ المائدة / ٥٤) (٤) .

ولم يستحوذ الخوف وحده على قلب إبراهيم بن أدهم ، بل كانت تتملكه أيضا محبة الله والشوق إليه ، فإذا ما أحس بهذه الخواطر قال (يارب ، تهت

---

١ ـ ابن الجوزى / صفة جـ ٤ ص ١٢٩

٢ ـ ابن قتيبة / عيون الأخبار جـ ٢ ص ٣٦٢

٣ ـ ابن الجوزي / صفة جـ ٤ ص ١٢٨

٤ ـ ن . م ص ١٣٠

فى حبك فلم أدر ما أقول) ! ! (١)

من هذا يتضح أن حياته الروحية كانت فى الدائرة الإسلامية ، كما أنه — كما يذكر نيكلسون - لم ينتقل من حدود الزهد إلى حدود التصوف لأن مذهبه فى الزهد لا يخرج عن (الإعراض عن الدنيا ، وتأديب النفس) (٢) .

ثم تلتف الأسطورة حول زاهدنا ، فتعدد كراماته ، وهذا لا بأس به . أما أشد صور هذه الأساطير تطرفاً ، فهى التى تصور إبراهيم بن أدهم وعليه فرو ، فلا يميز من يراه بين شعره وبين القمل لكثرته ! ! (٣) .

وأما أشد هذه الصورة بعداً عن حقيقة الزاهد المسلم ، الذى فرض عليه الوضوء ، وتحقيق النظافة فى بدنه وملبسه ؟ ! فهو يعى جيداً القواعد التى دعى إليها الإسلام ، ولا يكتفى بترديد العظات والكلمات ، وإنما يحققها ويدعو إلى العمل بها . قيل له إن الله لا يستجيب لدعائنا وهو القائل (ادعونى أستجب لكم - غافر / ٦٠) ، فأجاب (ماتت قلوبهم فى عشرة أشياء : أولها عرفتم الله فلم تؤدوا حقه . والثانى ، قرأتم كتاب الله ولم تعملوا به . والثالث ، ادعيتم حب رسول الله ﷺ وتركتم سنته . والرابع ، إدعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه . والخامس ، قلتم نحب الجنة وما تعملون لها . .) (٤) .

ويمضى النص بعد ذلك متضمناً مبادىء الإسلام ، ويغلب عليه طابع السلوك كما قلنا . من أجل هذا ، فإن القول بأن إبراهيم بن أدهم سلك سبيل الصوفية قول

---

١ — ابن الجوزى / صفة ج ٤ ص ١٣٢

٢ — دائرة المعارف الاسلامية / مادة ابراهيم بن أدهم — بقلم نيكلسون

٣ — القشيرى / الرسالة القشيرية ص ٧٠

٤ — الشاطبى / الاعتصام ج ١ ص ١٠٨

يحتاج إلى دليل ، إذ يذهب الدكتور أبو العلا عفيفي إلى أنه هو صاحب الحركة الصوفية فى خراسان (١) .

أما الحق فإن ابن أدهم سلك سبيل الزهاد (وكانت حياته إسلامية بحتة .. رابط كما رابط غيره من الزهاد . . واتبع السنة) (٢) .

٢ - **الفضيل بن عياض : (١٨٧ هـ = ٨٠٢م)**

لن نحاول التعرض لمدى صحة الرواية التاريخية التى تتردد فى أغلب المصادر عن سابق حياة الفضيل بن عياض ، حيث كان شاطرا يقطع الطريق . ولكننا نميل إلى القول بأنها تحمل فى طياتها حبكة فنية ، يحتمل معها تعمد الوضع بواسطة الصوفية ، لاسيما وهى تصوره وهو ينصت الآية (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) * ، فهو تدع عن قطع الطريق على المسافرين، وبعد أن ينصت إليهم وهم يعبرون عن خوفهم منه، يستيقظ من غفلته على أصواتهم وهم يتشاورون فيم يفعلون لاتقاء شروره !! وهنا يعلن توبته (اللهم إنى قد تبت إليك ، وجعلت توبتى مجاورة البيت الحرام) (٣).

وربما وجدت هذه القصة آذانا صاغية ، لأنها تتفق فى السياق مع ما اشتهر به الفضيل من شدة خوفه وبكائه كلما أنصت إلى آيات الله تتلى عليه .

والذى يعنينا - مع افتراض صحة هذه الواقعة - هو دراسة مذهبه فى الزهد ،

---

١ - د. أبو العلا عفيفى / الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٣٠

٢ - د. النشار / نشأة الفكر جـ ٣ ص ٤٧١

٣ - ابن حجر العسقلانى / تهذيب التهذيب جـ ٨ ص ٢٩٤

* - سورة الحديد - آية ١٦

لأنه احتل مكانا بارزا بين الشيوخ السلفيين ، إذ يصفه ابن تيمية بأنه (سيد المسلمين فى وقته) (١) .

ووصفه ابن حجر العسقلانى (٨٥٢ هـ = ١٤٤٨م) بأنه الزاهد الخراسانى. فنشأته إذن كانت بخراسان ، ويقول ابن كثير بأنه تقدم الكوفة وهو كبير (٢) . فهل مال إلى الطابع الخراسانى ؟ ؟ أم غلبت عليه سمة الكوفيين ؟ . سينجلى الأمر أثناء بحثنا .

سمع الفضيل الحديث بالكوفة بعد أن انتقل إليها من مسقط رأسه خراسان ، وتدل الأقوال الكثيرة التى أوردها ابن حجر العسقلانى أن رجال الحديث عدوه من الثقات ، واتفقوا على أنه كان فاضلا عابدا ورعا . كما نقل لنا نصا على لسان عبد الله بن المبارك يصفه فيه بأنه أورع الناس ، وأنه مابقى على ظهر الأرض أفضل عنده من الفضيل بن عياض (٣) .

وكون الزاهد الكبير من رجال الحديث يدلنا على تمسكه بالسنة ، ونهيه بشدة عن الأخذ من أصحاب البدع أو الاختلاط بهم . يقول الفضيل (صاحب بدعة لا تأمنه على دينك ، ولا تشاوره فى أمرك ، ولا تجلس إليه ، فإنه من جلس إلى إلى صاحب بدعة ورثه الله العمى) (٤) !! .

وهو يقصد بأهل البدع الطوائف المخالفة للسنة ، ومنها المرجئة الذين قالوا

---

١ — ابن تيمية : التصوف ٦٠٠

٢ — ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٨٩

٣ — تهذيب التهذيب جـ ٨ ص ٢٩٤

٤ — ابن بطة : الابانة ٠٠ ص ٣٦

بأن الإيمان إقرار بلا عمل ، فيعتبر ذلك منهم مخالفة للأثر ، حيث ينص الحديث على أن (الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أفضلها لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان) (١) فهو يستند في دفاعه عن الأثر ، ويتمسك بنص الحديث .

وإذا كان الفضيل قد اتصف (بالورع الدائم والخوف الوافر والبكاء الكثير) (٢)، فإن ذلك لايعدو كونه ارتباطا بالأئمة السابقين . فإن ظاهرة الخوف واضحة عند الخلفاء الراشدين وعند أمثال أبي الدرداء وأويس القرني والحسن البصري ، بسبب الخشية من الله ، وتذكرهم الدائم للموت والمنتظر بعده. فليس الفضيل إذن بدعا حين نراه اذا ماخرج في جنازة يعظ ويذكر ويبكي، حتى يصل إلى المقابر (فيجلس مكانه من الموتى، من الحزن والبكاء حتى يقوم وكأنه رجع من الآخرة) !! (٣) .

هذا هو التفسير الأقرب للصحة لشدة حزنه ، اذا أن الفترة الزمنية التي عاش فيها ، تسبق بكثير عصر الظهور الملامتية في خراسان . ثم أن الفضيل - كمحدث - كان يرتبط بالزهاد من أهل الحديث أوثق ارتباط كسفيان الثوري الذي روى عنه (٤) ، وصحبته لكل من سفيان بن عيينة (٥) وعبد الله بن المبارك (٦) . ولا ننسى المصدر الإسلامي الأول ، وهو الكتاب ، الذي انعكس أثره عليه بعمق

---

١ - عبد الله ابن حنبل / كتاب السنة ص ١٠٠

٢ - ابن حجر / تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٢٩٦

٣ - الذهبي / سير أعلام النبلاء مجلد ٦ قسم ٢ ورقة ٢٥٩

٤ - عبد الله ابن حنبل / السنة ١٠١

٥ - ابن الجوزي / صفة ج ٢ ص ١٣٥

٦ - ابن حجر / تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٢٩٧

عند بداية اتخاذه طريق التوبة ، فقد استجاب لوقع الآيات القرآنية فى نفسه ، ومضى متأثراً بها فى أطوار حياته ، فلم يتخل عن الخوف والرهبة كلما سمع القرآن يتلى عليه . فإذا ماأنصت الى الآية (وما خلقت الجن الإنس الا ليعبدون ـ الذاريات /٥٦) أصابته الرعدة ، وأرقته الخشية من التقصير فى أداء حق ربه عليه فيقول (فالويل لى إن سألنى ، والويل لى إن ناقشنى ، والويل لى إن لم ألهم حجتى !!) (١) . واستقر الخوف من الله فى قلبه فكان (إذا ذكر الله ،أو ذكر عنده ، أو سمع القرآن ، ظهر به من الخوف والحزن ، وفاضت عيناه . وبكى حتى يرحمه من يحضره) (٢) .

ولكن الحزن لم يستغرقه كله ـ كشأن الملامتية فى خراسان فيما بعد ـ لأنه تحدث عن المحبة التى تربط العبد بربه ، ومن علاماتها التقرب إليه بالنوافل،وقيام الليل بصفة خاصة ، فهو يعبر عن ذلك بما يرويه ، أو يتصور أنه كذلك،حديثاً عن الله ، يقول الله تعالى فيه (كذب من ادعى محبتى، واذا أجنه الليل نام عنى . أليس كل حبيب يحب خلوة حبيبه ؟ ها أنذا مطلع على أحبائى ، اذا أجنهم الليل جعلت أبصارهم فى قلوبهم ومثلت نفشى بين أعينهم) (٣) .

ويلخص نظرية المحبة الإلهية فى عبارة أخرى موجزة فيقول (أوثق عرى الإسلام الحب فى الله ، والبغض فى الله) (٤) فيصبح الحب خالصا لله لا لغرض آخر ، وعلى العكس ، يكون البغض بسبب المعاصى التى يبغضها الله ، لابسبب التنافس على متاع الدنيا .

---

١ ـ ابن الجوزى / صفة ج ٢ ص ١٣٩

٢ ـ الذهبى / سير أعلام النبلاء مجلد ٦ قسم ٢ ورقة ٢٠٩

٣ ـ ابن قتيبة / عيون الأخبار ص ٣٠٠

٤ ـ ابن بطه / ٠٠ الابانة ص ٣٦

ولما رسخ فى قلبه هذا المبدأ ، أى الحب فى الله والبغض فى الله ، تجاسر على الوقوف أمام الرشيد آمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر غير هياب ولا وجل .

فإن للفضيل موقفاً مع الرشيد ،حيث يعظه ويؤدى فيه دور الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر فى صيغة ساخرة ، ولكنها ذات دلالة عميقة .

قال له الرشيد : (ماأزهدك) ! ! فأجابه الفضيل بقوله (أنت أزهد منى ، لأنى أنا زهدت فى الدنيا التى هى أقل من جناح بعوضة ، وأنت زهدت فى الآخرة ! !) (١) .

وهكذا ينقد الخليفة بكياسة ، وبأسلوب صريح ولكنه لين يحمل فى طياته الكثير من المعانى .

وفى مرة كأخرى ، حينما استدعت المصارحة ألا يختفى وراء الأسلوب اللين فى المخاطبة ، كان شديداً فى حديثه للرشيد ، فقال له (إن الله لم يجعل أحدا من هؤلاء فوقك فى الدنيا ، فاجهد نفسك أن لا يكون أحد منهم فوقك فى الآخرة)(٢) ثم ينصحه بالكدح لنفسه ، والعمل فى طاعة ربه . ويشتد أيضا فى إحدى المرات عليه حتى يبكيه ! ! (٣) .

وكان القرآن هو المعين الذى يغترف منه الفضيل بن عياض . . يقرأه ، وينظر فى آياته ، ويستخلص منها الأسس النظرية لحياته الروحية . أنه يجد ضرورة الإخلاص فى العمل لقوله تعالى (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) فيفسرها

---

١ — ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٩٩

٢ — ن.م ص ٢١٥

٣ — ن . م ص ٢١٧

بأن العمل ينبغي أن يتوافر فيه كل من الصواب والإخلاص ، فإن فقد إحدى الصفتين لم يقبل، فالخالص هو أن يكون لله ، والصواب هو اتفاقه مع السنة (١).

وحرص الفضيل على متابعة الرسول صلوات الله عليه وصحابته والتابعين عندما أوضح المبادىء الأخلاقية التي يرى التمسك بها . فهي - بعد الإيمان وأداء الفرائض (صدق الحديث . وحفظ الأمانة ، وترك الخيانة ، ووفاء بالعهد ، وصلة الرحم، والنصيحة لجميع المسلمين ، والرحمة للناس عامة) (٢) ، ولما سئل عما إذا كان هذا من رأيه ، أجاب بأنه سمعه من السابقين أهل الفضل والفقه . وقد ظل متأثراً أشد التأثر بالسابقين لأنه أدرك - كما يخبرنا - خير الناس ، كلهم أصحاب سنة ، ولهذا فهو يرى - تعظيما لشأنهم - أن البلاد تحيا بهم ، فهم حزب الله إذ يقول (إن لله عباداً تحيا بهم البلاد ، وهم أصحاب السنة . من كان منهم يعقل ما يدخل جوفه . ومن كان كذلك كان في حزب الله عز وجل) (٣) .

ولزاهدنا رأي طريف في الربط بين المعصية ، والمعاناة في الحياة اليومية ، فيذهب إلى أنه عندما يعصي العبد الله ، يستطيع أن يرى أثر ذلك في خلق امرأته، وخادمه . وحماره ، بل فأر بيته أيضاً ! ! (٤) .

وكأنه قبل موته ، ألهم بالأحداث التي ستهب على المسلمين بعده ، ولن يستطيع التصدي لها - كما فعل مع أهل الإرجاء - إذ ظهر بعد موته القول بخلق القرآن ، وكان يتخوف أثناء حياته من موت الرشيد ، ويلهم بما سيحدث

---

١ - ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢١٧

٢ - ن.م ص ١٩٩ ومجموعة الرسائل الكبرى جـ ٢ ص ٤١١

٣ - ابن بطة / الإبانة .. ص ٢٧

٤ - ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٩٩

بعده (١) ، فهو يقول (طوبى لمن مات على الإسلام والسنة) ، ثم بكى (على زمان تظهر فيه البدعة ، فإذا كان ذلك كذلك، فأكثروا من قول ما شاء الله (٢)

وظلت شخصية الفضيل مؤثرة فى أصحابه الذين رأوا فيه ارتباط النظر بالتطبيق ، فكان عبد الله بن المبارك يقول عنه (إذا نظرت إلى الفضيل ، جدد لى الحزن ، ومقت نفسى (٣) ! !

فماذا كان يفعل ابن المبارك بدوره ؟ هذا ما سنتحدث عنه الآن ..

٣ — عبد الله بن المبارك (١٨١ هـ - ٧٩٧ م)

لا يسع الباحث أمام المواهب المتعددة لشخصية ما ، إلا التردد كثيراً حتى يستأثر بأحد النواحى دون الأخرى .

وأمام عبد الله بن المبارك ، نقف طويلا لنتساءل : أى هذه الجوانب تدخل فى نطاق دراستنا ؟

لقد أجمع أصحابه على أنه علم من أعلام الفقه والأدب والنحو واللغة والزهد والشجاعة والسمعة والفصاحة وقيام الليل والعبادة والحج والغزو والفروسية (٤) ويبدو أن الذهبى تريث طويلا قبل أن يختار أبرز صفاته وأطلق عليه (الإمام ، شيخ الإسلام ، عالم زمانه وأمير الأتقياء فى وقته) ! ! (٥) .

---

١ — ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٢١

٢ — ابن بطة / الابانة .. ص ٣٧

٣ — ابن حجر العسقلانى / تهذيب التهذيب جـ ٨ ص ٢٩٦ / ٢٩٧

٤ — الذهبى / تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٥١ وسير أعلام النبلاء مجلد ٦ قسم ٢ ورقة ٢٥١

٥ — ن.م ورقة ٢٤٥ وكتاب (العلو للعلى الغفار) للمؤلف ص ١١٠

إن ابن المبارك يقدم لنا الدليل على أن أصحاب الحياة الروحية من شيوخ السلف كانوا يعبرون بحق عن الشخصية المثالية للإنسان المسلم . وسنحاول أن نكشف عن بعض الجوانب فى شخصيته :

ولد عبد الله بن المبارك عام ١١٨ هـ ، وعاصر الخلافتين الأموية فى أواخر أيامها ، والعباسية فى مقتبلها ، أى أيام الرشيد . وتمدنا النصوص بمعلومات نفهم منها أن اود كان منعقدا بينـــه وبين الخليفة العباسى ، وقد يرجع السبب إلى استئثار إمامنا باهتمام الجماهير . ومما يساعدنا على استخلاص ذلك أنه عندما جمعت الصدفة بينه وبين الرشيد فى الرقة ، تزاحم عليه الناس مما أثار دهشة أم ولد للرشيد عن هذا الإمام الذى تتوافد عليه الناس واستفسرت عمن يكون . أجابوها بأنه أحد العلماء القادمين من خراسان، فعلقت بانتضاب(هذا هو الملك! لا ملك هارون الرشيد الذى يجمع الناس عليـــه بالسوط والعصا والرغبة والرهبة) ١) !!

أما السبب الثانى - وهو الأهم - فيعود إلى ما كان يفعله الإمام من دعوى عدم التعاون مع الخلافة أيا كان نوع هذا العمل. أى حتى ولو كان القضاء . ومنا نرى الدور الذى يكاد يؤديه كافة زهاد السلف من اتباع مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ومن المحتمل أن ابن المبارك لديه من الأسباب ما دعاه إلى مقاطعة صديقه ابن عليه (١٩٣ هـ - ٨٠٨ م) (٢)، فلم يصله بالصرة الى كان يصلها بها فى كل

١ - ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٧٨ والذهبى / سير ٠٠ مجلد ٦ قسم ٢ ص ٢٤٧

٢ - ابن عليه هو أحمد عباد البصرة وأصله كوفى (ابو يعلى / طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٩٩)

عام . فكتب ابن عليه للإمام مستفسراً عن السبب حتى يقدم الاعتذار فيما بدر منه ، ولم يجد ابن المبارك بدا من الكتابة له شعراً . فإذا ما تأملنا أبيات الشعر التى وجهها لصديقه الذى ولى القضاء ، نستطيع أن نعثر على ملامح نظـــرية ابن المبارك فى الزهد .

قـال :

يا جاعل الدين لــــه بازيا ... يصطاد أمـوال المساكين
احتلت للدنيـا ولذاتهـا ... بحيـلة تذهب بالـدين
فصرت مجنونا بها بعدما ... كنت دواء للمجـانين
أين رواياتك فى سردها ؟ ... عن ابن عون وابن سيرين ؟
أين رواياتك فى سردها ؟ ... لـترك أبواب السلاطين ؟
إن قلت : أكرهت ، فذا باطل ... زل حمار العـلم فى الطين(١)

ويلفت نظرنا جانب الإكراه الذى يشير إليه فى البيت الأخير ، لأنه هو نفسه مر بهذه التجربة . فقد طلبه الرشيد لمقابلته فاختفى ابن المبارك لمدة ثلاثة أيام حتى لا يمثل أمام الخليفة . ثم ظهر بعدها ، فقيل له تجتنب ثم تظهر ؟ أجاب (أردت نفسى على الموت فأبت ، فلما أجابتنى ظهرت) (٢) ! !

أراد إذن أن يهيء نفسه لأبعد الاحتمالات قبل مقابلته للرشيد - فيما لو تمت - لأنه كان يتوقع أن يعبر بآرائه الصادقة ، مهما كانت قاسية ، أى حتى لو أدت إلى حتفه ، فهو يقول (لا تأتهم . فإن أتيتهم فاصدقهم) (٣)

---

١ - أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ١ ص ١٠٠ ، ويقول الذهبى (وقيل ان ابن المبارك كتب إليه هذه الأبيات لما ولى صدقات البصرة) ميزان الاعتدال جـ ١ ص ١٠٢

٢ - الذهبى / تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٥٣

٣ - أبو يعلى / طبقات الحنابلة جـ١ ص ١٠٦

والظاهر أن عبد الله بن المبارك كان سيتخذ نفس الموقف فيما لو قدر له أن يعيش فى ظل الخلافة الأموية . فإن من الشذرات التى أوردها ابن كثير فى (البداية والنهاية) - نقلا عن كتاب الزهد لابن المبارك - ما نستخلص منه اتجاه الإمام نحو معاوية . فقد سجل فيه مقابلة تمت بين عمر بن الخطاب ومعاوية أثناء الحج . وكان الثانى أبض الناس وأجملهم . . فكان عمر ينظر إليه فيعجب منه ، ولم يقتنع بالمبررات التى قدمها للصاحب الثانى حينما قال (يا أمير المؤمنين . . سأحدثك أنا بأرض الحمامات والشهوات) ، لأن عمر رأى أن معاوية لم يظهر بهذا المظهر - أى فى بهائه وثيابه المعطرة - إلا بإلطافه نفسه بأطايب الطعام ، بينما ذوى الحاجات وراء بابه (١) .

وألف ابن المبارك كتابه فى (الزهد) . ويبدو أنه ضمنه أخبار السابقين . وكان حريصاً . كما فعل ابن حنبل بعده ، على تقييد سلوكه بالمذهب . كما كان شديد المعارضة لعلم الكلام إذ يرى أن (من تعاطى الكلام تزندق) (٢) .

واقتضت طبيعة عمل زاهدنا فى التجارة الانتقال من بلد إلى آخر . كما أفنى عمره فى الأسفار تاجراً ومجاهداً وحاجا (٣) . وكان ينفق كسبه من التجارة على أهل الزهد والعبادة والعلم ، وربما دعت الحاجة إلى الإنفاق من رأس ماله أيضا . وكان دأبه إطعام أصحابه اللحم والدجاج والحلوى ، بينما هو الدهر صائم فى الحر الشديد ، فإذا أكل لا يأكل إلا البقل والخبز (٤) !!

---

١ - ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٢٥

٢ - ابن بطة / الديانة ص ٣٢

٣ - الذهبى / تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٥٠

٤ - ابن كثير / البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٧٨

وقد فضل مرة أن ينفق ما أعده من مال للحج إلى جارية وأخيها اكتشف بمحض الصدفة أنها لم تجد ما تقتات به إلا الميتة من شدة العوز والفاقة ، فأعطاها ما كان مخصصا لرحلة الحج - أى ألف دينار - استبقى منها عشرين دينارا فقط للعودة ، وهو يرى أن هذا لتصرف أفضل من الحج فى عامه ، ورجع هذا (١) .

ويعنينا أن نوضح بأن كثرة سفره غازيا وحاجا تشير إلى أنه فهم السياحة على أنها الجهاد - كما ينص على ذلك الحديث ، فى السنن أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (إن لكل أمة سياحة ، وسياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله) (٢) . وقد أخطأ جولد تسهير عندما فسر السياحة بأنها الرهبانية بينما الرهبانية بعيدة تماما عن نظرة الجهاد الإسلامية التى احتلت مكانتها بين الزهاد الأوائل استنادا إلى فهمهم لنصوص الكتاب والسنة (فإن نفع الجهاد عام لفاعله لغيره فى الدين والدنيا ، ومشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة ، فإنه مشتمل على محبة الله تعالى ، والإخلاص له ، والتوكل عليه ، وتسليم النفس والمال له ، والصبر والزهد ، وذكر الله وسائر أنواع الأعمال على مالا يشتمل عليه عمل آخر) (٣) .

فهم عبد الله بن المبارك فضل الجهاد ، ومات منصرفا من الغزو (٤) .

أما حياته العلمية فكانت أعجب ، فإنه كان كثير الانتقال فى طلب الحديث إلى العراق والحجاز والشام ومصر واليمن (٥) . وقد أدرك جماعة من كبار

---

١ - ابن كثير / البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٧٨

٢ - ابن تيمية / السياسة الشرعية ١٣١

٣ - ن . م ص ١٣٢

٤ - ابن سعد / الطبقات ج ٧ ص ٣٧٢ وابن الجوزى / صفة ج ٤ ص ١٢٢

٥ - الطبقات ج ٧ ص ٣٧٢

الأئمة كالثورى وشعبة والأوزاعى (١)، واتصل بالفضيل بن عياض ووصفه بأنه (مابقى على ظهر الأرض أفضل من الفضيل) (٢).

ومع هذا، فإذا ما وجد وقتا، مكث فى بيته قارئا لتراث السلف فإذا ما سئـــل: ألا تستوحش؟ أجاب (كيف استوحش وأنا مع النبى ﷺ وأصحابه؟!) (٣). ويورد ابن الجوزى إجابته بصيغة أخرى يقول فيها (أنظر فى علمى فأدرك آثارهم وأعمالهم، ما أصنع معكم؟! أنتم تغتابون الناس!!.)(٤) وكان يعد القراءة بمثابة الجلوس مع الصحابة والتابعين مادام يقرأ عنهم (٥)

ويذكر ابن النديم أن لابن المبارك من الكتب (السنن فى الفقه والتفسير والتاريخ والزهد والبر والصلة (٦)).

واكتشف زاهدنا أن للعلم غاية أسمى من طلب الدنيا إذ دله على تركها (٧)، ويقول أيضا (عجبت لمن يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة) (٨).

ألهذا السبب كان يؤرقه ضميره، فإذا ما قرأ كتاب (الزهد) فكأنه ثور قد ذبح لا يقدر أن يتكلم؟!! (٩)

---

١ ـ صفة ج ٤ ص ١٢٢
٢ ـ الذهبى / تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٢٢٣
٣ ـ الذهبى / سير .. مجلد ٦ قسم ٢ ورقة ٢٤٦
٤ ـ صفة ج ٤ ص ١٢٢
٥ ـ ن. م والصفحة
٦ ـ ابن النديم / الفهرست ص ٢٢٨ ط ليبزج ١٨٧٢
٧ ـ ابن الجوزى / صفة ج ٤ ص ١٢٠
٨ ـ الذهبى / سير أعلام النبلاء مجلد ٩ قسم ٢ ورقة ٢٥١
٩ ـ الذهبى / تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٢٢٣

لا نستبعد ذلك ، لأنه غاص فى أعماق النفس الإنسانية ، فعرف الكبر بأنه ازدراء الناس ، ورأى فى العجب أن (ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك) (١) ، كما يعدد الفضائل التى يمكن التحلى بها حسب ترتيبها ، فإن خير ما أعطى الإنسان هو العقل ، ثم تتدرج الفضائل بعد ذلك الى حسن الأدب . . فصمت طويل . ولما سئل عمن لم تتوافر لديه إحدى هذه الخصال، أجاب بكلمتين معبرتين (. . موت عاجل) ! ! (٢)

ولاشك أن منهجه هو الاقتداء والتمسك بالأثر . قال (ليكن عملتكم الأثر ، وخذوا من الرأى ما يفسر لكم الحديث) (٣) . وعجب لأمر رجل قرأ القرآن فى ركعة ، لأنه هو نفسه ظل يكرر (ألهاكم التكاثر) فى إحدى الليالى حتى الصباح لم يستطع تجاوزها من فرط إمعانه فيها (٤).

وهكذا نرى أمامنا شخصية منطلقة ، تتفاعل مع الحياة والناس . فلم تلهه التجارة عن الجهاد وطلب الحديث والانكباب على القراءة والمشاركة بآرائه فى الحياة الروحية ، التى لم ينفرد فيها بآراء خاصة، بل ارتبط بمذهب الأئمة السابقين والمعاصرين له . فإنه حتى عند مزاولته التجارة ، قد تحرى طريقة الاقتداء إذ يقول (لولا خمسة ما اتجرت : السفيانان وفضيل وابن السماك وابن عليه)(٥)

وكان شعار الزهد حينذاك هو العبادة والعلم والجهاد ، إلى جانب الاهتمام بالنظر إلى مصير الإنسان بعد الموت والاستعداد ليوم الميعاد .

---

١ — الذهبى / تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٢٣ ٥

٢ — الذهبى / سير أعلام النبلاء مجلد ٦ قسم ٢ ورقة ١٠ ٢

٣ — ن . م

٤ — ن . م

٥ — الذهبى / ميزان الاعتدال ج ١ ص ١٠١

٤ - ابو عثمان الحيرى النيسابورى : (٢٩٨ هـ = ٩١٠ م)

كانت مكانة أبى عثمان الحيرى النيسابورى تضارع مكانة الجنيد ببغداد(١).

وقد احتل هذه المكانة عند شيوخ المدرسة السلفية – لاسيما ابن تيمية – لأنه كان من المعظمين للكتاب والسنة. فهو ينصح بالصحبة مع الله تعالى (بحسن الأدب، ودوام الهيبة والمراقبة. والصحة مع الرسول ﷺ باتباع سنته، ولزوم ظاهر العلم) (٢). ويتجلى اتجاهه للتمسك بالسنة بصفة خاصة من تفسير قوله تعالى (وإن تطيعوه تهتدوا) إلا أن اتباع السنة يؤدى إلى النطق بالحكمة، وبالعكس، من حكم الهوى على نفسه نطق بالبدعة.

وواضح من هذه الآراء أنه لا يخرج عن الاطار العام للزهاد من حيث اتباع النصوص. أما حديثه عن النفس - التى يتخذ منه المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفى دليلا على أنه اتجاه ملامتى لأن (من المبادىء الأساسية التى صدر فيها فى مذهبه الملامتى أن العالم شرلا خير فيه) (٣)، فإننا نجد فى هذا التفسير اتلافا عن مقصود أبى حفص كما سنرى، إذ أن كل ما يهدف اليه زاهدنا هو محاولته تطبيق قواعد الكتاب والسنة بحذافيرها.

أما البحث فى العلاقة بين الفتوة والملامة، والقول بأنهما (وجهان لحقيقة واحدة، وأن الملامتية هم على وجه التحقيق فتيان الصوفية) (٤)، فإن ذلك يذكرنا بالاتجاه الموضوعى لابن تيمية فى بحثه للتصرف وكل ما يتصل به. إنه

---

١ – ابن الجوزى / صفة ج ٤ ص ٨٧ وابن العماد / شذرات الذهب ج ٢ ص ٢٣٠

٢ – أبو نعيم / حلية الأولياء ج ١٠ ص ٢٤٤

٣ – د. عفيفى / الملامتية والصوفية .. ص ٤٢

٤ – ن.م ص ٦٨

لم يعن بالأسماء والصفات بقدر عنايته بالمضمون . وفى نظرته للفتوة وصلتها بالشريعة ، استشهد برأى الإمام أحمد بن حنبل ، فالفتوة عنده (ترك ما تهوى لما تخشى) (١) ، مطابقة لقول الله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى /النازعات : ٠). ويقول ابن تيمية (فمن دعا إلى ما دعا إليه الله ورسوله من مكارم الأخلاق كان محسنا ، سواء سمى ذلك فتوة أو لم يسمه . ومن أحدث فى دين الله ما ليس منه فهو رد) (٢) .

وهـــذا ما فعله أبو عثمان الحيرى . ونعنى بذلك دعوته إلى ما دعا إليه الله ورسوله وإخلاصه لذلك قولا وفعلا . فقد ظل مخلصا للسنة حتى نهاية حياته ، إذ رأى ـ وهو على فراش الموت ـ ابنه يمزق قميصه حـــزنا . فتنبه ، وفتح عينيه لينصح ابنه (يابنى .. خلاف السنة فى الظاهر من رياء فى باطن القلب الباطن)(٣).

وينبغى أن نتوقف قليلا عند ما جاء بذيل عبارته التى يقول فيها ناصحا (ولزوم ظاهر العلم) ، إذ يمكن اتخاذها كأحد الدلائل على اتجاه بدأ يظهر عند زهاد السلف للرد الحاسم على الصوفية الذين انحرفوا إلى الاتجاه الباطنى ، وتوغلوا فى التقسيم الثنائى ـ الشريعة والحقيقة ـ إذا ظلت المدرسة السلفية ـ فى دائرة زهادها والذين اختاروا حياة القلوب والوجدان من شيوخها وروادها ـ تتابع فهم النصوص بهذه الروح .

وليس معنى لزوم ظاهر العلم هو التعلق بالقشور دون اللباب ، فإننا نرى أبا عثمان يغوص إلى أعماق النفس ليصف لنا سعادتها وشقائها وينصح باتباع العلاج

---

١ ـ ابن تيمية / التصوف ص ٨٤

٢ ـ ن٠م والصفحة

٣ ـ ابن الجوزى / صفة جـ ٤ ص ٨٨ وابو نعيم/ حلية الأولياء جـ ١٠ ص ٢٤٥

الجاسم لها ، فإن علامة السعادة هي طاعة الله تعالى (وتخاف أن تكون مردوداً ، وعلامة الشقاوة أن تعصى الله وترجو أن تكون مقبولا) (١) .

أما عن آفات النفس من الكبر والعجب واحتقار الناس والخوف من غير الله والاستسلام للهوى والسرور بالدنيا ، فإنها كلها تؤدى إلى انقطاع العبد عن طريق الله وانتقاد السرور بالله في القلب ، كما يصبح بمعزل عن الرجاء في الله . بعبارة أخرى ، يصبح العبد ذليلا ، سجين شهواته ، بينما التفويض لله يؤدى إلى راحة نفسه (والتفويض مقدمة للرضا ، والرضا باب الله الأعظم) (٢)

وفي نظريته عن صلاح القلوب وفسادها ، يرى أن شرط صلاحها هو جعل الهيمنة لله تعالى وحده ، تواضعا له ، وفقرا إليه ، وخوفا منه ، ورجاء فيه . فإذا ما انحرفت القلوب عن الله ، كان في ذلك فسادها ، وانتقلت من حالة الرضا إلى حالة الاضطراب والصراع مع الناس بدافع الطمع في المال ، والطمع في إكرام الناس وقبولهم .

ولا نظن أنه بهذا المبدأ كان يريد العزلة والانقطاع عن الحياة الاجتماعية ، لأنه في مجال التطبيق ، يذكر الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها العباد في صحبتهم لله ولرسوله وأولياء الله والأهل والولد والإخوان ، محدداً أسس العلاقات التي ينبغي أن تقوم عليها هذه الصحبة ، وكلها مبادىء أخلاقية يحرص على تحديدها للجميع ، بما في ذلك صحبة الجهال ! ، فينصح عند صحبة الأخيرين (بالدعاء لهم ، والرحمة عليهم ، ورؤية نعمة الله عليك أن عافاك مما ابتلاهم به) (٣)

---

١ – أبو نعيم /الحلية جـ ١٠ ص ٢٠٤

٢ – ن.م ٢٤٥/٢٤٦

٣ – ابن الجوزى / صفة جـ ٤ ص ٨٧ وابو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ٢٤٥

كان مقصود أبو عثمان إذن هو جعل الهيمنة الكاملة لله تعالى وحده فى كل الأفعال والتصرفات ، ويتأتى ذلك بذكره الدائم قولا وفعلا . فيقول (أن تذكره فى ذكرك له ، أنك لم تصل إلى ذكره إلا به ، وبفضله ( ) .

ثامنا : مدرسة اليمن

١ - طاوس بن كيسان اليمانى (١٠٦ هـ - ٧٢٤ م)

لم تنفرد بلاد دون أخرى بالأفكار الروحية ، فإن طبيعة هذه الأفكار تتلاقى من حيث صدورها من مصدر واحد ، ولكن اختلاف البلدان قد يضفى عليها طابعا خاصا .

وقد رأينا فى طوافنا بأفكار وملامح المسلمين الأوائل من الزهاد أنهم يشكلون وحدة متماسكة تتفق من حيث تعمقها فى فهم النصوص وانعكاس آثار الآيات والأحاديث على وجدانهم .

لقد انتشر الصحابة والتابعون فى الأمطار المختلفة . واختار طاووس بن كيسان اليمانى الإقامة باليمن ، وهو أول طبقة أهلها من التابعين (٢) .

وفى بحثنا لأفكار التى تدور حـــول موضوعنا ، سنحاول أن نتبين مدى احتوائها على عناصر أخرى ، وبصفة خاصة الآثار الفارسية ، إذ يذكر ابن كثير أنه (من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن) (٣) .

---

١ - ابن الجوزى / صفة جـ ٤ ص ٨٧ وابو نعيم / حلية الأولياء جـ ١٠ ص ٢٤٥

٢ - ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٣٥

٣ - ن . م والصفحة

إن ما نعرفه عن النظام الفارسى حينذاك فى الحكم هو الخضوع التام لملوكهم، ووضعهم فى مرتبة التقديس. ولكن، عندما جاء الإسلام بنظرية الشورى فى الحكم، ولم يجعل للعربى فضلا على العجمى إلا بالتقوى، كان لذلك التحول أثره العميق فى النفوس، بحيث انحسرت العقائد السابقة. قد تبدو آثارها أحيانا، وهذا أمر طبيعى بالنسبة للبعض الذى تحول من عقيدة إلى أخرى، وقد تشتد هذه الآثار وتضعف لأسباب لا محل هنا لبحثها، يبقى الضوء الساطع مؤثرا - أى شمس الرسالة والنبوة كما يسميها ابن تيمية بحيث تحجب ما عداها. وكانت هذه الظاهرة واضحة فى الصحابة والتابعين.

وكان طاووس من التابعين كما قلنا، وازداد تأثره بالدين الجديد، لأنه أدرك عصر من الصحابة، ويعد من أكبر أصحاب ابن عباس ترجمان القرآن(١)

فلا عجب إذن أن أن يتبدل من موقف الذى يقدس الملوك إلى موقف المؤمن العزيز، الذى لا يخشى إلا الله. ويرفض طاووس السعى لمقابلة أمير المؤمنين حينما قدم مكة. وكان طاووس بها حينئذ، لأنه ليس به إليه حاجة. ولما ألح أصحابه أن يذهب لأمير المؤمنين خشية منه عليه، فإنه لم يأبه أيضاً، لأنه يعمل بما يعتقده، ويطابق النظر بالعمل. وهو نفسه ينصح عطاء (يا عطاء.. إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق دونك بابه. وجعل دونه حجابه.. وعليك بطلب من بابه لك مفتوح إلى يوم القيامة، طلب منك أن تدعوه ووعدك الاجابة) (٢).

ولكنه فى إحدى المرات - كما نقرأ فى (البداية والنهاية) - يبدو أنه أجبر

---

١ - ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٣٥

٢ - م.ن ص ٢٣٦

على مقابلة سليمان بن عبد الملك ، لأنه هو نفسه قد طلب من حاجبه أن ينظر إليه فقيها يسأله عن بعض مناسك الحج .

وأدخل طاووس على سليمان عنوة بعد محاولته الرفض . ثم سرعان ما تنبه إلى أن موقفه ذاك سيسأله الله عنه ، فأفصح فى جرأة عما يجيش فى صدره . قال (يا أمير المؤمنين .. إن صخرة كانت على شفير جهنم هوت فيها سبعين خريفا حتى استقرت فى قرارها) . ثم سأل سليمان بن عبد الملك (أتدرى لمن أعدها الله ؟) ، فلما أجاب الخليفة بالنفى ، عاد يوضح له (إن الله أعدها لمن أشركه فى حكمه فجار) (١) .

ونظريته فى الزهد تنبثق من نصيحته لعطاء التى أسلفناها أى الإيمان القوى بالعلاقة المتينة بينه وبين ربه عز وجل . يقصده فى كل آن ، راجيا إياه تعالى ، خائفا منه وحده ، زاهدا فى أصحاب السلطان والجاه ، لأنه سبحانه وحده صاحب الحول والقوة . يقول طاووس (لا أعلم صاحبا شرا من ذى مال وذى شرف) (٢) .

وكان حرفيا فى تطبيق هذه القاعدة ، لأن أحد أبناء سليمان بن عبد الملك جلس إلى جواره مرة ، فلم يلتفت إليه . ولما نبهه أصحابه إليه ، قال (أردت أن يعلم هو وأبوه أن لله عبادا يزهدون فيهم وفيما فى أيديهم) (٣) .

ثم إننا نجد فى شخصية طاووس أحد صور المعارضة لبنى أمية ، التى يحتمل

---

١ – ابن كثير / البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٣٧

٢ – ابن سعد / الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٥٤٠

٣ – ابن كثير / البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٣٨

أن الزهاد أخذوها على عاتقهم عملا بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، هذا المبدأ الفعال الذي حاولوا به أن يؤثروا بنظرياتهم في حياة المسلمين حولهم .
وقد أرسى طاووس أحد قواعد الحياة الزاهدة عند المسلمين ليفرق بينها وبين نظرية الزهد المسيحي . فحارب فكرة العزوف عن الزواج فقال (لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج) ، ثم ازداد في تقريعه لمن يرفض الزواج ، إذ زجر أحدهم بقوله (ما يمنعك من النكاح إلا عجز أو فجور) !! (١) .

ولكنه مع هذا يحذر من النساء ويصفهن بقوله (فيهن كفر من مضى وكفر من بقى) (٢)، مفسراً الآية (خلق الإنسان ضعيفا) بأن الإنسان لا يكون في شيء أضعف منه في النساء (٣) .

فهل كان يحض على الزواج ويدعو له ويحارب الهاربين منه بغرض دعوته لاتقاء الفتنة ؟ أم أنه خشي تأثير الرهبنة المسيحية ؟ .

من حديثه عن الزواج يتضح أنه وقف في وجه التيار المتشبه بالرهبان ، الذي يبدو أن البعض حاول السير في اتجاهه ، وأبرزه مظاهر الامتناع عن الزواج . ولكن هذا لا يمنع من تشبثه لتعاليم الكتب السماوية مع اتفاقها في الأصول . فقد جمع — فيما يرى — التوراة والإنجيل والقرآن في عبارة واحدة هي (خف الله مخافة لا يكون عندك شيء أخوف منه ، وارجه رجاء هو أشد من خوفك إياه ، وأحب للناس ما تحب لنفسك) (٤)

ثم يقدم طاووس لنا أحد عناصر نظريته ، مما يجعله في دعاته الذي يفصل

---

١ – ابن كثير / البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٤٦

٢ — ن. م ص ٢٤٧

٣ – ن م ص ٢٢٦

٤ — ن. م ص ٢٣٨

فيه بين مظاهر الحياة الزائلة وبين الأسس التي تظل باقية فيما وراءها ، فكان دعاؤه (اللهم احرمني المال والولد ، وارزقني الإيمان والعمل) (١)

وكان يرفض أن يدعو لمن يطلب منه ذلك ، ويأمر طالب الدعاء أن يدعو لنفسه (لأن الله يجيب المضطر إذا دعاه) (٢) . وأحيانا يعتذر لسبب آخر ، وهو أنه لا يجد في قلبه خشية فيدعو !! (٣)

ونراه يؤثر في الإمام أحمد بن حنبل فيما بعد ، حيث ترك الأنين في مرضه عندما علم بقول طاووس (ما من شيء يتكلم به ابن آدم إلا كتب عليه ، حتى أنينه في مرضه) (٤)

٢ – وهب بن منبه (١١٠ هـ – ٧٢٨ م) :

إننا عندما نعرض لأشخاص الصحابة أو التابعين الذين أسلموا بعد اعتناقهم من قبل اليهودية أو المسيحية ، نحاول أن نستكشف امتداد العقائد السابقة بعد إسلامهم . وهل كانوا يعدون منافذ أطل منها المسلمون على الرسالتين السماويتين الأخريين ؟

قلنا بصدد حديثنا عن طاووس بن كيسان أن الإسلام كان بمثـــابة النور الساطع الذي حجب الرؤية عما عداه . ويرى ابن تيمية أن أصول الأديان واحد . كذلك انتهى أستاذنا الدكتور النشار من أبحاثه التي تعقب فيها دراسات المستشرقين

---

١ – ابن كثير / البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٤٦ وابن سعد / الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٥٤٠

٢ – ن.م ص ٢٣٩

٣ – ن.م ٢٤٢

٤ – ن.م والصفحة

إلى القول بأنهم (لم يقرأوا القرآن بحق، ولم يفحصوا الحديث بصدق، والإثنان يعلنان أن الدين واحد، وأن ما تعدد هو صور الأنبياء، وأن الحقيقة واحدة، متكررة على لسان موسى وعيسى ومحمد) (١)

ومن هنا أيضا لم ير المسلمون بأسا فى الإنصات إلى هؤلاء الذين عرفوا أكثر من رسالة سماوية. فان آرائهم كانت وليدة العلم الذى دعوه بالنظر والمقارنة. ويعد وهب بن منبه - التابعى الجليل - نموذج من هؤلاء الذين عرفوا كتب الأوائل (وله صلاح وعبادة، ويروى عنه أقوال حسنة، وحكم ومواعظ).

ويحدثنا عن نفسه فيقـول (قرأت اثنين وتسعين كتابا كلها أنزلت من السماء) (٢)

وارتباط وهب بحلقة الزهاد الأوائل. رأوا فى أقواله وآرائه تدعيما لنظرياتهم التى تحوم حول أفكار الزهد. لهذا فإن ابن المبارك كان ينقل لنـا فقرات من القصص التى قالها وهب، وكذلك فعل سفيان بن عيينة الذى لم ير بأسا من الإسناد إليه فى الحديث فى معتقده وسلوكه.

إن الجانب الأخلاقى عند وهب أكثر وضوحا من غيره من الجوانب. فكان يدعو دائما إلى الحض على التشبه بسيرة الأتقياء دون الخبثاء، والدعوة إلى اكبار النفوس عن أخلاق السفهاء، والاقتداء بأخلاق الأنبياء والعلماء العاملين، ويميل فى أحاديثه إلى جانب الوعظ الذى يربط بينه وبين المبادىء الأخلاقية فيحض على النصح لله الذى لا يكمل إلا بطاعته، ثم يستطرد (ثم زين طاعتك بالحلم

---

١ - د النشار / نشأة الفكر ج ٣ ص ١٨٥

٢ - ابن سعد / الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٥٤٣

والعقل والفقه والعمل) (١)

وينقل وهب للمسلمين القصص عن أخبار بنى إسرائيل الذين حادوا عن الطريق القويم : تفقهوا لغير الدين ، وتعلموا لغير العمل ، وابتاعوا الدنيا بعمل الآخرة ، ولبسوا جلود الضأن ، وحووا نفوس الذئاب . . وذلك فى حديث عن الله تعالى ، يخاطبهم فيه فى نهايته بقوله (تطيلون الصلاة ، وتبيضون الثياب تنقصون بذلك مال اليتيم والأرملة) (٢)

وربما كان يقصد تحذير أهل الزهد بخاصة والمسلمين بعامة من تقليد أولئك الأحبـــار .

ويبدو أنه كان من أوائل الشيوخ الذين خاضوا فى مسائل الغرض من العبادة ، أهى رجاء الثواب أم خوفا من العقاب أم حبا لله ؟ . يسند وهب الرأى - كما يذكر - إلى أحد الحكماء ، الذى يرى أنه يستحى أن يعبد الله رجاء دخول الجنة فقط فيصبح كالأجير ، كذلك يستحى أن يعبده خوفا من النـار فحسب فيصبح كالعبد الذى يعمل بالرهبة ، ثم يفضل طريق المحبة ويعلن (وإنى ليستخرج منى حب الله مالا يستخرج منى غيره) (٣)

إننا إزاء هذه العاطفة المتقدة بالمحبة ، نرى اتجاها مخالفا لمدرسة البصرة التى تميزت بالخوف ، وكان إمامها الحسن البصرى المعاصر لوهب بن منبه .

ولكننا سرعان ما نلمح رأى وهب المباشر فى الموضوع ، لأن ما سقناه آنفا

---

١ - ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٧٦/٢٧٧

٢ - ن.م ص ٢٧٨

٣ - ن.م ص ٢٩١

قد أسنده إلى أحد الحكماء كما قلنا . إذ نقرأ له رأيه الخاص الذى يتصل اتصالا وثيقا بدائرة الإسلام الكبرى . حيث يرى أن للدين نواحى ثلاثة أولها ، العمل لله شكرا على النعم الكثيرة . والثانية ، الرغبة فى الجنة ، لأن الزهد فيها نوع من السفه ـ أما الثالثة ، فالعمل فرارا من النار الذى لا طاقة لأحد بتحملها .

ثم يدعم هذه النظرية التى نستنتج منها ارتباطه فى مذهبه بالكتاب والسنة ارتباط وثيقا فيقسم رؤوس النعم إلى ثلاثة : العافية التى تطيب بها الحياة ، والغنى الذى يتم العيش به ، ثم يتوج بها النعمة الكبرى : نعمة الإسلام . . التى تتم النعم به .
وفى نظرته للسنة يقول (طوبى لمن وسعته السنة يتعداها إلى البدعة) (١)

وله نظرات ناقدة لما قد يحتمل أنه لاحظه للزاهدين فى عصره فيحذرهم (أريل لكم إذا سماكم الناس صالحين وأكرموكم على ذلك !!) (٢)

ويتلخص مذهبه الأخلاقى فى اتقاء العيوب الأربعة التى تكل (الكفر وهى الغضب والشهوة والطمع والخوف) (٣) . والعكس فإن دعائم البر هى نقاوة النفس ، والصبر على الأذى وصعب الكلام . ثم يربط بين هذه الأسس الأخلاقية والعبادة الحقيقية ـ العبادة الكبرى ـ التى يراها فى التوكل (٤)

ثم مرت القرون . . واتخذت فرق الصوفية ـ لاسيما « البطائحية » أتباع الشيخ أحمد بن الرفاعى من رواية نسبوها لوهب بن منبه ـ عادة لبس الأطواق الحديدية فى أعناقهم استنادا إلى ما رواه (إنه كان فى بنى إسرائيل عابد وأنه

---

١ ـ ابن كثير / البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠٠

٢ ـ ن م والصفحة

٣ ـ ن.م ص ٣٠١

٤ ـ ن م ص ٣٠١/٣٠٢

جعل فى عنقه طوقا فى حكاية من حكايات بنى إسرائيل لا تثبت) (١) .

وكان هذا الدفاع ضمن ما احتج به « الرفاعية » فى مناقشتهم مع ابن تيمية ، ولكنه رفض قبوله محتجا بحديثين : أحدهما بمسند الإمام أحمد حين مر النبى ﷺ فرأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة فقال (أمتهوكون يا ابن الخطاب؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية لو كان موسى حيا ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم) .
والثانى فى مراسيل أبى داود (أن النبى ﷺ رأى مع بعض أصحابه شيئا من كتب أهل الكتاب فقال « كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتابا غير كتابهم أنزل إلى نبى غير نبيهم) (٢)

وإذا كان لا يجوز للمسلمين - كما يرى ابن تيمية من واقع النصوص - اتباع موسى ولا عيسى ، فيما علموا أنه أنزل عليهما من عند الله إذا خالف شرعهم (فكيف يجوز لنا أن نتبع عباد بنى إسرائيل فى حكاية لا تعلم صحتها ؟!) (٣)

وطالب ابن تيمية فى نهاية مناقشته المدافع عن الرفاعية باتيان أحد الأدلة القوية . قال له (هات ما فى القرآن وما فى الأحاديث الصحاح كالبخارى ومسلم) (٤) .

---

١ - ابن تيمية / كتاب التصوف ص ٤٦٣

٢ - ن.م والصفحة

٣ - ن.م والصفحة

٤ - ن.م والصفحة

خاتمـــــة

من هذه النظرة السريعة التى ألقيناها على زهاد السلف من أصحاب القرون الأولى ، استطعنا أن نتبين أن الزهد عندهم لا يعنى التجرد من كل شىء . ويصف الدكتور عبد الحليم محمود ثراء بعض الصحابة فيقول (لقد ملكوا المال ، ولم يملكهم المال . وكانوا متحققين بقول الله تعالى « لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) (١)

وقد رأينا نظريات الزهد والتصوف المبكر ترتبط أساسا بالفكر الدينى أوثق ارتباط ، وتتخذ منه أسسه ومقوماته . أما الصبغة الخاصة لكل مجموعة من الزهاد على حدة ـ وهو ما اصطلح عليه بالمدارس ـ فقد كان أمراً ثانويا ، إذ كانت تتلون بطابع الزهاد أنفسهم ، مع اتجاهاتهم وميولهم .

ونستطيع تقريب المعنى ، إذا قارنا الزاهد بخصائصه الفردية التى يضفيها على النصوص القرآنية ، بموقف الفيلسوف الذى يتسم بالفردية ، ولكن الفرق بينهما أن هذا يعتمد على النظر العقلى والاستدلال المنطقى ، بينما يستخدم الزاهد الوجدان والذوق . إن الزهد هنا بمثابة اجتهاد فى تفسير النصوص تفسيراً وجدانيا ، يشع بالعاطفة ، وينبض بصدق الإيمان .

كذلك من الواضح أن طابع السلوك العلمى يغلب على طابع المذهب النظرى ، ولكن البحث وراء هذا السلوك يكشف عن الأسس النظرية التى يلتحم بها ، وهى لا تخرج فى إطارها العام عن الكتاب والسنة .

لقد انبثقت الحياة الروحية والمضمون الوجدانى من الإسلام نفسه لأنه يتضمن هذا الجانب بلا شك ، وانطلق أرباب القلوب على السجية : فمن النظر فى آيات الكتاب ، ومن الاقتداء بالرسول ﷺ ، عرفوا المحبـــة والخشية ،

وتقربوا إلى الله بالعبادات ، وترنموا بالحديث عن الجنة ونعيمها ، وأفاضوا الكلام عن النار وعذابها .

كما سيطرت عليهم فكرة الألوهية ، ووضعوا نصب أعينهم هذه الهيمنة الآلهية التي تحكم سلوكهم : فالإكثار من العبادات للتقرب ، والتقشف خشيــة الحساب ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لإقامة المجتمع المسلم الصحيح . والجهاد لنشر كلمة الحق والعدل والدفاع عن ديار الإسلام ، وتأكيد سلطان الله تعالى في كافة الأمور .

ثم إنه من الصعوبة أن نجد فروقا بين صفاتهم كزهاد أو وعاظ ، أو صفاتهم كفقهاء ومحدثين ، لأن هذه الدوائر تتداخل بحيث يتعذر إقامة الفواصل بينها ، وتتصل بالدائرة الكبرى التي تحيط بها : دائرة الإسلام العظيم .

وهكذا ، فقد حاولوا جهدهم تحقيق النموذج الإنساني الصحيح للفكرة الإسلامية ، حيث يجعلون الله تعالى محور النظام الإسلامي في كافة صوره وأشكاله : من النية ، والعبادة ، والصلاة ، وماله علاقة بالحياة الدنيوية . لأنه - سبحانه - هو المالك الوحيد ، وما مجهود الإنسان - باعتباره خليفة الله في الأرض - إلا إبتغاء مرضاة سيده ومولاه عز وجل(١) . وبتعبير ابن تيمية (أن تكون كلمة الله هي العليا) .

إنهم باختصار ، خلاصة الحضارة الإسلامية ذاتها . فإن تصورهم للحياة الدنيا إنما هي مزرعة الآخرة ، ومن هنا يمكن القول بأنهم تصرفوا في الدنيا (على وجه متوسط بين الرهبانية والنفعية) .

---

(١) أبو الأعلى المودودي : الحضارة الاسلامية ، أسسها ومبادؤها ص ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٨


http://kotob.has.it

فهرس

الصفحة

للمؤلف

١ - نظام الخلافة فى الفكر الإسلامى . . . . دار الأنصار - القاهرة

٢ - الخوارج ومسألة تكفير المسلم . . . . » » »

٣ - المشكلات التى تواجه الشباب المسلم وكيف نتوخاها . » » »

٤ - المنهـــج السلفى . . . . » » »

٥ - نظرية شيخ الإسلام ابن تيمية فى السياسة . . . . » » »

(دراسة وتحقيق) . . . . » » »

٦ - غياث الأمم لإمام الحرمين (دراسة وتحقيق) دار الدعوة - الاسكندرية

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية

٤٧٦٦ سنة ١٩٧٩

مطبعة الرشاد - شارع طيلون - محرم بك

هـذا الكتـــاب ..

● قيض الله للامة الاسـلامية فى قرونها الاولى من ينفـون عن هذا الدين « تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » يدعـون الى تزكية النفوس وتطهير الارواح ، ويجددون صلة القلوب بالله ، ويستنفرون فى عامة الناس قوة مدافعة الشهوات وفتنة المـال والولد وزينة الحيـاة الدنيا ، ويبعثون فى خواصهم روح الشـجاعة على الجهر بكلمة حـق عند سلطان جائر ، والاستهانة بالمظاهر والزخارف ، والقناعة بالقليل اليسير .. فلولا هـؤلاء لابتلعت المادية الطـاغية البقية الباقية من ايمـان الامة وتماسـكها .

● وانا نرى فى المسلمين اليوم أزمة روحية وخلقيــة ، فعامتهم أصبح فريسة المادية والامراض الاجتماعية والخلقية ، والمثقفون والعلماء تنافسوا فى الجاه والمال والمناصب وغلب عليهم الطمع .. وعمت المجتمـع امراض الحسد والشح والرياء والكبر والانانية وحب الظهور والمداهنة .

● ولما كان جوهر رسالة الاسلام خلـق واحسان ، ووسيلتها قدوة وتربية ، واول ميادينها النفوس والارواح ، فلا علاج لامراضنا الا بتزكية النفوس والارواح ، والعودة الى ما كان عليه حال سلفنا الصالح والصفوة من الزهاد الاوائل فى اتباعهم للرسول الكـريم ، حيث كان عليه الصـلاة والسلام مربيا وهاديا بسلوكه الشخصى قبل ان يكون بالكلام ، وبه من الله على الامة المسلمة « لقد من الله على المؤمنين ، اذ بعث فيهـم رسولا من انفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتـاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

● وهذا هو غرض هذا الكتاب ، الذى يرجو به مؤلفه الكريم ان يوجد أيضا قناعة لدى المتطلعين لاحياء الوجدان وانعاش القلوب والارواح، فى ان حياة الزهاد الاوائل هى البديلة لمـا يبحثون عنــه فى التصوف بشطحاته وتجاوزاته فى تحليـل الاذواق والمواجيد واخـلاطه الفلسفية الوافدة من ثقافات الامم السابقة ، التى عكرت صـفاء العقيدة ، وفتحت الثغـرات الواسعة لكل مبتدع أو زنديق أو ملحد او فاسد الراى والعقيدة ليدخل من هذا الباب باسم التصوف ، فأصبح كل ما يكتب او يقـال فى هذه الناحية يجب ان يكون محل نظر دقيق من الناظرين فى دين الله والحريصـين على صفائه ونقـائه .

محمد خليل

دار الدعوة ــ الاسكندرية